كتاب

التوابين

تأليف

الإمام موفق الدين أبي محمد بن عبد الله

ابن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي

(٥٤١ : ٦٢٠هـ)

"بسم الله الرحمن الرحيم"

"قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله"

"صدق الله العظيم"

تحقيق

محمود عبد المالك الزغبي

مكتبة فياض
عزبة عقل المنصورة

دار المنار
للطبع والنشر والتوزيع

إهـــــــداء٢٠٠٦

المرحوم / علي حسن عبد الكافي

الإسكندرية

كتاب

التوابين

تأليف

الإمام موفق الدين أبي محمد بن عبد الله
ابن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي
(٥٤١ : ٦٢٠هـ)

دار المنار
للطبع والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونتوب إليه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، مَنْ يَهْدِه الله فلا مُضِلَّ له ، ومن يُضْلِلْ فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شَرِيك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

﴿ يا أيها الذين أمنوا اتَّقُوا الله حَقَّ تقاته ولا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ آل عمران (١٠٢) .

﴿ يا أيها الناس اتَّقُوا ربَّكم الذى خلقكم من نَفْسٍ واحدة وخلق منها زَوْجَهَا وَبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتَّقُوا الله الذى تسَاءلون به والأرحامَ إنَّ اللهَ كان عليكم رقيبًا ﴾ (النساء : ١) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتَّقُوا الله وقولوا قَوْلاً سديدًا . يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومَن يطع الله ورسوله فقد فاز فَوْزًا عظيمًا ﴾ (الأحزاب : ٧٠ - ٧١) .

وبعد

هذا الكتاب المسمى بـ « كتاب التوابين » من تأليف الإمام العالم العلامة الفقيه/ موفق الدين أبى محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسى . والكتاب طيِّبٌ فى مادته ، جذاب فى أسلوبه ، بديع فى ترتيبه ، ولا غنى لمكتبة عنه ، كذا لا غنى لواعظ عنه . لأن الكتاب يُعَدُّ بحق غذاء روحيًا فالمؤلف عليه رحمة الله قد جمع فيه أخبار التائبين قديمًا وحديثًا ، معتمدًا على كتب الصحاح ، والسنن والمسانيد، وكتب الرقاق . ولا ننكر أن الكتاب يحوى الصحيح والضعيف ، لأن المؤلف بشرٌ يصيب ويخطئ وليس معصومًا ، فإن العصمة قد إنتهت بموت « محمد » صلى الله عليه وآله وسلم ، كما أن القاعدة تقول : « الكل يؤخذ من قوله ويرد عليه ، عدا المعصوم صلوات الله وسلامه عليه » .

والمؤلف عليه رحمة الله قد افتتح كتابه بذكر توبة الملائكة · بإعتبار أن الملائكة قد خلقوا قبل آدم بكثير ، ثم أورد بعد ذلك توبة بعض الأنبياء ، ثم توبة بعض كبار وملوك الأمم الخالية ، ثم توبة بعض أصحاب النبى ﷺ ، ثم توبة ، بعض حكام وأمراء هذه الأمة ، ثم ختم بتوبة بعض أهل الكتاب · هذا والله أسأل أن ينفع به ·

المحقق الشيخ
محمود عبد الملك الزغبى
المنصورة

ترجمة المؤلف (*)

هو : الشيخ الإمام : موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر ، شيخ الإسلام ، مصنف المغنى فى المذهب ، أبو محمد المقدسى ، إمام عالم بارع لم يكن فى عصره ، بل ولا قبل دهره بمدة أفقه منه ، ولد بجماعيل فى شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، وقدم مع أهله إلى دمشق فى سنة إحدى وخمسين ، وقرأ القرآن وسمع الحديث الكثير ، ورحل مرتين إلى العراق إحداهما فى سنة إحدى وستين مع ابن عمه الحافظ عبد الغنى ، والأخرى سنة سبع وستين ، وحج فى سنة ثلاث وسبعين ، وتفقه على مذهب الإمام أحمد ، وبرع وأفتى وناظر وتبحر فى فنون كثيرة ، مع زهد وعبادة ، وورع وتواضع ، وحسن أخلاق وجود ، وحياء وحسن سمت ، ونور وبهاء ، وكثرة تلاوة وصلاة ، وصيام وقيام ، وطريقة حسنة واتباع للسلف الصالح ، وكانت له أحوال ومكاشفات ، وقد قال الشافعى - رحمة الله تعالى - : إن لم تكن العلماء العاقلون أولياء الله فلا أعلم لله وليًّا .

وكان يؤم الناس للصلاة فى محراب الحنابلة هو والشيخ العماد ، فلما توفى العماد استقل هو بالوظيفة فإن غاب صلى عنه أبو سليمان بن الحافظ عبد الرحمن ابن الحافظ عبد الغنى ، وكان يتنقل بين العشاءين بالقرب من محرابه ، فإذا صلى العشاء انصرف إلى منزله بدرب الدولعى بالرصيف وأخذ معه من الفقراء ما تيسر يأكلون معه من طعامه ، وكان منزله الأصلى بقاسيون فينصرف بعض الليالى ، بعد العشاء إلى الجبل ، فاتفق فى بعض الليالى أن خطف رجل عمامته وكان فيها كاغد فيه رمل ، فقال له الشيخ : خذ الكاغد وألق العمامة ، فظن الرجل أن ذلك نفقة فأخذه وألقى العمامة . وهذا يدل على ذكاء مفرط واستحضار حسن فى الساعة الراهنة ، حتى خلص عمامته من يده وبتلطف .

وله مصنفات عديدة مشهورة ، منها : المغنى فى شرح مختصر الخرقى فى عشرة مجلدات ، والشافى فى مجلدين ، والمقنع للحفظ ، والروضة فى أصول

(*) راجع البداية والنهاية - لابن كثير (١٣ / ٦٣ - ٦٥) دار الغد العربى .

الفقه، وغير ذلك من التصانيف المفيدة ، وكانت وفاته فى يوم عيد الفطر فى هذه السنة ، وقد بلغ الثمانين ، وكان يوم سبت وحضر جنازته خلف كثير ، ودفن بتربته المشهورة ، ورؤيت له منامات صالحة ، رحمه الله تعالى ، وكان له أولاد ذكور وإناث، فلما كان حيًّا ماتوا فى حياته · ولم يعقب منهم سوى ابنه عيسى ولدْين ثم ماتا وانقطع نسله ·

قال أبو المظفر سبط بن الجوزى : نقلت من خط الشيخ موفق رحمه الله تعالى:

لا تجلسنَّ بباب من ... يأبى عليك وصولُ داره
وتقولُ حاجاتى إليه ... يعوقُها إن لم أداره
واتركْهُ واقصدْ ربَّها ... تُقْضَى وربُّ الدارِ كاره

* * *

[illegible] الاموي ابو طالب عبد القادر بن محمد اليوسفي [illegible]

الله ... [illegible] بن احمد ... رحمه الله ... [illegible]

[illegible] عن [illegible] بن [illegible] عن عبد الله بن عمر [illegible]

نبي الله صلى الله عليه وسلم يقول ان ادم عليه السلام لما اهبطه الله

الى الارض قالت الملائكة اي رب اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك

الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني اعلم ما لا تعلمون قالوا ربنا

نحن اطوع لك من بني ادم قال الله تعالى للملائكة هلموا ملكين

من الملائكة حتى نهبطهما الى الارض فننظر كيف يعملان قالوا ربنا هاروت

وماروت فاهبطا الى الارض ومثلت لهما الزهرة امراة من احسن البشر

فجاءتهما فسالاها نفسها فقالت لا والله حتى تكلما بهذه الكلمة [illegible]

فقالا لا والله لا نشرك بالله شيئا ابدا فذهبت عنهما [illegible]

[illegible] فسالاها نفسها فقالت لا والله حتى تقتلا [illegible]

[illegible] فذهبت [illegible] تحمله [illegible]

[illegible] لا حتى تشربا [illegible] حتى سكرا [illegible]

[illegible] والله ما تركتما شيئا [illegible] الا [illegible]

راموز الصفحة الثانية من النسخة « ب »

الشيخ في الخروج فصبرت مني في محابس بغداد فلم يجد من يسأله في شيء فلحقه الجوع

والتعب فجلس في ظل دكان نصراني والناس عليه خلق عظيم يعرف لهم

الدواء … النصراني … ان يشكو الى النصراني حاله بل ما بيده

… فقال النصراني … الشيخ عليه انا اعرفه وانا

… الى السوق … وزط … فقال الشيخ

… ركعتين مثل ذلك فاني

… النصراني … والجلاء … في كرب فلما

… قام النصراني … والفقراء

… ودخل الفقير ووضع

الطعام واجتمع الشيخ … والطعام فامسك الشيخ عن

… فقال … هذا الطعام فحكى له القصة …

… الشيخ … كلوا الطعام … دون …

… فقال … الا طعامه … من النار

… فلما رأى النصراني امساكهم عن الطعام مع جوعهم

… الشيخ … الباب … وقطع الزنار وقال

نموذج الصفحة الأخيرة من النسخة « ب »

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر

قال الشيخ الإمام العالم أوحد شيخ الإسلام

موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي رضي

الله عنه الحمد لله الكريم الوهاب الرحيم التواب غافر الذنب

وقابل التوب شديد العقاب يحب التوابين والمتطهرين وعد

بالستر والمغفرة للمستغفرين ويقبل اعتذار المعتذرين فلله الحمد كثيرا

طيبا مباركا فيه كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله وصلى الله على نبيه

وصفيه محمد خاتم الأنبياء وسيد الأصفياء وعلى آله وسلم تسليما كثيرا

هذا كتاب ذكرت فيه بعض أخبار التوابين وتوبتهم إلى الجبار

ترغيبا في الحق بهم والاقتداء بهم بدأت فيه بذكر توبة الملائكة

ثم الأنبياء عليهم السلام ثم ملوك الأمم الخالية ثم الأمم ثم الآحاد

منهم ثم أصحاب نبينا عليه السلام ثم ملوك هذه الأمة ثم التابعين ومن بعدهم ونسأل

الله تعالى أن يتقبل توبتنا ويغفر حوبتنا وينبهنا من السنة ويحيي

قلوبنا بذكر الآخرة

أخبرنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن أحمد بن النقور رحمه الله أنبا

الأمين

راموز الصفحة الأولى من النسخة « أ »

يجد الحال ومضى إلى الدير ونام النصراني [illegible]

فلما [illegible] وقف حارسًا [illegible] دخل [illegible]

[illegible] والشيخ والفقراء وقدموا الطعام إليه

لتصدقهم [illegible] قال الشيخ أتزعمون أنا [illegible]

طعام نصراني [illegible] قالوا وما علامته قال

تعلمون أنه [illegible] كل [illegible] بالنجاة من النار فنزعوا [illegible]

فلما رأى النصراني امتناعهم عن الطعام مع حاجتهم إليه وسمع

ما قال الشيخ قرع الباب ففتح له فدخل وقطع الزنار

وقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم

آخر كتاب

التوابين والحمد لله رب العالمين

وصلواته على سيدنا محمد النبي [illegible]

وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا [illegible]

الفراغ [illegible] سنة [illegible]

[illegible]

راموز الصفحة الأخيرة من النسخة « أ »

بسم الله الرحمن الرحيم (١)

مقـــــدّمة الكتاب

قال الشيخ الإمام العالم الأوحد الصدر الكبير ، شيخ الإسلام موفق الدين ، أبو محمد ، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسى ، رحمه الله :

الحمد لله الكريم الوّهاب ، الرحيم التوّاب ، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ، يحبّ التوّابين والمتطهّرين ، ويغفر للمنيبين والمستغفرين ، ويقيل عثرات العاثرين ويقبل اعتذار المعتذرين ، فله الحمد كثيرًا طيبًا مباركًا فيه ، كما ينبغى لكرم وجهه وعزّ جلاله .

وصلى الله على نبيّه وصفيّه محمّد خاتم الأنبياء وسيّد الأصفياء ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا .

هذا كتاب ، ذكرتُ فيه بعضَ أخبار التوّابين تشويقًا إلى أخبارهم وترغيبًا فى أحوالهم ، والاقتداء بهم .

بدأتُ فيه بذكر توبة الملائكة ، ثم الأنبياء عليهم السلام ، ثمّ ملوكِ الأممِ الخالية ، ثمّ الأمم ، ثمّ الآحادِ منهم ، ثمّ أصحاَب نبيّنا عليه الصلاة والسلامَ ، ثمّ ملوك هذه الأمّة ، ثمّ سائرهم .

ونسأل الله تعالى أن يَقْبَلَ توبتنا ، ويغفر حَوْبَتَنَا (٢) ويسدِّدَ ألسنتنا ، ويَسُلَّ سخيمه (٣) قلوبنا .

---

(١) افتتح الكاتب كتابه بذكر الله . مطبقًا للسنة ، الحديث « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بذكر الله وبسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع » الحديث رواه أبو داود (٥ / ١٧٢) وابن ماجة (١ / ٦١٠) (١٨٩٤) والعينى فى عدة القارى (١ / ١١) وأحمد (٢ / ٣٥٩) . وضعفه الألبانى ، وراجع ضعيف الجامع برقم (٤٢١٧) . وقال ابن الصلاح : هو حديث حسن بل صحيح .

(٢) الحُوبُ : الإثم . وفى القرآن ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنَّه كان حُوبًا كبيرًا﴾ و : الهلاك والحوباء : النفس . وراجع المعجم الوجيز (ص / ١٧٦) وانظر مختار الصحاح (ص ٢٠) .

(٣) السَّخيمةُ : الحقد والضغينة . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٣٠٥) .

ذكر التوابين من الملائكة عليهم السلام

١ - (قصة هاروت وماروت)

أخبرنا أبو بكر عبد الله بن محمّد بن أحمد بن النقور رحمه الله ، أنبأ الأمين أبو طالب عبد القادر بن محمّد اليوسفيّ ، أنبأ ابن المذهب ، أنبأ أبو بكر القطيعيّ ، ثنا عبد الله بن أحمد ، ثنا أبي رحمه الله ، ثنا يحيى بن أبي بُكَيرْ [١] ثنا زهير بن محمّد ، عن موسى بن جبير ، عن نافع ، عن عبد الله بن عمر أنّه سمع نبيّ الله ﷺ يقول : « إنّ آدم عليه السلام لمّا أهبطه الله إلى الأرض قالت الملائكة : أي ربّنا : ﴿ أتَجعلُ فيها مَنْ يُفسدُ فيها ويسفكُ الدِّمَاءَ ونحنُ نُسبِّحُ بحمدِكَ ونُقدِّسُ لك قال إنِّي أعلمُ مالا تعلمُونَ ﴾ (البَقرة : ٣٠) .

قالوا : ربّنا ! نحن أطوع لك من بني آدم . قال الله تعالى للملائكة : هلمّوا ملكين من الملائكة حتّى نهبطهما إلى الأرض فتنظروا [٢] كيف يعملان . قالوا : ربّنا! هاروت وماروت . فأهبطا إلى الأرض ومُثّلت لهما الزُّهرة [٣] امرأةً من أحسن البشر، فجاءتهما ، فسألاها نفسها ، قالت : لا والله ! حتى تتكلما بهـذه الكلمة من الإشراك . فقالا : لا والله ! لا نشرك بالله شيئًا أبدًا . فذهبتْ عنهما ثم رجعت بصبيّ تحمله ، فسألاها نفسها ، فقالت : لا والله ! حتّى تقتلا هذا الصبيّ ، فقالا : لا والله ! لا نقتله أبدًا ، فذهبت ثمّ رجعت بقدح خمر تحمله ، فسألاها نفسها ، فقالت : لا والله! حتى تشربا هذا الخمر ، فشربا حتى سكرا ، فوقعا عليها وقتلا

---

(١) والصحيح : بكير . وأنظر مسند أحمد ، وتفسير ابن كثير (١ / ١٣٨) .

(٢) وفي مسند الإمام أحمد « حتى يُهبط بهما .. » أنظر المسند رقم (٦١٧٨) ونقلها ابن كثير بلفظ المصنف في التفسير (١ / ١٣٨) . وعند ابن أبي حاتم « إختاروا منكم ثلاثة .. على أن يهبطوا .. واستقال منهم واحد » وقال ابن كثير : وهذا السياق فيه زيادة كثيرة وإغراب ونكارة والله اعلم بالصواب ا هـ . أنظر التفسير (١ / ١٤٠) .

(٣) الزُّهرة : أحد كواكب المجموعة الشمسية التسعة وهو ثاني كوكب في البعد عن الشمس ، وهو ألمع جرم سماوي باستثناء الشمس والقمر و - : إلهة الجمال عند الإغريق . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٢٩٤) .

الصبى . فلما أفاقا ، قالت المرأة : والله ما تركتما شيئًا مما أبيتماه إلاّ فعلتماه حين سكرتما ، فخُيّرا بين عذاب الدنيا والآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا » [1] .

أخبرنا أبو العباس أحمد بن المبارك بن سعد ، أنا جدّى لأمى أبو المعالى ثابت بن بندار ، أنا أبو علىّ بن دَوما ، أنا أبو علىّ الباقر حى أنا الحسن بن علويّه ، أنا إسماعيل ، أنا إسحاق بن بشر ، عن جويبر عن الضحّاك عن مكحول عن معاذ ، قال :

لمّا أن أفاقا جاءهما جبريل عليه السلام من عند الله عزّ وجلّ وهما يبكيان ، فبكى معهما وقال لهما : ما هذه البليّة التى أجحف بكما بلاؤها وشقاؤها ؟ فبكيا إليه، فقال لهما : إنّ ربّكما يخيِّركما بين عذاب الدنيا وأن تكونا عنده فى الآخرة فى مشيئته ، إن شاء عذّبكما ، وان شاء رحمكما ، وإن شئتما عذاب الآخرة . فعلما أنّ الدنيا منقطعة ، وأن الآخرة دائمة ، وأنّ الله بعباده رؤوف رحيم . فاختارا عذاب الدنيا ، وأن يكونا فى المشيئة عند الله . قال : فهما ببابل فارس معلَّقَين بين جبلين فى غار تحت الأرض ، يُعذَّبان كلَّ يوم طرَفى النهار إلى الصيحة . ولمّا رأت ذلك الملائكة خفقت بأجنحتها فى البيت ، ثم قالوا : اللهم اغفر لولد آدم ، عجبًا كيف يعبدون الله ويطيعونه على ما لهم من الشهوات واللذّات ! .

وقال الكلبى : فاستغفرت الملائكة بعد ذلك لولد آدم ، فذلك قوله سبحانه : ﴿ والملائكةُ يُسبِّحونَ بِحمدِ ربِّهِمْ ويستغفرُون لِمن فى الأرضِ ﴾ (الشورى : ٥) .

ورُوى عن ابن عبّاس أنّ الله تعالى قال للملائكة : انتخبوا ثلاثة من أفاضلكم. فانتخبوا عزرا وعزرايل وعزويا . فكانوا إذا هبطوا إلى الأرض كانوا فى حدّ بنى آدم وطبائعهم . فلما رأى ذلك عزرا وعرف الفتنة ، علم أن لا طاقة له . فاستغفر ربه عز وجل واستقاله فأقاله . فرُوى أنّه لم يرفع رأسه بعدُ حياءً من الله تعالى .

قال الربيع بن أنس : لما ذهب عن هاروت وماروت السكر عرفا ما وقعا فيه من

---

(١) هذا خبر اسرائيلى ولم يصدح الرفع : رواه الطبرى (٢ / ٤٢٧ - ٤٣٥) وأحمد (٦١٧٨) والحاكم (١ / ٤٦٥ - ٢٦٦) وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقال ابن كثير فى التفسير (١ / ١٣٨) : ورجع إلى نقل كعب الأحبار عن كتب بنى اسرائيل والله أعلم ا هـ .

الخطيئة وندما ، وأرادا أن يصعدا إلى السماء فلم يستطيعا ولم يُؤذَن لهما . فبكيا بكاءً طويلاً وضاقا ذرعًا بأمرهما . ثم أتيا إدريس عليه السلام وقالا له : ادعُ لنا ربك فإنا سمعنا بك تذكرَ بخير في السماء . فدعا لهما فاستُجيب له ، وخُيِّرا بين عذاب الدنيا والآخرة .

وروى أ الملائكة ، لما قالوا لله تبارك وتعالى : ﴿ أتجعلُ فِيها مَن يُفسِدُ فِيها وَيسفكُ الدِّماءَ ﴾ (البقرة : ٣٠) ، طافوا حول العرش أربعة آلاف عام يعتذرون إلى الله عَز وجلَّ من اعتراضهم (١) .

* * *

ذكر التوابين من الأنبياء عليهم السلام

٢ - توبة آدم عليه السلام (٢)

أخبرنا أبو الفضل مسعود بن عبيد الله بن النادر قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين ، أنا أبو بكر محمد بن عليّ الخيّاط ، أنا أبو عبد الله بن دُوست ، ثنا الحسين بن صفوان ، ثنا ابن أبي الدنيا ، ثنا يعقوب بن إسحاق بن دينار ، ثنا محمّد بن معاذ العنبري عن ابن السمّاك قال : حدثّني عمر بن ذرّ عن مجاهد :

أنَّ آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة ، تساقط عنه جميع زينة الجنة ، ولم

---

(١) وهذا خبر باطل كما قلنا وتكلم عليه بعض علماء الحديث يقول ابن كثير : وقد روى القصة عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدى والحسن البصرى وقتادة وأبى العالية والزهدى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم ، وحاصلها راجع فى تفصيلها إلى أخبار بنى اسرائيل إذ لبس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم . وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها فنحن نؤمن بما ورد فى القرآن على ما أراده الله تعالى والله أعلم بحقيقة الحال آ هـ . وأنظر التفسير (١ / ١٤١) .

(٢) ومن المعلوم أن آدم أول نبى ولكن نوح أول رسول إلى أهل الأرض لقوله ﷺ «أول نبىَ أرسل نوح » رواه ابن عساكر (٢ / ٢٢٦) والديلمى (١ / ٩) وفيه ابن الفضل : ضعيف . وله شاهد قوى من حديث الشفاعة « يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض .. » رواه مسلم (١ / ٣٢٧) والترمذى (٢٤٣٦) فيجبر الحديث . وأنظر صحيح الجامع برقم (٢٥٨٥) وفى الصحيحة برقم (١٢٨٩) .

يبقَ عليه من زينتها إلا التاجُ والإكليل . وجعل لا يستتر بشيء من ورق الجنة إلا سقط عنه ، فالتفت إلى حواء باكيًا ، وقال : استعدِّى للخروج من جوار الله ، هذا أول شؤم المعصية . قالت : يا آدم ! ما ظننت أن أحدًا يحلف بالله كاذبًا . وذلك أن إبليس قاسمهما على الشجرة وآدم فى الجنة هاربًا استحياءً من رب العالمين ، فتعلقت به شجرة ببعض أغصانها ، فظن آدم أنه قد عوجل بالعقوبة ، فنكس رأسه يقول : العَفْوَ العَفْوَ . فقال الله عز وجل : يا آدم ! أفرارًا منى قال : بل حياءً منك سيدى .

فأوحى الله إلى المَلكين : أن أخرجا آدم وحواء من جوارى ، فإنهما قد عصيانى . فنزع جبريل عليه السلام التاج عن رأسه ، وحل ميكائيل عليه السلام الإكليل عن جبينه ، فلما هبط من ملكوت القدس إلى دار الجوع والمسغبة بكى على خطيئته مائة سنة ، قد رمى برأسه على ركبتيه حتى نبتت الأرض عشبًا وأشجارًا من دموعه حتى نقع الدمع فى نُقر الجلاميد [1] وأقعيتها .

أخبرنا أبو الفتح محمد بن عبد الباقى ، أنا أبو الفضل أحمد بن الحسن بن خيرون ، انا أبو على بن شاذان ، انا أبو على عيسى بن محمد الطومارى ، أنبأ محمّد بن أحمد بن البراء ، أنبأ عبد المنعم بن ادريس ، أنبأ أبى عن وهب بن منّبه :

أن آدم عليه السلام لبث فى السخطة سبعة أيام . ثمّ إن الله تعالى أطلعه فى اليوم السابع ، وهو منكس محزون كظيم . فأوحى الله إليه : يا آدم ! ما هذا الجهد الذى أراك فيه اليوم ! وما هذه البلّية التى قد أجحف بك بلاؤها وشقاؤها ! قال آدم: عظمت مصيبتى يا إلهى وأحاطت بى خطيئتى . وخرجت من ملكوت ربّى ، فأصبحت فى دار الهوان بعد الكرامة ، وفى دار الشقاوة بعد السعادة ، وفى دار العناء والنَّصَب بعد الخفض والدعة ، وفى دار البلاء بعد العافية ، وفى دار الظعن والزوال بعد القرار والطمأنينة ، وفى دار الفناء بعد الخلد والبقاء ، وفى دار الغرور بعد الأمن . إلهى ! فكيف لا أبكى على خطيئتى ؟ أم كيف لا تحزننى نفسى ، أم كيف لى أن أجتبر هذه البلّية والمصيبة يا إلهى ؟ .

قال الله تعالى له : ألم اصطفيك لنفسى ، وأحللتك دارى ، واصطفيتك على خلقى ، وخصصتك بكرامتى ، وألقيت عليك محبّتى ، وحذْرتك سخطى ؟ ألم أباشرك بيدى ، وأنفخ فيك من روحى ، وأُسْجِدْ لك ملائكتى ؟ ألم تكُ جارى فى

(١) الجلمُودُ : الجلمد (ج) جلاميد . ويقال : ألقى عليه جلاميده : ثقلهُ . والجلمدة : ذات الحجارة وراجع المعجم الوجيز (ص / ١١٣) .

بحبوحة جنتى ، تتبوأ حيث تشاء من كرامتى ؛ فعصيتَ أمرى ، ونسيت عهدى ، وضيعت وصيتى ؟ فكيف تستنكر نقمتى ، فوعزتى وجلالى لو ملأت الأرض رجالاً كلهم مثلك ﴿ يُسبِّحُونَ الليلَ والنهارَ لا يفتُرُونَ ﴾ (الأنبياء : ٢٠) ثم عصونى لأنزلتهم منازل العاصين ! وإنى قد رحمت ضعفك وأقلت عثرتك وقبلت توبتك وسمعت تضرّعك وغفرت ذنبك . فقل : لا إله إلا أنت ، سبحانك اللهم وبحمدك ظلمت نفسى وعملت السوء ، فتب على إنك أنت التواب الرحيم . فقالها آدم ، ثم قال له ربه : قل : لا إله إلا أنت ، سبحانك اللهم وبحمدك ظلمت نفسى وعلمت السوء فاغفر لى إنك أنت الغفور الرحيم . فقالها آدم ، ثم قال له ربه ، قل : لا إله إلا أنت سبحانك اللهمّ وبحمدك ظلمت نفسى ، وعملت السوء ، فارحمنى إنك أرحم الراحمين .

قال ، وكان آدم قد اشتدّ بكاؤه وحزنه لما كان من عظم المصيبة ، حتى ان كانت الملائكة لتحزن لحزنه وتبكى لبكائه . فبكى على الجنة مائتى سنة ، فبعث الله إليه بخيمة من خيام الجنة ، فوضعها له في موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة [1] .

* * *

٣ - توبة نوح عليه السلام

أخبرنا أبو الحسن علىّ بن عساكر ، أنا عبد القادر بن محمد ، أخبرنا الحسن بن علىّ ، أنا أبو بكر القطيعىّ ، ثنا عبد الله ، حدّثنى أبى ، ثنا عبد الرزاق ، ثنا وهيب بن الورد ، قال :

لما عاتب الله تعالى نوحًا في ابنه فأنزل عليه ﴿ إنى أعِظُكَ أن تكُونَ من الجاهلين ﴾ (هود : ٤٦)، قال: فبكى ثلاثمائة عام حتى صار تحت عينيه مثل الجداول من البكاء [2] .

---

(١) وهذه القصة لا تخلو من بعض المبالغات . وراجعها فى كتب السلف وفى القرآن خالية من أى مبالغات .

(٢) يشير إلى منادة نوح عليه السلام لابنه حيث أنه غفل عن شرط النجاة وهو الإيمان . وأما من قال إنه كان ابن امرأته من غيره فهذا مردود بعض القرآن . وأما من قال : إنه كان من الزنا ونوح لا يعلم بذلك . وليستدلون بقوله : ﴿ إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ﴾ فهذا قول باطل لأن فى عقيدة أهل السنة : أن الأشياء التى تؤدى إلى التنفير من الأنبياء فإنه لا يجوز فيهم ولا فى نساءهم أما الكفر فكان غير مغفر لأنه كان سائد فى هذا الوقت . ويدل على ذلك قوله تعالى فى بعض القراءات « إنه عمل غير صالح » وأنظر تفسير ابن كثير (٣ / ٥٥٧) .

٤ – توبة موسى عليه السلام

أخبرنا أحمد بن المبارك ، أنا جدّى ثابت ، أنا أبو علىّ بن دَوما ، أنا مخلد بن جعفر ، أنا الحسن بن علويه ، انا إسماعيل بن عيسى ، أنا إسحاق بن بشر ، انا أبو إلياس عن وهب بن منبه ، قال :

لما سمع موسى عليه السلام كلام ربّه عزّ وجلّ طمع فى رؤيته . فقال : ﴿ ربِّ أرنى أنظُرْ إليكَ قالَ لن ترانى ولكنِ انظُرْ إلى الجبلِ فإنَ استقرَّ مكانَهُ فسوفَ ترانى ﴾ (الأعراف : ١٤٣) .

قال محمد بن إسحاق : حدَّثنى بعض من لا أتهم قال : قال الله تعالى : يا ابن عمران ! إنه لا يرانى أحد فيحيا . قال موسى : رب لا شريك لك ، إنى أن أراك وأموت أحبّ إلىّ من أن أراك وأحيا ، رب أتمم علىّ نعماك وفضلك وإحسانك بهذا الذى أسألك ، وأموت على أثر ذلك .

قال : وأخبرنا جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ، قال : لما رأى الله الرحيم بخلقه من حرص موسى على أن يعطيه سؤله قال : انطلق فانظر الحجر الذى فى رأس الجبل فاجلس عليه ، فإنّى مهبط عليك جندى ، ففعل موسى . فلما استوى عليه ، عرض الله تعالى عليه جنود سبع سماوات ، فأمر ملائكة سماء الدنيا أن يعرضوا عليه . فمروا بموسى عليه السلام ولهم أصوات مرتفعة بالتسبيح والتهليل كصوت الرعد الشديد ، ثم أمر ملائكة السماء الثانية أن يعرضوا عليه ففعلوا ، فمروا به على ألوان شتى ، ذوو وجوه وأجنحة ، منهم ألوان الأسد ، رافعى أصواتهم بالتسبيح . ففزع موسى منهم وقال : أى ربِّ ! إنى ندمت على مسألتى ، ربِّ ! هل أنت منجىَّ من مكانى الذى أنا فيه ؟ قال له رأس الملائكة : يا موسى ! اصبر على ما سألت ، فقليل من كثير ما رأيت .

ثم أمر الله ملائكة السماء الثالثة أن اهبطوا فاعترضوا على موسى فأقبل ما لا يُحصى عددهم على ألوان شتى ، ألوانهم كلهب النار ، لهم بالتسبيح والتهليل رجل . فاشتد فزع موسى عليه السلام وساء ظنه ويئس من الحياة . فقال له رأس الملائكة : يا ابن عمران ! اصبر حتى ترى ما لا تصبر عليه . ثم أوحى الله تعالى إلى ملائكة السماء الرابعة أن اهبطوا إلى موسى بالتسبيح ، فهبطوا ، ألوانهم كلهب النار وسائر خلقهم كالثلج ، لهم أصوات عالية بالتسبيح والتقديس لا تشبه أصوات الذين مرّوا به . فقال له رأس الملائكة : يا موسى ! اصبر على ما سألت .

فكذلك أهل كل سماء إلي السماء السابعة ينزلون إليه بألوان مختلفة وأبدان مختلفة ، وأقبلت ملائكة يخطَف نورهم الأبصار ومعهم حراب ، الحربة كالنخلة الطويلة العظيمة كأنها نار أشد ضوءاً من الشمس . وموسى عليه السلام يبكى رافعًا صوته يقول : يا ربِّ ! اذكرنى ولا تنسنى أنا عبدك ، ما أظن أن أنجو ممَّا أنا فيه ، إن خرجت احترقت ، وإن مكثت متّ . قال له رأس الملائكة : قد أوشكت أن تمتلئ خوفًا وينخلع قلبك ، هذا الذى جلست لتنظر إليه .

قال : ونزل جبريل وميكائيل وإسرافيل ومن فى سبع سماوات وحملة العرش والكرسى وأقبلوا عليه يقولون : يا خاطئ ابن الخاطىء ! ما الذى رقاك إلى هاهنا ! وكيف اجترأت أن تسأل ربك أن تنظر إليه ؟ وموسى عليه السلام يبكى وقد اصطكت ركبتاه وتخلعت مفاصله . فلما رأى الله عز وجل ذلك من عبده أراه قائمة عرشه ، فتعلق بها فاطمأن قلبه . فقال له إسرافيل : يا موسى ! والله إنا لنحن رؤساء الملائكة لم نرفع أبصارنا نحو العرش منذ خلقنا خوفا وفَرَقًا ، فما حملك أيها العبد الضعيف على هذا : فقال موسى : يا إسرافيل ! وقد اطمأن - أحببت أن أعرف من عظمة ربّى ما عرفت .

ثم أوحى الله عز وجلّ للسماوات : إنى متجلّ للجبل . فارتعدت السماوات والأرض والجبال والشمس والقمر والنجوم والسحاب والجنة والنار والملائكة والبحار، وخرّوا كلهم سجّدًا ، وموسى ينظر إلى الجبل . (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًا ، وخر موسى صعقًا) (الأعراف : ١٤٣) ميِّتًا من نور ربّ العزّة جلّ وعلا ، فوقع عن الحجر وانقلب عليه ، فصار عليه مثل القبة لئلا يحترق .

قال الحسن : فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام ، فقلب الحجر عن موسى وأقامه . فقام موسى عليه السلام فقال : (سبحانك تبت إليك) (الأعراف : ١٤٣) مما سألت ، (وأنا أول المؤمنين) (الأعراف : ١٤٣) أى أنا أول من آمن أنه لا ينظر إليك أحد إلا مات ، وقيل : أنا أول من آمن أنه لا يراك أحد فى الدنيا [1] .

---

(١) وكانت توبة موسى من طلب الرؤية ، وقال القاضى عياض : إن الرؤية فى الدنيا ممكنة ، وإذا لم تكن ممكنة لما سألها موسى عليه السلام . قلت وهذا قول مردود بدليل حديث أبى موسى الاشعرى « حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » رواه مسلم : وفى حديث أبى ذر « نور أنى أراه » وفى رواية « رأيت نور » . وخير =

٥ – توبة داود عليه السلام

أخبرنا أحمد بن المبارك قال : أنبأ ثابت ، أنا أبو على ، أنا مخلد ، أنا الحسن ابن على ، انا إسماعيل ، انا إسحاق قال : وأنبأ الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير [(١)] عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

كان داود عليه السلام قد قسم الدهر على أربعة أقسام ، فيوم لبنى إسرائيل يدارسهم العلم ويدارسونه ، ويوم للمحراب ، ويوم للقضاء ، ويوم للنساء ، فبينا هو مع بنى إسرائيل يدارسهم إذ قال بعضهم : لا يأتى على ابن آدم يوم إلا يصيب فيه ذنبًا . فقال داود فى نفسه : اليوم الذى أخلو فيه للمحراب تتنحى عنى الخطيئة . فأوحى الله إليه : يا داود ! خذ حذرك حتى ترى بلاءك .

قال إسحاق : وأخبرنا ابن بشر عن قتادة عن الحسن ، قال فبينا هو فى محرابه منكب على الزبور يقرؤها ، إذ دخل عليه طائر من الكوة فوقع بين يديه ، جسده من ذهب ، وجناحاه من ديباج ، مكلل بالدرّ ومنقاره زبرجد وقوائمه فيروزج . فوقع بين يديه فنظر إليه فحسب أنه من طير الجنة ، فجعل يتعجَّب من حسنه . وكان له ابن صغير ، فقال : لو أخذتُ هذا فنظر إليه ابنى . فأهوى إليه فتباعد منه ، ويطعمه احيانًا من نفسه حتى تكاد تقع يده عليه ، فتباعد منه أيضًا . فما زال كذلك يدنو ويتباعد حتى قام من مجلسه وأطبق الزبور . فطلبه فوقع فى الكوة ، فطلبه فى الكوّة، فرمى بنفسه فى بستان ، فاطلع داود فإذا بامرأة تغتسل .

قال قتادة عن بلال بن حسّان : فأخرج رأسه من الكوّة ، فإذا هو بامرأة تغتسل، فنظر إلى أحسن خلق الله . ونظرت المرأة وإذا وجه رجل ، فنشرت شعرها فغطّت جسدها .

رجع إلى حديث الحسن قال : فزاده ذلك بها إعجابًا . فرجع إلى مكانه وفى نفسه منها ما فى نفسه . فبعث لينظر من هى ؟ فرجع إليه الرسول فقال : هى تشايع

= دليل « تعلّموا أنه لن يرى أحد منكم ربَّهُ حتى يموت » رواه مسلم . وفى صحيح الجامع برقم (٢٩٦٣) ، وفى مختصر مسلم (٢٠٤٤) وقال مالك : لا يرى الباقى بالغالى . وأنظر البداية فى شرح الطحاوية (ص / ١٤٤ - ١٤٥) .

(١) الحديث ضعيف مرفوعًا : لأن يحيى بن أبى كثير لم يسمع من أبى هريرة . فالإسناد منقطع . ونقله بعض العلماء موقوفًا على ابن عباس ، وعن الحسن البصرى .

ابنة حنانا ، وزوجها أوريا ابن صورا ، وهو في البلقاء مع ابن أخت داود محاصري قلعة · فكتب داود إلى ابن أخته كتابًا : إذا جاءك كتابي هذا فمُرْ أوريا بن صورا فليحمل التابوت وليتقدّم أمام الجيش · وكان الذي يتقدّم لا يرجع حتى يُقتَل أو يفتح الله عليه · فدعا صاحب الجيش أوريا فقرأ عليه الكتاب ، فقال : سمعًا وطاعة · فحمل التابوت وسار أمام أصحابه فقُتل ، وكتب ابن أخت داود بذلك إلى داود · فلما انقضت عدةّ المرأة أرسل إليها داود فخطبها فتزوّجها [(١)] ·

قال : وأخبرنا سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن ، قال : إنّ داود لما تزوّج تشايع بنت حنانا ، وكان يخلو للعبادة في المحراب ، فبينا هو في المحراب ، إذ سمع صوتًا عاليًا ، ثم تسوّر عليه رجلان حتى اقتحما عليه ، فلما رآهما فزع منهما · قالا : لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض – يعني اعتدى بعضنا على بعض فظلمه ، (فاحكم بيننا بالحقّ ولا تُشطط) · يعني لا تَجُر ، (واهدنا إلى سواء الصراط) – يعني إلى قصد السبيل · فقال داود : قصًّا عليّ قصتّكما · قال : (إنّ هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزّني في الخطاب) – يعني قهرني وظلمني – وأخذ نعجتي فضمّها إلى نعاجه ، وعزّني في الخطاب · يعني إذا تكلّم كان أبلغ في المخاطبة مني ، وإذا دعا كان أسرع إجابة مني ، وإذا خرج كان – يعني – أكثر تبعًا منّي · فقال داود : ﴿ لَقَد ظَلَمَكَ بِسؤَال نَعْجَتكَ إلى نعَاجه وإن كثيراً من الخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إلا الَّذينَ آمَنُوا وَعَمَلُوا الصَّالحَاتَ وَقَليلٌ مَا هُمْ ﴾ (سورة ص : ٢١ – ٢٤) · قال : فضحك المدّعَى عليه · فقال داود : تظلم وتضحك ؟ ما أحوجك إلى قدّوم يرضّ منك هذه وهذه – يعني جبهته وفاه · قال المَلَك : بل أنت أحوج إلى ذلك منه ، وارتفعا · وفي رواية قال : فتحوّلا في صورتهما وعرجاوهما يقولان : قضى الرجل على نفسه ·

وعلم داود أنه إنما عُني به هو · فخرّ ساجدًا أربعين يومًا لا يرفع رأسه إلاّ

---

(١) وهذا الخبر باطل : فهذا لا يجوز في حق الأنبياء · وقال الإمام ابن كثير : وقد ذكر المفسرون ها هنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ولكن روى ابن أبي حاتم حديثًا لا يصح سنده لأنه من رواية يزيد الرقاشي بن أنس ﷺ ، ويزيد الرقاشي · قال الدارقطني : ضعيف · قال النسائي : متروك · وأنظر الميزان (٦/ ٩٦٦٩) وأنظر التفسير(٤ / ٤١)وكذا قال ابن الجوزي في « الزاد »(١/ ١١٥) ·

لحاجة لابدّ منها ، ثمّ يعود فيسجد ، لا يأكل ولا يشرب ، وهو يبكي حتّى نبت العشب حول رأسه ، وهو ينادى ربّه عزّ وجلّ ويسأله التوبة .

وكان يقول فى سجوده : سبحان خالقِ النور الحائلِ بين القلوب ! سبحان خالق النور ! إلهى خلّيت بينى وبين عدوّى إبليس فلم أقم لفتنته إذا نزلت بى سبحان خالق النور ! إلهى لم أفارق الزبور ولم أتّعظ بما وعظت به غيرى . إلهى ! أمرتنى أن أكون لليتيم كالأب الرحيم وللأرملة كالزوج الرحيم ، فنسيتُ عهدك ! سبحان خالق النور ! إلهى ! بأىّ عين أنظر إليك يوم القيامة ، وإنما ينظر الظالمون من طرف خفى . سبحان خالق النور ! إلهى ! الويل لداود من الذنب العظيم الذى أصاب ! سبحان خالق النور ! إلهى ! الويل لداود إذا كُشف عنه الغطاء فيقال : هذا داود الخاطىء ! سبحان خالق النور ! إلهى ! أنت المغيث وأنا المستغيث ! فمن يدعو المستغيث إلا المغيث ؟ سبحان خالق النور ! إلهى ! إليك فررت بذنوبى واعترفت بخطيئتى ، فلا تجعلنى من القانطين ، ولا تُخزنى يوم الدين ، فى مناجاة كثيرة .

قال : فأتاه نداء : أجائع أنت فتُطعمَ ؟ أظمآن أنت فتُسقَى ؟ أمظلوم أنت فتُنصَر ؟ ولم يجبه فى ذكر خطيئته . قال : فصاح صيحة هاج ما حوله ، ثمّ نادى : يا ربِّ ! الذنبَ الذى أصبتُ ؟ فنُودى : يا داود ! ارفع رأسك فقد غفرت لك .

قال : وأخبرنا أبو إلياس عن وهب بن منبه أنّ داود أتى قبر أوريا فقام عنده وجعل التراب على رأسه ، ثمّ نادى فقال : الويل لداود ، ثم الويل الطويل لداود ! سبحان خالق النور ! الويل لداود ، ثم الويل لداود إذا نصبت الموازين ! سبحان خالق النور ! الويل لداود ، ثمّ الويل الطويل لداود ، يوم يُقتَصُّ للمظلوم من الظالم! سبحان خالق النور ! الويل لداود ، ثمّ الويل الطويل لداود يومَ يُسحَب على وجهه مع الخاطئين إلي النار!سبحان خالق النور!الويل لداود،ثمّ الويل الطويل لداود!

قال : فأتاه نداء من السماء : يا داود ! قد غفرت لك ذنبك ، ورحمت بكاءَك، وأقلت عثرتك ، قال : يا ربِّ ! كيف تعفو عنّى وصاحبى لم يعف عنّى ؟ قال : يا داود أعطيه يوم القيامة من الثواب ما لم ترَ عيناه ولم تسمع أذناه ، فأقول : رضى عبدى ؟ فيقول : يا ربِّ ! من أين لى هذا ولم يبلغه عملى ؟ فأقول له : هذا عوض من عبدى داود ، فأستوهبك منه ، فهيبك لى . قال : يا ربِّ ! الآن عرفت أنك قد غفرت لى .

٦ – توبة سليمان عليه السلام

قال إسحاق : وأخبرنا جويبر ، عن الضحّاك ، عن ابن عبّاس ، قال : كان سليمان عليه السلام رجلاً غزّاءً يغزو فى البرّ والبحر ، فسمع بملك فى جزيرة من جزائر البحر ، فركب سليمان الريح وجنوده من الجنّ والإنس حتّى نزل تلك الجزيرة، فقتل ملكها وسبى من فيها وأصاب جارية لم يُرَ مثلها حسنًا وجمالاً ، وكانت ابنة ذلك الملك ، فاصطفاها لنفسه ، فكان يجد بها مالا يجد بأحد ، وكان يؤثرها على جميع نسائه .

فدخل عليها يومًا ، فقالت : إنى أذكر أبى وملكه وما أصابه ، فيحزننى ذلك، فإن رأيت أن تأمر بعض الشياطين فيصورون لى صورة أبى فى دارى فأراه بكرة وعشيًا ، رجوت أن يذهب عنى حزنى ويسلى عنى بعض ما أجد فى نفسى . فأمر سليمان صخرًا المارد ، فمثّل لها أباها فى هيئته فى ناحية دارها ، لا تنكر منه شيئًا إلاّ أنه لا روح فيه . فعمدت إليه فزينته وألبسته حتّى تركته فى هيئة أبيها ولباسه . فإذا خرج سليمان عليه السلام من دارها تغدو عليه كلّ غدوة مع جواريها فتطيبه وتسجد له وتسجد جواريها وتروح بمثله . وسليمان لا علم له بذلك حتى أتى لذلك أربعون يومًا . وبلغ الناس ، وبلغ آصف بن برخيا وكان صديقًا له ، فدخل عليه فقال : يا نبىّ الله ! قد أحببت أن أقوم مقامًا أذكر فيه من مضى من أنبياء الله ، وأثنى عليهم بعلمى فيهم . قال : فجمع سليمان الناس . فقام فيهم فذكر من مضى من أنبياء الله، وأثنى على كلّ نبىّ بما فيه ، وذكر ما فضّلهم الله به ، حتّى انتهى إلى سليمان ، فذكر فضله وما أعطاه الله فى حَدَاثة سِنّه وصغَره ثمّ سكت ، فامتلأ سليمان غيظًا . فلما دخل ، أرسل إليه فأتاه ، فقال : يا آصف ! ذكرتَ من مضى من أنبياء الله ، فأثنيت عليهم بما كانوا عليه فى زمانهم كلّه ، فلما ذكرتنى جعلت تثنى علىّ بخير فى صغَرى وسكتّ عما سوى ذلك من أمرى فى كِبَرى ، فما الذى أحدثتُ فى كبرى ؟ قال : أحدثت أنّ غير الله يُعبَد فى دارك منذ أربعين يومًا فى هوى امرأة . قال : فى دارى ؟ قال : فى دارك . قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! عرفتُ ، ما قلتَ هذا إلاّ عن شىء بلغك . ثم رجع إلى داره ، وكسر ذلك الصنم ، وعاقب تلك المرأة وولائدها . ثمّ دعا بثياب الطهر فلبسها .

ثمّ خرج إلى فلاة من الأرض ، ففرش له الرماد . ثم أقبل تائبًا إلى الله تعالى، فجلس على ذلك الرماد يتمعّك فيه متذللاً متضرّعًا ، يبكي ويستغفر الله ويقول : يا ربِّ ! ما هذا بلاؤك عند آل داود أن يعبدوا غيرك وأن يقروا في دارهم وأهلهم عبادة غيرك ؟ ! فلم يزل كذلك حتى أمسى ، ثمّ رجع وكانت له جارية سمّاها الأمينة . وكان إذا أتى الخلاء أو أراد إتيان امرأة ، وضع خاتمه عندها . وكان لا يمسّه إلا وهو طاهر . وكان الله تعالى جعل ملكه في خاتمه . قال وهب : فجاء يومًا يريد الوضوء ، فدفع الخاتم إليها . وجاء صخر المارد ، فسبق سليمان فدخل المتوضأ فدخل سليمان لحاجته ، وخرج الشيطان على صورة سليمان ينفض لحيته من الوضوء ، لا تنكر من سليمان شيئًا . فقال : خاتمي يا أمينة ! فناولته إياه لا تحسب إلاّ أنه سليمان ، فجعله في يده ، ثمّ جاء حتّى جلس على سرير سليمان ، وعكف عليه الطير والجنّ والإنس . وخرج سليمان ، فقال للأمينة : خاتمي . قالت : ومن أنت ؟ قال : أنا سليمان بن داود . وقد تغيّر عن حاله وذهب عنه بهاؤه ، قالت : كذبت ! إنّ سليمان قد أخذ خاتمه ، وهو جالس على سريره في ملكه . فعرف سليمان أنّ خطيئته قد أدركته . قال الحسن : فخرج سليمان هاربًا مخافة على نفسه . فمضى على وجهه بغير حذاء ولا قلنسوة [1] في قميص وإزار . فمرّ بباب شارع على الطريق ، وقد جهده الجُوع والعطش والحرّ . فأتى الباب فقرعه ، فخرجت امرأة فقالت : ما حاجتك ؟ فقال : ضيافة ساعة ، فقال ترين ما أصابني من الحرّ والرمضاء، قد احترقت رجلاى وبلغ مجهودى من الجوع والعطش . قالت المرأة : زوجي غائب ، وليس يسعني أن أُدخل رجلاً غريبًا عليّ ، فادخل البستان فإنّ فيه ماءً وثمارًا ، فأصب من ثماره ، وتبرّد فيه ، فإذا جاء زوجي استأذنته في ضيافتك ، فإن أذن لي فذاك ، وإن أبى أصبتَ ما رزق الله ومضيت . فدخل البستان فاغتسل ووضع رأسه فنام . فآذاه الذباب ، فجاءت حيّة سوداء فأخذت ريحانة من البستان بفيها وجاءت سليمان ، فجعلت تذبّ [2] عنه الذباب حتّى جاء زوج المرأة . فقصّت عليه القصة ، فدخل إلى سليمان . فلما رأى الحيّة وصنيعها ، دعا امرأته

(١) القلنسُوَةُ : لباس للرأس مختلف الأنواع ، والأشكال (ج) : قلانس ، وقلانيس وانظر المعجم الوجيز (ص / ٥١٢) .

(٢) ذَبَّ : الذُّباب وغيره : نحّاه وطرده . و- عنه : دفع عنه ومنع . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٢٤٢) .

فقال لها : تعالى فانظرى إلى العجب ! فنظرت ، ثمّ مشيا إليه فأيقظاه ، ثمّ قالا له : يا فتى ! هذا منزلنا ، لا يسعنا شيء يعجزك ، وهذه ابنتى قد زوجتكها · وكانت من أجمل نساء زمانها ، فتزوّجها ، وأقام عندهم ثلاثًا ، ثم قال : لا يسعنى إلا طلب المعيشة لى ولأهلى ، فانطلق إلى الصيّادين ، فقال لهم : هل لكم فى رجل يكون معكم يعينكم ، وترضخون له من صيدكم ، وكلّ يأتيه الله برزقه ؟ فقالوا : قد انقطع عنّا الصيد ، وليس عندنا فضل نعطيكه ، فمضى إلى غيرهم ، فقال لهم مثل هذه المقالة · فقالوا له : نعم وكرامة ، نواسيك بما عندنا ·

فأقام عندهم يختلف كل ليلة إلى أهله بما أصاب من الصيد ، حتى أنكر الناس قضاء سليمان وفعاله · فلما رأى الخبيث أنّ الناس قد فطنوا له ، انطلق بالخاتم فألقاه فى البحر · قال الحسن : أمسك الخاتم أربعين يومًا ·

ورُوى أنّه قعد على كرسىّ سليمان ، فاجتمع له الجنّ والإنس والشياطين · ومُلّك كلّ شيء كان يملكه سليمان عليه السلام إلاّ أنّه لم يُسلّط على نسائه · وخرج سليمان يسأل الناس ويتضيّفهم ، ويقوم على باب الرجل والمرأة ، ويقول : أطعمونى فإنّى سليمان بن داود · فيطردونه ، ويقولون له : ما يكفيك ما أنت فيه حتّى تكذب على سليمان ، وهذا سليمان على ملكه ، حتى أصابه الجهد واشتدّ عليه البلاء · فلما تمّ عليه أربعون يومًا ، قال آصف : يا معشر بنى إسرائيل ! هل رأيتم من خلاف حكم ابن داود ما رأيت ؟ قالوا : نعم ، فعمد عند ذلك الخبيث فألقى الخاتم فى البحر · فاستقبله جرِّىٌّ فابتلع الخاتم ، فصار فى جوفه مثل الحريق من نور الخاتم · فاستقبل جَرْيَةَ الماء ، فوقع فى شباك الصيّادين الذين كان سليمان معهم · فلما أمسوا قسموا السمك ، فأسقطوا الجرِّىَّ فجعلوه لسليمان · فذهب به إلى أهله ، فأمرهم أن يصنعوه · فلما شقُّوا بطنه أضاء البيت نورًا من خاتمه · فدعت المرأة سليمان ، فأرته الخاتم · فتختمّ به ، وخرّ لله ساجدًا ، وقال : إلهى ! لك الحمد على قديم بلائك ، وحسن صنيعك إلى آل داود · إلهى ! أنت ابتدأتهم بالنِّعَم ، وأورثتهم الكتاب والحكم والنبوّة ، فلك الحمد · إلهى ! تجود بالكبير وتلطف بالصغير ، فلك الحمد، نعماؤك ظهرت فلا تخفَى ، وبطنت فلا تحصَى ، فلك الحمد · إلهى ! لم تسلمنى بذنوبى ، فلك الحمد ، تغفر الذنوب وتستجيب الدعاء ، فلك الحمد إلهى ! لم تسلمنى بجريرتى ، فلك الحمد ، ولم تخذلنى بخطيئتى ، فلك الحمد · إلهى فأتمّ

نعمتك علىّ ، واغفر لى ما سلف ، وهب لى مكان لا ينبغى لأحد من بعدى ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ (ص : ٣٤) .

وروى عن عكرمة أنّ سليمان ، لما أصاب الملك ، أمر بحمل أهل ذلك البيت، فوضعهم فى وسط المملكة ، ولم يكن سليمان عليه السلام نال تلك المرأة حتى ردَّ الله عليه ملكه [(١)] .

* * *

(٧) توبة يونس عليه السلام

قال إسحاق بن بشير : وأخبرنا سعيد عن قتادة عن الحسن أن يونس عليه السلام كان مع نبى من أنبياء بنى إسرائيل ، فأوحى الله إليه أن ابعث يونس إلى أهل نينوى [(٢)] يحذّرهم عقوبتى . قال : فمضى يونس على كره منه ، وكان رجلاً حديداً شديد الغضب . قال : فأتاهم فحذّرهم وأنذرهم ، فكذّبوه وردّوا عليه نصيحته ، رموه بالحجارة وأخرجوه ، فانصرف عنهم . فقال له نبىّ بنى إسرائيل : ارجع إلى قومك . فرجع إليهم ، فرموه بالحجارة وأخرجوه . فقال له النبى : ارجع إلى قومك ، فرجع فكذّبوه ، وأوعدهم العذاب ، فقالوا : كذبت ، فلما كذّبوه وكفروا بالله وجحدوا كتابه ، دعا عند ذلك ربّه على قومه ، فقال : يا ربّ ! إنْ قومى أبَوا إلاّ الكفر ، فأنزلْ عليهم نقِمْتَك . فأوحى الله تعالى إليه : إنى أُنزل بقومك العذاب . قال : فخرج عنهم يونس ، وأوعدهم العذاب بعد ثلاثة أيام . وأخرج أهله وانطلق فَصَعد جبلاً ينظر إلى أهل نينوى ، ويترّقب العذاب . فجاءهم العذاب وعاينوه ، فتابوا إلى الله تعالى فكشف عنهم العذاب . فلما رأى ذلك ، جاءه إبليس فقال : يا يونس ! إنَّك إن رجعت إلى قومك اتهموك وكذّبوك . فذهب مغاضباً لقومه . فانطلق حتى أتى شاطئ دجلة ، فركب سفينة . فلما توسطت به الماء أوحى

---

(١) وهذه القصة باطلة : قال ابن كثير : وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف ﷺ كسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وجماعة آخرين وكلها متلقاه من قصص أهل الكتاب . والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب انظر تفسير ابن كثير (٤ / ٤٨) .

(٢) قرية نينوى: قرية من أرض الموصل بالعراق . وأنظرتفسير ابن كثير (٤ / ٥٨٦).

الله إليها أن اركدى · فركدت السفينة ، والسفن تمرّ يمينًا وشمالاً · فقالوا: ما بال سفينتكم ؟ فقالوا : لا ندرى · قال يونس : أنا أدرى · قالوا : فما حالها؟ قال : فيها عبد آبقٌ من ربّه ، فلا تسير حتّى تُلقوه فى الماء · قالوا : ومن هو ؟ قال: أنا ، وعرفوه · قالوا : أما أنت فليس نُلقيك ، والله ما نرجو النجاة منها إلاّ بك ! قال : فاقترعوا ، فمن قرع فألقوه فى الماء · قال : فاقترعوا ، فقرعهم يونس، فأبوا أن يلقوه قال : فاقترعوا الثانية ، فقرعهم · قال : فاقترعوا الثالثة ، فقرعهم · قال: ألقونى فى الماء ·

وفى رواية قال : يا قومِ ! اطرحونى فى الماء وانجوا · فقام القوم ، فاحتملوه شبه المشفقين عليه · فقال : ائتوا بى صدر السفينة · ففعلوا ، فلما أشرفوا ليلقوه، فإذا الحوت فاتح فاه · فلما رأى ذلك ، قال : يا قومِ ! ردّونى إلي مؤخر السفينة · ففعلوا ، فلما أشرفوا ، ذهبوا يطرحونه ، فاستقبله الحوت فاتحًا فاه · فلما رأى جوفه وَهَوَلَهُ قال : يا قومِ ! ردّونى إلى وسط السفينة · ففعلوا ، فاستقبله ، فقال : ردّونى إلى الجانب الآخر · فاستقبله فاتحًا فاه ليأخذه · فقال : اطرحونى وانجوا فلا منجا من الله · فطرحوه ،والتقمه الحوت قبل أن يبلغ الماء ، وتصوّب به·

رجع الحديث إلى الحسن ، قال : فانطلق به الحوت إلى مسكنه من البحر البحر، ثمّ انطلق به إلى قرار الأرض ، فطاف به البحار أربعين يومًا · فسمع يونس تسبيح الحصى وتسبيح الحيتان · قال : فجعل يسبّح ويهلّل ويقدّس · وكان يقول فى دعائه : سيدى ! من الجبال أهبطتنى ، وفى البلاد سيرتنى ، وفى الظلمات الثلاث حبستنى · إلهى سجنتنى بسجن لم تسجن به أحدًا قبلى · إلهى ! عاقبتنى بعقوبة لم تعاقب بها أحدًا قبلى · فلما كان تمام أربعين يومًا وأصابه الغم ، ﴿ فَنَادَى فى الظُّلُماتِ أن لاَ إلهَ إلاَّ أنْت سُبْحَانَكَ كُنْتُ مِنَ الظَّالِمينَ ﴾ (الأنبياء :٨٧) قال : فسمعت الملائكة بكاءه وعرفوا صوته ، وبكت الملائكة لبكاء يونس ، وبكت السماء والأرض والحيتان · فقال الجبار : يا ملائكتى ! مالى أراكم تبكون ؟ قالوا : ربّنا ! صوت ضعيف حزين نعرفه فى مكان غريب · قال : ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر · فقالوا : يا ربّ ! العبد الصالح الذى كان يصعد له فى كل يوم وليلة العمل الصالح الكثير ؟ قال ابن عبّاس ، قال الله تعالى : نعم · قال : فشفعت له الملائكة والسماوات والأرض · فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام ،

فقال : انطلق إلى الحوت الذى حبست يونس فى بطنه ، فقل له : إنّ لى فى عبدى حاجة ، فانطلقْ به إلى الموضع الذى ابتلعتَه فيه فاقذفه به ، فانطلقَ جبريل إلى الحوت فأخبره · فانطلق الحوت بيونس ، وهو يقول : يا ربّ ! استأنست فى البحر بتسبيح عبدك ، واستأنستُ به دوابّ البحر ، وكنت أزكى شىء به ، وجعلت بطنى له مصلّى يقدّسك فيه ، فقدّستَ به وما حولى من البحار · فتخرجه عنى بعد أنس كان به ؟! قال الله تعالى : إنى أقَلْتُه عَثرتَهُ ورَحِمتُهُ فألقِه ·

قال : فجاء به إلى حيث ابتلعه ببلد علي شاطىء دجلة · فدنا جبريل من الحوت وقرّب فاه من فم الحوت ، فقال : السلام عليك يا يونس ! ربّ العزّة يقرئك السلام · فقال يونس : مرحبًا بصوت كنت خشيت أن لا أسمعه أبدًا ، مرحبًا بصوت كنت أرجوه قريبًا من سيّدى! ثمّ قال جبريل للحوت: اقذف يونس بإذن الله الرحمن ! فقذفه مثل الفرخ الممعوطِ الذى ليس عليه ريش فاحتضنه جبريل عليه السلام ·

قال الحسن : فأنبت الله عليه شجرة من يقطين ، وهو الدُّبَّاء ، فكان لها ظلّ واسع يستظلّ به ، وأُمرت أن ترضعه أغصانها ، فكان يرضع منها كما يرضع الصبىّ ·

وعن الحسن ، قال : بعث الله إلى يونس وعلة من وعول الجبل يدرّ ضرعها لبنًا ، حتى جاءت إلى يونس وهو مثل الفرخ ، ثمّ ربضت (١) وجعلت ثديها فى فى يونس · فكان يمصه كما يمصّ الصبىّ ، فإذا شبع انصرفت · فكانت تختلف إليه حتى اشتدّ ونبت عليه شعره خلقًا جديدًا ، ورجع إلى حاله قبل أن يقع فى بطن الحوت · فمرت به مارّة فكسَوه كساءً · فبينا هو ذات يوم نائم ، إذ أوحى الله إلى الشمس أن احرقى شجرة يونس ، فأحرقتها · فأصابت الشمس جلده فأحرقته فقال : يا ربّ ! نجيّتنى من الظلمات ، ورزقتنى ظلَّ شجرة كنت أستظلّ بها فأحرقتها ، أفتحرمنى يا رب ؟ وبكى ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا يونس ! إن الله تعالى يقول : أنتَ زرعتهَا أم أنت أنبتهَا ؟ قال : لا قال : فبكاؤك حين تعلم أن الله قد أعطاكها ، فكيف دعوت على مائة ألف وزيادة عشرين ألفًا أردت أن تهلكهم ؟ ·

---

(١) ربضت : الدواب – طوف قوائمها ولصقت بالأرض وأقامت · الرَّبضُ : مأوى الغنم وراجع المعجم الوجيز (ص / ٢٥١) ·

وقال ابن عباس : قال له جبريل : أتبكى على شجرة أنبتها الله لك ولا تبكى على مائة الف أو يزيدون أردت أن تهلكهم فى غداة واحدة ؟! فعند ذلك عرف يونس ذنبه ، واستغفر ربه فغفر له .

وعن الزهرى ، قال . لمَّا قوى يونس ، كان يخرج من الشجرة يمينًا وشمالاً ، فأتى على رجل يصنع الجرار ، فقال يونس : يا عبد الله ما عملك ؟ قال : أصنع الجرار وأبيعها وأطلب فيها فضل الله . فأوحى الله إلى يونس : أن قل له يكسر جِراره ، فقال يونس ذلك له ، فغضب الجرّار وقال : إنك رجل سوء ! تأمرنى بالفساد وتأمرنى أن أكسر شيئًا صنعته وعملته ورجوت خيره . فأوحى الله إلى يونس: ألا ترى إلى هذا الجَرَّار كيف غضب حين أمرته بكسر ما صنع ؟ وأنت تأمرنى بهلاك قومك ! فما الذى يشق عليك أن يصلح من قومك مائة ألف أو يزيدون ! قال الله سبحانه : ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ يعنـــى من المصلِّين من قبل أن تنزل البلّية ، ﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (الصافات : ١٤٣) .

قال ابن عبّاس : من كان ذاكرًا لله فى الرخاء ، ذكره الله فى الشدّة واستجاب له ، ومن يغفلُ عن الله فى الرخاء وذكره فى الشدّة ، لم يستجب له . وقال الله تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِى الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ . فقال الله عزّ وجلّ : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنبياء : ٨٧) . يقول الله تعالى : كذلك نفعل بالصالحين ، إذا وقعوا فى الخطيئة ، ثمَّ تابوا إلىّ ، قبلت منهم .

قال ابن عباس : قال رسول الله ﷺ : « دعا أخى يونس بهذه الدعوة فى الظلمات ، فأنجاه الله . فلا يدعو بها مؤمن مكروب إلاّ كشف الله عزّ وجلّ ذلك عنه . إنها عِدَة من الله لا خُلْف لها » [1] .

* * *

---

(١) الحديث صحيح : رواه أحمد فى المسند (١ / ١٤٦٢) والترمذى (٥ / ٣٥١٦) والنسائى فى « عمل اليوم والليلة » (٦٦١) والحاكم (٥٨١ / ٣٤٤٤) (٢ / ٤١٤) باب (٢١) . وصححه وأقره ووافقه الذهبى . وفى صحيح الجامع برقم (٣٣٨٣) ، وفى الكلم (١٢٢) ، وفى الترغيب (٢ / ٢٧٥) و (٣/ ٤٣) من حديث سعد بن أبى وقاص وليس من حديث ابن عباس كما ذكر المصنف .

ذكر التوابين من ملوك الأمم الماضية

٨ - (توبة طالوت) (١)

أخبرنا أحمد بن المبـــارك ، أنا ثابت ، أنا أبو على بن دوما ، أخبرنا مخلد ابن جعفر، أنا الحسن بن علوية ، أنا إسماعيل بن عيسى ، أنا إسحاق بن بشر ، أنا أبو إلياس،عن وهب بن منبّه: أنّ داود عليه السلام لمّا قتل جالوت ، وانصرف طالوت ببنى إسرائيل مظفرًا ، فزوّج ابنته من داود وقاسمه نصف ملكه ، واجتمعت بنو إسرائيل،وقالوا: نخلع طالوت ونجعل علينا داود فإنه من آل يهوذا وهو أحقّ بالملك ·

فلمّا أحسّ طالوت بذلك ، وخاف على ملكه ، أراد أن يغتال داود فيقتله · فأشار عليه بعض وزرائه : إنّك لا تقدر علي قتله إلاّ أن تساعدك ابنتك · فدخل طالوت على ابنته ، فقال لها : يا بنيّة ! إنى أريد أمرًا وأحبّ أن تساعدينى عليه · قالت : وما ذاك ؟ قال : أريد أن أقتل داود ، فإنه قد فرّق علىّ الناس · فقالت : يا أبتِ إنّ داود له صولة ، شديد الغضب ، فلست آمن عليكَ إن لم تستطع قتله ، أن يظفر بك فيقتلك ، فإذا أنت قد لقيت الله قاتلاً لنفسك مستحلاً لداود ! وعجبٌ منك ومما أعرف من حلمك وسداد (٢) رأيك ! كيف أسلمك إلي هذا الرأى القصير وهذه الحيلة الضعيفة بالتقدم إلى داود ، وأنت تعلم أنه أشدّ أهل الأرض نفسًا وأبسلهم عند الموت ؟! ·

فقال طالوت : إنّى لا أسمع قول مفتونة بزوج ، قد منعها حبّها إياه أن تقبل من أبيها تناصحه ، واعلمى أنى لم أدْعُكِ إلى ما دعوتك إليه إلاّ وقد وطّنت نفسى على قطع صهره (٣) · إما أن أقتلكِ ، وإما أن تقتليه · قالت : فأمهلنى حتى إذا وجدت فرصة أعلمتك ·

---

(١) طالوت : قال الثعلبى : ابن قيس بن افيل بن صارو بن تحورت بن أفيح بن أنيس بن بنيامين بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم الخليل · قال عكرمة والسدى : كان سقاء ، وقال وهب : كان دباغًا وقيل غير ذلك · والله أعلم · وأنظر « قصص الأنبياء (ص / ٤١٦) لابن كثير ، وتفسير الطبرى (٢ / ٣٧٩)

(٢) سَدَّ : الشيء : سدَادًا : استقام · فهو سـديد وأسـد · وراجع المعجم الوجيز (ص/ ٣٠٦)

(٣) الصِّهر : القريب بالزواج ويوصف به ، فيقال : هو صِهرى (جـ) أصْهاره - : المصاهرة وراجع المعجم الوجيز (ص / ٣٧٢) ·

قال : وأخبرنا جويبر عن الضحّـــاك عن ابن عباس ، أنها انطلقت فأخذت زقًا [1] ، ثمّ ملأته خمرًا ، ثم طيّبته بالمسك والعنبر وأنواع الطيب ، ثمّ أضجعت الزقّ على سرير داود ولحفته بلحاف داود ، وأفشت إلى داود ذلك ، وأدخلته المخدع، وأعلمت طالوت ، وقالت : هلّم إلى داود فاقتله . فجاء حتّى دخل البيت ومعه السيف . ثمَ قالت : هو ذاك ، فشأنك وشأنه . فوضع السيف على قلبه ثمّ اتكأ عليه حتّى أنفذه ، فانتضح الخمر ونفح منه ريح المسك والطيب . قال : يا داود! ما أطيبك ميتًا ، وكنت وأنت حيّ أطيب منك ميتًا ، وكنت طاهرًا نقيًا ! وندم، فبكى وأخذ السيف فأهوى به إلى نفسه ليقتلها ، فاحتضنته ابنته وقالت : يا أبت ! مالك ؟ قد ظفرتَ بعدوّكَ وقتلته ، وأراحك الله منه ، وصفا لك الملك . قال: يا بنيَّة ! قد علمتِ أن الحسد والغيرة حملانى على قتله وصرتُ من أهل النار ، وإنّ بنى إسرائيل لا يرضون بذلك ، فأنا قاتل نفسى . قلت : يا أبت أفكان يسرك أن لم تكن قتلته ؟ قال : نعم . قال : فأخرجت داود من البيت ، فقالت : يا أبت ! إنك لم تقتله ، وهذا داود ! قال : وندم طالوت [2] .

قال إسحاق : وأخبرنا ابن سمعان عن مكحول ، قال ، زعم أهل الكتاب أن طالوت طلب التوبة إلى الله تبارك وتعالى ، وجعل يلتمس التنصل من ذنوبه ، وانه أتى عجوزًا من عجائز بنى إسرائيل كانت تحسن الاسم الذى به يدعى الله فيجيب . فقال لها : إنى قد أخطأت خطيئة لا يخبرنى عن كفارتها إلا إليسع . فهل أنت منطلقة بى إلى قبره فتدعين الله عزّ وجل ليبعثه حتى أسأله عن خطيئتى ما كفَّارتها ؟ قالت : نعم . فانطلق بها حتى أتى قبره . قال : فصلت ركعتين ثم دعت الله عز وجل ، فخرج إليه إليسع ، فقال : يا طالوت ! ما بلغت خطيئتك أن أخرجتنى من مضجعى الذى أنا فيه ؟! قال : يا نبـى الله ! ضـــاق علىَّ أمرى فلم يكن لى بد من مسألتك عنه. قال : فإن كفارة خطيئتك أن تجاهد بنفسك وأهل بيتك حتى لا يبقى

(١) الزِّقُّ : وعاء من جلد يُجز شعرهُ ، يتخذ للماء والشراب وغيره . والجمع : أزقاق، وزقاق وراجع المعجم الوجيز (ص / ٢٨٩) .

(٢) وطالوت اسمه فى سفر صمويل » شاول بن قيس بن أبيئيل بن صرور بن بكورة بن أفيح » .

منكم أحد. ثم رجع إليسع إلى مضجعه ، وفعل ذلك طالوت حتى قتل هو وأهل بيته .

* * *

٩ - (توبة ابن ملك من ملوك بنى إسرائيل)

أخبرنا أبو المعالى عبد الله بن عبد الرحمن بن صابر السلمى ، أنا أبو القاسم على بن إبراهيم بن العباس الحسنى ، أنا أبو الحسن رشأ بن نظيف المقرئ ، أنا أبو محمد الحسن بن اسماعيل الضراب ، أن أبو بكر أحمد بن مروان المالكى ، حدثنا الحارث بن أبى أسامة ، ثنا مروان بن معاوية بن عمرو ثنا أبو بكر العجلى ، ثنا أبو عقيل الدورقى عن بكر بن عبد الله المزنى ، قال :

كان رجل من ملوك بنى إسرائيل ، قد أعطى طول عُمر وكثرة أموال وكثرة أولاد . وكان أولاده إذا كبر أحدهم لبس ثياب الشعر ، ولحق بالجبال ، وأكل من الشجر ، وساح فى الأرض حتى يأتيه الموت . ففعل ذلك جماعتهم رجل بعد رجل ثم تتابع بنوه على ذلك .

وأصاب ولدًا بعد كبر ، فدعا قومه ، فقال : إنى قد أصبت ولدًا بعد ما كبرت، وترون شفقتى عليكم ، وإني أخاف أن يتبع هذا سنَّة إخوته . وأنا أخاف عليكم إن لم يكن عليكم أحد من ولدى بعدى أن تهلكوا ، فخذوه الآن فى صغر سنه ، فحببوا إليه الدنيا ، فعسى أن يبقى من بعدى عليكم . فبنوا له حائطًا فرسخًا فى فرسخ [1] ، فكان فيه دهرًا من دهره .

ثم ركب يومًا فإذا عليه حائط مصمت ، فقال : إنى أحسب أن خلف هذا الحائط ناسًا وعالمًا آخر ، فأخرجونى أزدد علمًا وألقى الناس . فقيل ذلك لأبيه ، ففزع وخشى أن يتبع سنَّة إخوته ، فقال : اجمعوا عليه كل لهو ولعب ، ففعلوا ذلك .

ثم ركب فى السنة الثانية ، فقال : لابد من الخروج . فأخبر بذلك الشيخ ، فقال : أخرجوه . فجُعل على عجلة وكلل بالزبرجد والذهب وصار حوله حافتان من الناس . فبينا هو يسير إذا هو برجل مبتلى فقال : ما هذا ؟ قالوا : رجل مبتلى .

---

(١) الفرسخ : مقياس قديم من مقاييس الطول يقدر بثلاثة أميال . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٤٦٧) .

فقال : أيصيب ناسًا دون ناس أو كلّ خائف له ؟ قالوا : كل خائف له . قال : وأنا فيما انا فيه من السلطان ؟ قالوا : نعم ، قال : أف لعيشكم هذا ! هذا عيش كدر . فرجع مغمومًا محزونًا ، فقيل لأبيه ، فقال : انشروا عليه كل لهو وباطل حتى تنزعوا من قلبه هذا الحزن والغمّ .

فلبث حولا ، ثمّ قال : أخرجونى ، فأخرج على مثل حاله الأول . فبينا هو يسير إذا هو برجل قد هرم ، ولعابه يسيل من فيه . فقال : ما هذا ؟ قالوا : رجل قد هرم [1] . قال : يصيب ناسًا دون ناس أو كلّ خائف له إن هو عُمِّر ؟ قالوا : كلّ خائف له . قال : أفّ لعيشكم هذا ! هذا عيش لا يصفو لأحد . فأخبر بذلك أبوه ، فقال : احشروا عليه كلّ لهو وباطل . فحشروا عليه .

فمكث حولاً [2] ، ثمّ ركب على مثل حاله . فبينا هو يسير إذا هو بسرير تحمله الرجال على عواتقها . فقال : ما هذا ؟ قالوا : رجل مات قال لهم : وما الموت ؟ أئتونى به ! فأتوه به . فقال : أجلسوه . فقالوا . إنه لا يجلس . قال : كلموه . قالوا: إنّه لا يتكلم . قال . فأين تذهبون به ؟ قالوا : ندفنه تحت الثرى . قال : فيكون ماذا بعد هذا ؟ قالوا : الحشر . قال لهم : وما الحشر ؟ قالوا : (يوم يقوم الناس لربّ العالمين) (المطففين : ٥) ، فيجزى كلّ واحد على قدر حسناته وسيئاته . قال ولكم دار غير هذه تُجازون فيها ؟ قالوا : نعم . فرمى بنفسه من الفرس وجعل يعفّر وجهه فى التراب ، وقال لهم : مِن هذا كنت أخشى ! كاد هذا يأتى علىّ وأنا لا أعلم به ، أمّا وربّ يعطى ويحشر ويجازى ! إنّ هذا آخر العهد بينى وبينكم ، فلا سبيل لكم علىّ بعد هذا اليوم . فقالوا: لا ندعك حتى نردك إلى أبيك .

قال : فردوه إلى أبيه ، وكاد ينزف دمه . فقال : يا بنىّ ! ما هذا الجزع ؟ قال: جزعى ليومٍ يعطى فيه الصغير والكبير مجازاتهما ما عملا من الخير والشر . فدعا بثياب فلبسها ، وقال : إنى عازم فى الليل أن أخرج . فلما كان فى نصف الليل، أو قريبًا منه ، خرج . فلما خرج من باب القصر ، قال : اللهمّ ! إنى أسألك أمرًا ليس لى منه قليل ولا كثير ، قد سبقت فيه المقادير . إلهى ! لوددتُ أن الماء كان فى الماء ، وأن الطين كان فى الطين ، ولم أنظر بعينىّ إلى الدنيا نظرة واحدة .

---

(١) هَرِمَ : الرجل : بلغ أقصى الكبر وضعُف . فهو هَرِم . وراجع المعجم الوجيز .
(٢) الحَول : السنة (ج) أحوال . وراجع المعجم الوجيز (ص / ١٧٩) .

قال بكر بن عبد الله : فهذا رجل خرج من ذنب واحد لا يعلم ماذا عليه ، فكيف بمن يذنب وهو يعلم ما عليه فيه ، ولا يتحرج ولا يجزع ولا يتوب ؟!

* * *

١٠ - (توبة صاحب الخورنق)

أخبرنا عبد الله بن عبد الرحمن ، أنا علىّ بن إبراهيم ، أنا رشأ ، أنا الحسن ابن اسماعيل ، أنا أحمد بن مروان قال : ثنا محمد بن عبد العزيز ، ثنا أبى عن بهلول بن حسّان عن اسحاق بن زياد عن شبيب بن شبة عن خالد بن صفوان الأهتم، قال :

إنّ ملكا من الملوك خرج إلى الخورنق والسدير فى عام قد بكر وسميُّه وتتابع وليُّه ، وأخذت الأرض فيه زخرفها وزينتها . وكان قد أعطى بسطة فى الملك مع الكثرة والغلبة والقهر . فنظر فأبعد النظر ، فقال لجلسائه : لمن هذا ؟ قالوا : للملك. قال : فهل رأيتم أحداً أعطى مثل ما أُعطيت ؟ .

قال : وكان عنده رجل من بقايا حملة الحجة ، ولم تخل الأرض من قائم لله بحجته فى عباده : فقال : أيها الملك ! إنك قد سألت عن أمر ، أفتأذن لى بالجواب عنه ؟ قال : نعم : قال أرأيت ما أنت فيه ، أشىء لم تزل فيه ، أم شىء صار إليك ميراثًا ، وهو زائل عنك ، وصائر إلى غيرك كما صار إليك ؟ قال : كذلك هو . قال: فلا أراك إلا أعجبت بشىء يسير لا تكون فيه إلا قليلاً وتنقل عنه طويلا ، فيكون غدًا عليك حسابًا . قال : ويحك ! فأين المهرب وأين المطلب ؟ وأخذته القشعريرة قال : إما أن تقيم فى ملكك فتعمل فيه بطاعة الله على ما ساءك وسرَّك وأمضك وأرمضك ، وإما أن تنخلع عن ملكك وتضع تاجك وتلقى عليك أطمارك ، وتعبد ربك فى هذا الجبل حتى يأتيك أجلك . فقال : إنى مفكر الليلة وأوافيك فى السحر فأخبرك باحدى المنزلتين .

فلما كان فى السحر قرع عليه بابه ، فقال : إنى اخترت هذا الجبل وفلوات الأرض وقفر البلاد ، وقد لبست على أمساحى وضعت تاجى ، فإن كنت رفيقا فلا تخالف . فلزما والله الجبل حتى أتاهما أجلهما جميعا . وهو الذى يقول فيه أخو بنى تميم عدى بن زيد العبادى :

أيّها الشّـــامتُ المُعيِّرُ بالدّهر ... أأنتَ المُبرّأ الموفـــورُ
أمْ لَدَيْكَ العَهْدُ الوثيقُ من الأيـــ ... ـــام بَلْ أنتَ جاهـــلٌ مَغْرورُ
مَنْ رأَيتَ المنون خلّدْنَ أمْ منْ ... ذا عَلَيْه منَ أنْ يُضـــامَ خفيرُ
أينَ كِسرَى كسرى الملوكِ أنو شر ... وانَ أمْ أينَ قَبْلهُ سَابُـــورُ
وبَنُو الأصفَر الكرامُ مُلوك الـــ ... ـــروم لَمْ يَبْقَ منْهُـــم مَذكُورُ
وأخُو الحضر إذْ بَناه وإذ دجـــ ... ـــلَةُ تُجْبَى إليـــه والخَابُورُ
شَـــادَه مَرمَرًا وَجَلَّلَهُ كلْـــ ... ـــسًا فَلِلطَّيرِ في ذُرَاهُ وُكُور
لَمْ يَهَبْهُ رَيْبُ المنُونِ فَبَادَ الْمُــ ... ـــلْكُ عَنـــهُ فَبَابُهُ مَهجُورُ
وتذكَّرْ رَبَّ الخوَرْنَقِ إذْ أشْـــ ... ـــرَفَ يَوْمًا وَلِلهُدَى تفكـــيرُ
سَرَّهُ مَالُهُ وَكَثْرَةُ ما يَمْـــ ... ـــلكُ وَالبحـــرُ معرِضًا والسَّديرُ
فَارْعَوى قَلْبُهُ وَقالَ وَما غِبْـــ ... ـــطةُ حيٍ إلى المَمـــاتِ يَصيرُ

* * *

١١ - (توبة النعمان بن امرىء القيس الأكبر)

قال أحمد بن مروان : وحدثنا أحمد بن يوسف حدثنا محمد بن سلام الجمحى عن الاصمعى أن النعمان بن امرئ القيس الأكبر ، وهو الذى بنى الخورنق ، ركب يومًا فأشرف على الخورنق ، فنظر إلى ما حوله فقال لمن حضره : هل علمتم أحدًا أوتيَ مثل ما أوتيتُ ؟ فقالوا : لا ، إلا رجل منهم ساكت لا يتكلم ، وكان من حكمائهم . فقال له : مالك لا تتكلم ؟ فقال : أيها الملك ، إن أذنت لى تكلمت . فقال : تكلم . قال : أرأيت ما جمعت ، أشىء هو لك لم يزل ولا يزول ، أم هو شىء كان لمن كان قبلك وزال عنه وصار إليك وكذلك يزول عنك ؟ قال : لا بل كان لمن قبلى فزال عنه وصار إليَّ وكذلك يزول عنى . قال : فسررت بشىء تزول عنك لذَّته غدًا وتبقى تَبعتُه عليك ؟! تكون فيه قليلا وترتهن فيه كثيرًا طويلا ؟!

قال : فبكى وقال له : أين المهرب ؟ قال : إلى أحد أمرين : إما أن تقيم فتعمل بطاعة ربك ، وإما أن تلقى عليك أمساحًا ، ثم تلحق بجبل وتفر من الناس،

وتقيم وحدك وتعبد ربك حتى يأتيك أجلك . قال : فإذا فعلتُ ذلك فما لى ؟ فقال: حياة لا تموت ، وشباب لا يهرم ، وصحة لا تسقم ، وملك جديد لا يبلى . فقال له : أيها الحكيم ! فكل ما أرى إلى فناء وزوال ؟ قال : نعم . قال : فأى خير فيما يفنى ؟ والله لأطلبن عيشًا لا يزول أبدًا .

قال : فانخلع من ملكه ولبس الأمساح وسار فى الأرض . وتبعه الحكيم ، فعبدا الله جميعًا حتى ماتا . وهو الذى يقول فيه عدى بن زيد الشاعر :

وَتَذَكَّرْ رَبَّ الخَوَرْنَق إذْ أشْـ ـــرَفَ يَوْمًا وَلِلهُدَى تفكيرُ
سَرَّهُ مَالُهُ وَكَثْرَةُ مَا يَمْـ ـــلِكُ وَالبحرُ معرِضًا والسَّديرُ
فَارْعَوى قَلبُهُ وَقالَ وَما غبْـ ـــطةُ حيٍ إلى المَماتِ يَصيرُ

وفيهم يقول الأسود بن يَعْفُر :

مَاذَا أُؤمِّلُ بَعْدَ آلِ مُحَرِّقٍ تَرَكُوا مَنَازِلَهُمْ وبَعدَ إيَادِ
أهْلِ الخَوَرْنَقِ والسَّديرِ وبارقٍ والقَصرِ ذى الشُّرُفاتِ منْ سنداد
نَزَلوا بأنْقُرَةٍ يَسيلُ علَيهِمُ مَاءُ الفُراتِ يَجىءُ منْ أطْوَاد
أرْضٌ تخَيَّرها لِطيبِ مَقيلِها كَعْبُ بنُ مامَةَ وابْنُ أُمِّ دُؤاد
جرَت الرِّياحُ عَلى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ فَكَأَنَّمَا كانُوا عَلَى مِيعَادِ
فَأرَى النَّعيمَ وكل مَا يُلْهى بهِ يَوْمًا يَصيرُ إلى بِلَىً وَنَفَادِ

* * *

١٢ - (توبة ملك من الملوك)

وذكر محمَّد بن أحمد البراء فى كتاب « الروضة » قال : حدّثنا أحمد بن إبراهيم ثنا جويبر بن أسماء عن أبى معدان عن عون بن عبد الله بن عتبة قال : حدّثتُ عمر بن عبد العزيز بحديث ، فكأنّ معناه وقع منه ، حدّثته أنّ ملكاً ممّن كان قبلنا ابتنى بنيةً فتنوق(١) فى بنائها . ثمّ صنع طعامًا ودعا الناس إليه ، وأقعد على أبوابها ناسًا يسألون كلّ من خرج : هل رأيتم عيبًا ؟ فيقولون : لا ، حتّى جاء ناس

(١) تنيق : فى ملبسه ومطعمه وأموره : تأنف وبالغ . والنِّيف : أرفع موضع فى الجبل وراجع المعجم الوجيز (ص / ٦٤١) .

فى آخر ما جاء ، عليهم أكسية ، فسألوهم : هل رأيتم عيبًا ؟ قالوا : عيبين اثنين . قال : فحبسوهم ، ودخلوا على الملك فقالوا : قد دخل الناس فسألناهم ، فذكروا أنهم لم يرَوْا عيبًا ، حتّى جاء قوم عليهم أكسية - أظنّه قال : شباب - فسألناهم ، فقالوا : رأينا عيبين اثنين . قال : ما كنت أرضى بواحد ، فائتونى بهم قال : فأدخلوهم عليه . قال : هل رأيتم عيبًا ؟ قالوا : عيبين اثنين . قال : وما هما ؟ قالوا : تخرب ويموت صاحبها . قال : وهل تعلمون دارًا لا تخرب ولا يموت صاحبها؟ (قالوا : نعم ، قال : وما هى ؟ قالوا : دار الآخرة) قال : فدعوه ، فاستجاب لهم . قال : فقال لهم : إن جئت معكم علانية لم يَدَعْنى أهل مملكتى ، ولكن ميعادكم موضع كذا وكذا . قال : فكان معهم زمانًا . ثمّ قال لهم ذات يوم : عليكم السلام . قال : فقالوا : ما لك ؟ أرأيت منّا شيئًا تكرهه ؟ قال : لا . قالوا: فما حملك على هذا ؟ قال : أنتم تعرفونى فأنتم تكرموننى لحالى التى كنت عليها . قال : فكأن معناه وقع من عمر موقعًا . فذهبتُ إلى مسلمة فأخبرته . قال : فدخل مسلمة على عمر وقد كان حدّثه بهذا الحديث . قال : فقال : ويحك يا مسلمة ! أرأيت رجلاً حُمّل ما لا يطيق ففرّ إلى ربّه عزّ وجلّ ، فهل ترى عليه بذلك بأسًا ؟ قال : فاتق الله ، يا أمير المؤمنين فى أمّة محمد ﷺ ، فوالله لئن فعلت ليقتتلُن بأسيافهم. قال : ويحك يا مسلمة ! حُمّلت ما لا أطيق ! فردّدها ، وجعل مسلمة يناشده حتى سكن .

* * *

١٣ - (توبة امرىء القيس)

وروى المرزبانىّ عن الأزدىّ ، قال : كان امرؤ القيس الكندى ، وهو مخرق الأول ، طويل المصاحبة للّهو واللذات ، كثير العكوف على اللعب . فركب يومًا إمّا متبديًا وإمّا متصيّدًا ، فانقطع عن أصحابه . فإذا هو برجل جالس قد جمع عظامًا من عظام الموتى وهى بين يديه يقلّبها . فقال : ما قصّتك أيها الرجل وما بلغ بك إلى ما أرى من سوء الحال وشسوف الجسم [١] وتلويح اللون والانفراد فى هذه الفلاة[٢] ؟

(١) وفى المطبوعة بلفظ « شفوف » : شَفّ : ضمّرهُ وجعله نحيلاً ، وراجع المعجم الوجيز (ص / ٣٤٦) .

(٢) الفلاةُ : الأرض الواسعة المقفرةُ والجمع : فلاً ، وفلوات . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٤٨١) .

فقال : أمّا ذلك فلأني على جناح سفر بعيد ، وبى موكّلان مزعجان يحدوان بى إلى منزل ضنك المحلّ ، مظلم القعر ، كريه المقرّ . ثم يسلماني إلى مصاحبة البلى ومجاورة الهلكى تحت أطباق الثرى . فلو تُركتُ بذلك المنزل مع جفائه وضيقه ووحشته ، وارتعاء خشاش (١) الأرض فى لحمى وعصبى حتى أعود رفاتًا وتصير أعظمى رممًا ، كان للبلاء انقضاء وللشفاء نهاية ؛ ولكنى أُدفَع بعد ذلك إلى صيحة الحشر وأرد لهول مواقف الجزاء . ثم لا أدرى إلى أىّ الدارين يؤمَر بى . فأىّ حال يلتذّ به من يكون إلى هذا الأمر مصيره ؟

فلمّا سمع الملك كلامه ألقى نفسه عن فرسه وجلس بين يديه ، وقال : أيّها الرجل ! لقد كدّر مقالك علىّ صفو عيشى ، وملك الاشفاق قلبى ، فأعد علىّ بعض قولك واشرح لى دينك . فقال له : أما ترى هذه التى بين يدىّ ؟ قال : بلى . قال: هذه عظام ملوك غرّتهم الدنيا بزخرفها واستحوذت على قلوبهم بغرورها . فألهتهم عن التأهُب لهذه المصارع حتى فاجأتهم أجسادًا ، ثم تُجازَى بأعمالها ، فإما إلى دار القرار ، وإما إلى محلّ البوار .

ثمّ اختلس الرجل فلم يُرَ له أثر . وتلاحق أصحاب الملك . وقد امتُقع لونه وتواصلت عبراته وركب وقيذًا (٢) . فلمّا جَنَّ (٣) عليه الليل ، نزع ما عليه من لباس الملك ، ولبس طمريْن وخرج تحت الليل ، فكان آخر العهد به .

* * *

١٤ - (توبة ملك من ملوك اليمن)

وروى أنّه احترب ملكان من ملوك اليمن ، فغلب أحدهما صاحبه وقتله وشرّد أصحابه ، وزينت له السرور ودار الملك ، وتلقّاه الناس ليدخل . فبينا هو فى بعض السكك يقصد دار الإمارة بها ، وقف له رجل كا ينسب للجنون ، فأنشده :

---

(١) الخشاش : حشرات الأرض و - الطير ونحوها . والمفرد . خشاشة . وراجع المعجم الوجيز (ص / ١٩٦)

(٢) وَقذ فُلانًا : « يقذه » ضربه حتى استرخى وأشرف على الموت : أما الموقوزة : الشاة: التى وقذت بالعصا حتى ماتت . وراجع الوجيز (ص / ٦٧٧) .

(٣) جَنّ : استتر ويقال : جَنَّ الليل : اشتد الظلام ، وفى القرآن الكريم « فلما جَنَّ عليه الليل رأى كوكبًا » . وجُنَّ : وجنَّة مجنة : زال عقله . وأما جان : اسود . وأنظر المعجم الوجيز (ص / ١٢١ - ١٢٨) .

تَسمَعْ منَ الأيَّام إنْ كُنت حازما … فَإِكَ فِيهَا بَيْنَ نَاهٍ وآمِر
فكم مَلِكٍ قَدْرُ كَمِّ التُّرْبُ فوقَه … وَعَهدى به بالأمْس فوق المنابر
إذَا كُنتَ فى الدُّنْيَا بَصيرًا فَإنَّما … بَلاغُكَ منها مثلُ زَاد المُسافر
إذا أَبْقَتَ الدنُّيا عَلَى المَرءِ دينَه … فَما فَاتَهُ منْها فَلَيْسَ بضائر

فقال له : صدقت ، ونزل عن فرسه ، وفارق أصحابه ، ورقى الجبل وأقسم على أصحابه أن لا يتبعه أحد ، فكان آخر العهد به · وبقيت اليمن شاغرة (١) أيَّامًا حتى اختير لها من عقدوا له الملك عليها ·

١٥ - (توبة ملك من ملوك بنى اسرائيل)

وقرأتُ فى « الملتقط » عن عبد الواحد بن زيد ، قال : كان فى بنى إسرائيل عابد لم يكن له إلاّ جبة صوف وقربة يستقى فيها الماء للناس · فلمّا حضره الموت ، قال لأصحاب : إنّى لم أدَع من الدنيا شيئًا إلاّ جبّتى وهذه القربة ما أطيق حملها يوم القيامة ، فإذا مت فادفعوها إلى فلان الملك ليحملها مع ما تحمَّل من دنياه · فلّما مات العابد أخبروا الملك بما قاله· فقال الملك : هذا العابد عجز عن حمل جبة وقربة وأنا تحمّلت من الدنيا ما تحمّلته ! فأخذ الجبّة فلبسها وأخذ القربة وخرج من ملكه فجعل يستقى للناس الماء ·

* * *

١٦ - (توبة ملك من ملوك بنى اسرائيل)

أخبرنا شيخ الإسلام محيى الدين أبو محمّد عبد القادر بن أبى صالح بن عبد الله الجيلى أخبرنا أبو بكر أحمد بن المظفر بن سوسن التمار ، أنا أبو على بن شاذان، أنا أبو بكر محمّد بن العبّاس بن نجيح البزّار ، ثنا يعقوب بن يوسف القزوينى، ثنا محمّد بن سعيد ، ثنا عمرو بن أبى قيس ، عن سماك ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن أبيه عن عبد الله بن مسعود ، عن رسول الله ﷺ ، قال :

« إن بنى إسرائيل استخلفوا خليفة عليهم بعد موسى ، فقام يصلى فى القمر

---

(١) الشاغرة : الخالية · وشَغَرَ المكان : خل وفرغ · وراجع المعجم الوجيز (ص / ٣٤٥) ·

فوق بيت المَقْدس . قال : فذكر أموراً كان يصنعها . قال : فخرج فتدّلى بسبب ، فأصبح السبب متعلقًا فى المسجد وقد ذهب .

قال : فانطلق حتى أتى قومًا علي شاطىء البحر بديار مصر ، فوجدهم يصنعون لَبِنًا [١] فسألهم كيف يأخذون هذا اللَّبن ؟ قال : فأخبروه فلبنً معهم . وكان يأكل من عمل يده ، فإذا كانَ حين الصلاة تطّهر فصلّى ، فرفع ذلك العمّال إلى قهرمانهم [٢] ان فينا رجلاً يفعل كذا وكذا ، فأرسل إليه ، فأبى أن يأتيه ثلاث مرّات . ثمّ إنّه جاءه بنفسه يسير على دابته فلما رآه فرّ ، واتّبعه فسبقه ، فقال : أنظرنى أكلّمْك . قال : فقام حتى كلّمه ، فأخبره خبره . فلمّا أخبره خبره ، وأنّه كان ملكًا، وأنَّه فرّ من رهبة ربّه عزّ وجلّ ، قال : إنّى لأظنّ أنى لاحق بك قال : فلحقه، فعبدا الله عزّ وجلّ حتى ماتا بـ « رميلة » مصر . قال عبد الله : إنّى لو كنت ثَمَّ لاهتديت إلي قبريهما من صفة رسول الله ﷺ التى وصف .

* * *

١٧ - (توبة رجل من بنى اسرائيل كان يعبد الأصنام)

أخبرنا أبو العبّاس بن المبارك قال : أخبرنا أبو المعالى بن بندار ، قال : أخبرنا أبو علىّ النعّالىّ ، أخبرنا مخلد بن جعفر الباقرحىّ ، أنا الحسن ، أنا إسماعيل بن عيسى ، أنا إسحاق بن بشر ، أنا علىّ بن عاصم ، عن داود بن أبى هند ، عن عبد الله بن عبيد بن عمير ، عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس ، قال :

كان فى بنى إسائيل عابد قد أُعجبوا به ، فذكروه يومًا عند نبيهم ، فأثنَوا عليه، فقال : إنّه لَكمَا تقولون ، لكنه تارك لشىء من السنّة فبلغ العابد ، فقال : فعلام أدئب نفسى !

قال : فهبط من مكانه فأتى النبىّ وعنده الناس ، والنبىّ لا يعرفه بوجهه .

---

(١) اللَّبن : الطوب الغير محروق . والمفرد : اللبنة : التى يبنى بها والجمع لبن مثل كلمة وكلم قال ابن السكيت من العرب من يقول لبنة ولبن مثل لبدة ولبد . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٥٥١) ومختار الصحاح (ص / ٤٤٦) .

(٢) القهرمان : لقب كان يُلقب به أمين الملك ووكيله الخاص بتدبير دَخلِه وخَرْجه وراجع المعجم الوجيز (ص / ٥١٨) .

فسلّم عليه ، ثمّ قال : يا نبيّ الله ! بلغنى أنّى ذكرتُ عندك فقلتَ : إنّه لكذلك ، لولا أنّه تارك لشيء من السنّة ، ففيمَ أدئب نفسى بالليل والنهار وأعتزل الناس ، وإنّما أطلب سنّة الرب عز وجلّ ! قال : أنت فلان ؟ قال : نعم . قال : أما والله ما هو شيء أحدثتَه فى الإسلام ولكنَّك لم تتزوّج . قال له العابد : وليس إلاّ هذا ؟ قال: لا . قال : فلما رأى النبيّ استهانته قال : أرأيت لو فعل الناس مثل الذى فعلت من كان يتّقى العدوّ عن المسلمين ، ومن كان يأخذ للمظلوم من الظالم ؟ (١) قال : وذكر الصلاة . قال له العابد : صدقت ، يا نبيّ الله ! ما أحرّمه ، ولكنى أكره أن أتزوّج امرأة مسلمة وأنا فقير فأعضلها ، وليس عندى ما أُنفق عليها ، وأمّا الأغنياء فلا يزوّجوننى فقال له النبيّ : ما بك إلاّ هذا ؟ قال ، فما بى إلاّ هذا . قال : أنا أزوّجك ابنتى . قال : قد فعلت . قال : فزوّجه ، فولدت له غلامًا . قال ابن عباس : فوالله ما وُلد فى بنى إسرائيل مولود ذكر قطّ كانوا أشد فرحًا به من ذلك الغلام . قال ، قالوا : ابن نبيّنا وابن عابدنا ! إنّا لنرجو أن يبلغ بنا ما بلغ رجل قال: فلمّا بلغ الغلام انقطع إلى عَبَدَة الأوثان ، وانقطعوا إليه ، وكثروا عنده . قال: فبينا هم عنده يومًا ، إذ قال : إنّى أراكم كثيرًا ، فما بال هؤلاء القوم قاهرين لكم ؟ فقالوا إنّ لهم رأسًا يجمعهم وليس لنا رأس . قال : فما يمنعكم إلاّ هذا ؟ قالوا : نعم . قال : فأنا رأسكم . قالوا : وتفعل ؟ قال : نعم . قال : فخرج وخرجوا معه . قال : فبلغ ذلك النبى وبلغ أباه ، فاجتمع بنو إسرائيل إلى النبيّ وأبوه معهم، فأرسل إليه يذكرّه بالله ، وأن يرجع إلى الإسلام ، فأبى . فخرج إليه النبيّ ، وخرج

---

(١) قُلتُ : ولقد حرص الإسلام فى الحث على الزواج . فيقول الإمام أحمد : العزوبية ليست من أمر الإسلام فى شيء وتزوج النبى ﷺ أربع عشرة ومات عن تسع .. » ويقول ﷺ « يا معشر الشباب من إســتطاع الباءة فليتزوج .. » رواه البخـــارى (٩ / ١٤) (٥٠٦٦) ، ومسلم (٢ / ١٠١٨) (١) (١٤٠٠) وأبو داود (٢ / ٢٠٤٦) والترمذى (٤ / ١٠٨٧) وابن ماجه (١ / ١٨٤٥) والنسائى (٦ / ٥٧) وأما من لم يستطع فعليه بالصوم يقول العينى : الصوم قاطع لشهوة النكاح ، ومن اعترض بأنه يزيد الحرارة فمن ثم الشهوة وأجيب بأن ذلك يقع فى مبدأ الأمر ، فإن تمادى عليه إعتاره وشهوة النكاح تابعة لشهوة الأكل . وأنظر قول أحمد فى « الإتباع » (ص ٢١٠) للســيوطى . والعينى فى عمدة القارئ (٩ / ٣١) .

أبوه معه ، فالتقى القوم واقتتلوا حتى كثرت الدماء فيهم ، وقُتلِ النبى وقتل أبوه مع النبىّ . وانهزم بنو إسرائيل ، واتبعهم يفنيهم ويبعث فى آثارهم يقتلهم . قال : فلحق أحبارهم بالجبال ، واستقام له الناس . قال : فجعلت نفسه لا تَدَعه وظنّ أنّ ذلك الملك لا يستقيم له حتّى يفنىَ بنى إسرائل . قال : فجعل يبعث في طلبهم فى الجبال يقتّلهم ، فاستقام له الناس ، واشتدّ ملكه .

فلمّا رأى أحبار بنى إسرائيل ما يفعل بهم ، قالوا : خلّينا عن هذا الرجل وعن ملكه وليس يَدَعنا ! لقد بؤنا [1] بغضب من الله ، فررنا عن نبيّنا وعابدنا حتّى قُتلا وليس يَدَعنا ، فتعالوا نتوب إلى الله عزّ وجلّ ونلقى هذا الرجل فنقاتل ونحن تائبون. قال : قولوا رجلاً منهم أمرهم ، وبايعوا له ، وهبطوا وقد وطّنوا أنفسهم على الموت ، وتابوا إلى الله عزّ وجلّ . قال : فخرج إليهم ، فاقتتلوا أوّل يوم من أوّل النهار حتّى حال بينهم الليل . ثمّ غَدَوْا فاقتتلوا حتّى كثرت الدماء فى الفريقين ، حتّى حال بينهم الليل . قال ابن عبّاس : فغدوا اليوم الثالث وقد صبّروا أنفسهم لله فاقتتلوا قتالاً شديدًا . وقال لهم صاحبهم : إنّى لأرجو أن يكون الله قد تاب عليكم وقبَل توبتنا ، فإنّى أرى الصبر قد أنزل علينا ، وصارت الريح لنا ، فإن ظَفرتم به ، فإن استطعتم أن تأخذوه سليمًا فلا تقتلوه . قال : فاقتتلوا إلى قريب من الليل ، لا هؤلاء يفرّون ولا هؤلاء يهربون . فلمّا كان فى آخر النهار وعرف الله منهم الصدق ، أنزل عليهم النصر ، فهزموهم بإذن الله ، وقتلوهم ، وأخذوه سليمًا فأتَوْا به . قال: فاجتمع بنوا إسرائيل إلى صاحبهم ، فقال لهم : ما جزاء رجل من أنفسنا قتل نبينًا وقتل والده وأدخل علينا عبدة الأوثان حتّى قتلونا وشرّدونا فى البلاد ؟ فقائل يقول : احرقوه ! وقائل يقول : قطعوه ! وقائل يقول : عذّبوه ! فكلّما قالوا له شيئًا من هذا قال : هذا يأتى على نفسه . قالوا : فأنت أعلم . قال : فإنى أرى أن نأخذه فنصلبه حيًا ولا نطعمه ولا نسقيه ولا نقتله ونَدَعه حتّى يموت . قالوا له : افعل . فصُلب حيًّا وجعلوا عليه الحرس . قال : فمكث يومه ومن الغد واليوم الثالث حتّى أمسى ، فلمّا أمسى رأى الموت . فدعا آلهته التى كان يعبد من دون الله عزّ وجلّ . قال : فبدأ بأفضلها فى نفسه ، فيدعوه ، فإذا لم يجبه جاوزه ، ودعا الآخر . فأتى على آلهته جميعًا يدعوهم فلا يجيبونه ، وذلك فى جوف الليل . قال : اللّهمّ إله جدّى

(١) بَاءَ بالشيء : بَوْءا ، وبَوَاء : رجع و - : بما عليه : احتمله واعترف به وراجع المعجم الوجيز (ص / ٦٦) .

وأبى ! إنى قد ظلمت نفسى ودعوتُ هذه الآلهة التى كنت أعبدها من دونك ، فلو كان عندها خير لأجابتنى ، فاغفر لى وخلّصنى مما أنا فيه . فتحلَّلت عنه العُقَد فإذا هو فى أسفل الجذع .

وفى حديث آخر ، قال : فجعل يدعو صنمًا صنمًا ، فلا يجيبه أحد . قال : فنظر إلى السماء وقال : يا حنّان ! يا منّان ! أشهد أنّ كلّ معبود من لدن عرشك إلى قرار أرضك باطل إلا وجهك الكريم أنت فأغثنى . قال : فبعث الله عزّ وجلّ ملكًا ، فحلَّه عن خشبته فأنزله . قال ابن عبّاس : فأخذه الحرس فأَتَوْا به صاحبهم ، واجتمع بنو إسرائيل ، فقال : ما تأمرون فى هذا ؟ قالوا : ما ترى فيه ، الله عزّ وجلّ حله وتقول لنا : ما تأمرون فيه ! قال : صدقتم ، ولكن أحببت أن أستأمركم . قال : فخلّوا عنه .

قال سعيد بن جبير : سمعت ابن عبّاس يقول : والله ما كان فى بنى إسرائيل بعده رجل خيراً منه ولا أفضل .

* * *

١٨ - (توبة ملك من الملوك)

أخبرنا الإمام أبو الحسين علىّ بن عساكر بن المرّحب البطائحى المقرئ ، أنبأ أبو طالب اليوسفى ، أنبأ ابن المذهب ، أنبأ أبو بكر القطيعى ، ثنا عبد الله بن أحمد ، ثنا هدبة ، ثنا حمّاد بن سلمة ، عن ثابت وحميد ، عن بكر بن عبد الله المزنّى ، قال :

كان فيمن كان قبلكم ملك ، وكان متمرّدًا على ربه عزّ وجلّ ، فغزاه المسلمون فأخذوه سليمًا ، فقالوا : بأى قتلة تقتله ؟ فأجمع رأيهم على أن يجعلوا له قمقما [١] عظيمًا ، ويؤججوا تحته النار ، ولا يقتلوه حتى يذيقوه طعم العذاب . ففعلوا ذلك به . قال : فجعل يدعو آلهته واحدًا واحدًا : يا فلان ! بما كنت أعبدك به وأصلى لك وأمسح وجهك ، فأنقذنى مما أنا فيه . فلمّا رآهم لا يغنون عنه شيئًا ، رفع رأسه إلى السماء ، وقال . لا إله إلا الله ! ودعا مخلصًا ، فصبّ الله عليه مثعبًا[٢] من السماء

---

(١) القُمقم : إناءٌ صغير من نُحاس أو فضة أو خزف صينى يجعل فيه ماء الورد و - : ما يسخن فيه الماء من نُحاس وغيره ويكون ضيق الرأس . و - : وعاءٌ خُرافى للمردة من الشياطين فيما زعموا . والجمع . قماقم . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٥١٥ - ٥١٦) .

(٢) المثعب : مجرى الماء من الحوض وغيره . والجمع مثاعب . وأنظر المعجم الوجيز (ص / ٨٣) .

فأطفأ تلك النار ، وجاءت ريح فاحتملت ذلك القمقم فجعلت تدور بين السماء والأرض ، وهو يقول : لا إله إلا الله ! فقذفه الله إلى قوم لا يعبدون الله عزّ وجلّ وهو يقول : لا إله إلا الله ! فاستخرجوه فقالوا : ويحك ! ما لك ؟ فقال : أنا ملك بنى فلان ، كان من أمرى ، وكان من أمرى . فقص عليهم القصّة فآمنوا .

* * *

١٩ - (توبة الملك كنعان)

أخبرنا أحمد بن المبارك ، أنا ثابت ، أنا أبو علىّ بن دوما ، أنا مخلد ، أنا الحسن ، ثنا إسماعيل بن عيسى ، أنا إسحاق بن بشير قال : وحُدِّثت عن ابن سمعان عن بعض أهل العلم بالكتب :

أنّ ذا الكفل كان إليسع بن خطوب الذى كان مع إلياس ، وليس باليسع الذى ذكر الله تبارك وتعالى فى القرآن ، وإليسع ذو الكفل كان قبل داود . وذلك أن ملكًا جبّارًا يقال له : كنعان ، وكان لا يُطاق فى زمانه لظلمه وطغيانه ، وكان ذو الكفل يعبد الله سرًا منه ، ويكتم إيمانه وهو فى مملكته . فقيل للملك : إنّ فى مملكتك رجلاً يفسد عليك أمرك ويدعو الناس إلى غير عبادتك ، فبعث إليه ليقتله ، فأُتىَ به . فلمّا دخل عليه ، قال لهُ الملك . ما هذا الذى بلغنى عنك أنّك تعبد غيرى ؟ فقال له ذو الكفل : اسمع منّى وتفهَّمْ ولا تغضب ، فإن الغضب عدوّ للنفس يحول بينها وبين الحقّ ويدعوها إلى هواها وينبغى لمن قدر ألاّ يغضب ، فإنّه قادر على ما يريد . قال : تكلّم . قال : فبدأ ذو الكفل وافتتح الكلام بذكر الله عز وجلّ ، والحمد لله، ثم قال ذو الكفل : أتزعم أنّك إله ؟ فإله من تملك ؟ أو إله جميع الخلق ؟ فإن كنت إله من تملك ، فإنّ لك شريكًا فيما لا تملك ، وإن كنت إله الخلق ، فمن إلهك ؟ قال له : ويحك ! فمن إلهى ؟ قال : إله السماء والأرض وهو خالقهما وهذه الشمس والقمر والنجوم ، فاتّقِ الله واحذر عقوبته ، فإن أنت عبدته ووحّدته رجوتُ لك ثوابًا والخلود فى جواره . قال له الملك : أخبرنى ، من عبد إلهك فما جزاؤه ؟ قال : الجنّة إذا مات . قال : وما الجنَّة ؟ قال : دار خلقها الله تبارك وتعالى بيده ، فجعلها مسكنًا لأوليائه ، يبعثهم يوم القيامة شبابًا مردًا أبناء ثلاث وثلاثين سنة ، فيدخلهم الجنّة فى نعيم وخلود . شباب لا يهرمون ، مقيمون لا يظعنون ، أحياء لا يموتون ،

في نعيم وسرور وبهجة . قال فما جزاء من لم يعبده وعصاه ؟ قال : النار؛ مقرونين مع الشياطين ، مغلغلين [1] بالأصفاد ، لا يموتون أبدًا ، في عذاب مقيم وَهوان طويل ، تضربهم الزبانية بمقامع من حديد ، طعامهم الزقوم والضريع ، وشرابهم الحميم . فرقّ الملك وبكى لما كان قد سبق له . فقال له : إن أنا آمنت بالله فما لي؟ قال : الجنّة . قال : فمن لي بذلك ؟ قال : أنا لك الكفيل ، وأكتب لك على الله تبارك وتعالى كتابًا ، فإذا أتيته تقاضيته بما في كتابك ، وفي لك ، فإنّه قادر قاهر يوفيّك ويزيدك . ففكّر المَلك في ذلك ، فأراد الله به الخير ، فقال له : اكتب لي على الله عزّ وجلّ كتاب فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب كتبه فلان الكفيل على الله تعالى لكنعان الملك ثقة منه بالله تبارك وتعالى ، إنّ الله لا يضيع أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ، ولكنعان على الله عزّ وجلّ بكفالة فلان ، إن تاب ورجع وعبد الله، أن يدخله الجنّة ويبوّئه منها حيث يشاء ، وإنّ له على الله ما لأوليائه ، وأن يجيره من عذابه ؛ فإنّه رحيم بالمؤمنين ، واسع الرحمة ، سبقت رحمته غضبه . ثمّ ختم الكتاب ودفعه إليه . ثمّ قال له : أرشدني كيف أصنع . قال : قم فاغتسل والبس ثيابًا جددًا ، ففعل . ثمّ أمره أن يتشهّد بشهادة الحقّ ، وأن يبرأ من الشرك ، ففعل . ثمّ قال له : كيف أعبد ربّي ؟ فعلّمه الشرائع والصلاة . فقال له : يا ذا الكفل ! استر هذا الأمر ولا تظهره حتّى ألحق بالنسّاك . قال : فخلع المُلك وخرج سرًّا ، فلحق بالنُسّاك فجعل يسيح في الأرض . وفقده أهل مملكته فطلبوه . فلمّا لم يقدروا عليه قالوا : اطلبوا ذا الكفل ، فإنه الذي غر إلهنا قال . فذهب قوم في طلب الملك ، وتوارى ذو الكفل . فقدروا على الملك على مسيرة شهر من بلادهم . فلمّا نظروا إليه قائمًا يصلّي خروا له سجّدًا . فانصرف إليهم ، فقال : اسجدوا لله ولا تسجدوا لأحد من الخلق ؛ فإنّي آمنت بربّ السماوات والأرض والشمس القمر . فوعظهم وخوّفهم ،قال : فعرض له وجع ، وحضره الموت . فقال لأصحابه : لا تبرحوا فإن هذا آخر عهدي بالدنيا ، فإذا متّ فادفنوني ، وأخرج كتابه فقرأه عليهم حتّى حفظوه وعلموا ما فيه . وقال لهم : هذا كتاب كتبه لي على ربّي عزّ وجلّ ، أستوفي منه ما فيه ، فادفنوا هذا الكتاب معي . فلما مات جهّزوه ، ووضعوا الكتاب على صدره ، ودفنوه .

فبعث الله تبارك وتعالى ملكًا ، فجاء به إلى ذي الكفل ، فقال : يا ذا الكفل !

(١) تغلغل : في الشيء : دخل فيه وراجع المعجم الوجيز (ص / ٤٥٣) .

إنه ربّك قد وفى لكنعان بكفالتك ، وهذا الكتاب الذى كتبته له ، وإن الله عز وجل يقول : هكذا أفعل بأهل طاعتى .

فلمّا أن جاءه الملك بالكتاب ظهر للناس ، فأخذوه . فقالوا له : أنت الذى غررت مَلكنا وخدعته ؟ فقال لهم : لم أغرَّه ولم أخدعه ، ولكن دعوته إلى الله ، وتكفّلت له بالجنّة . وقد مات ملككم اليوم فى ساعة كذا وكذا ودفنه أصحابكم . وهذا الكتاب الذى كنت كتبته له على الله عز وجلْ بالوفاء ، وقد وفَّاه الله عزّ وجل حقّه . وهذا الكتاب تصديق لما أقول لكم . فانتظروا حتّى يرجع أصحابكم .

فحبسوه حتّى قدم أصحابهم فسألوهم ، فقصّوا عليهم القصّة . فقالوا لهم : تعرفون الكتاب الذى دفنتموه معه ؟ قالوا : نعم ، فأخرجوه إليهم ، فقرؤوه ، فقالوا: هذا الكتاب الذى كان معه ، ودفنّاه فى يوم كذا وكذا . فنظروا وحسبوا ، فإذا ذو الكفل كان قد قرأ عليهم الكتاب وأعلمهم بموت الملك فى اليوم الذى مات فيه . فآمنوا به واتّبعوه فبلغ من آمن به مائةَ ألف وأربعةٌ وعشرين ألفًا . وتكفّل لهم مثل الذى تكفّل لملكهم على الله عزّ وجلّ ، فسمّاه الله : ذا الكفل .

* * *

ذكر التوابين من الأمم

٢٠ - (توبة قوم موسى عليه السلام)

وبه عن إسحاق بن بشر ، عن سعيد ، عن قتادة عن الحسن ، قال : أقبل موسى عليه السلام يسأل ربّه عزّ وجلّ أن يتوب على قومه من عبادة العجل . فقال : يا موسى ! لا توبة لهم إلاّ أن يقتلوا أنفسهم . فرجع موسى عليه السلام إلى قومه ، فقال : يا قوم ! إنّ الله أبى أن يقبل منكم توبتكم إلاّ أن تقتلوا أنفسكم ، فتلك توبتكم ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ ﴾ (البقرة : ٥٤) - يعنى خالقكم . قالوا : يا موسى ! نَصبر لأمر الله عَزّ وجلّ . وندم القوم على ما صنعوا . فأخذ موسى عليه السلام منهم الميثاق ليصبرنّ للقتل والقضاء . فقالوا نعم . فأصبحوا غدوة بأفنية البيوت ، كل بنى أبٍ على حيالهم . فأمر موسى الذين لم يكونوا عبدوا العجل من بنى إسرائيل أن يأخذوا السيوف فيقتلوا من لقُوا . فَمَشَوْا فى العسكر ، فقالوا : رحم الله من لم يحلّ حبوته ، ولم يرفع بصره ، ولم يمتنع بيده ولا رجله ، ولم يقم من مجلسه حتّى يقضى الله قضاءه .

قال : فقتلوا حتّى إن كان الرجل من بنى إسرائيل ليأتى قومه وهم بأفنية بيوتهم جلوس ، فيقول : إنّ هؤلاء إخوانكم أتوكم شاهرين السيوف ، فاتّقوا الله واصبروا، فإنّ لعنة الله وملائكته على رجل حلّ حبوته ، أو قام من مجلسه ، أو حدّد إليهم طرفه ، أو اتّقاهم بيد أو رِجلَ ، فيقولون : امين ·

وعن ابن عبّاس ، قال : قال القوم حين أمروا أن يقتل بعضهم بعضًا : يا رسول الله : كيف نقتل الآباء والأبناء والإخوة ؟ قال : فأنزل الله عليهم ظلمة لا يرى بعضهم بعضًا فقتلوهم · فقالوا : يا موسى ! ما آية توبتنا ؟ قال : أن تقوم السيوف والسلاح فلا تقتل وتُرفَع عنكم الظلمة · قال : فقتلوا حتّى بلغت الدماء المئزر وخاضوا فيها · وصاح الصبيان إلى موسى يقولون : يا موسى ! العَفْوَ ! وبكى موسى إلى الله عزّ وجلّ ، فأنزل الله عزّ وجلّ الرحمة وقام السلاح · ونادى موسى أن ارفعوا عن إخوانكم فقد نزلت الرحمة وارتفعت عنهم الظلمة فتكشّفت عن القتلى· قال ابن عبّاس : فقتلاهم شهداء وأحياؤهم مغفور لهم (١) ·

* * *

٢١ - توبة قوم يونس عليه السلام

قال إسحاق : وأخبرنا جويبر ومقاتل عن الضحّاك عن ابن عبّاس قال : لمّا أيس يونس عليه السلام من إيمان قومه دعا ربّه عليهم فقال : يا ربِّ ! إنّ قومى أبوا إلاّ الكفر فأنزل عليهم نقِمتك · فأوحى الله عزّ وجلّ إليه : إنّى أنزل بقومك العذاب · قال : فخرج عنهم يونس وأوعدهم العذاب بعد ثلاثة أيام · وأخرج أهله ومعه ابناه صغيران ، فانطلق حتّى خرج عنهم · فَصَعِدَ جبلاً ينظر إلى أهل « نينوى » ويترقّب العذاب · وبعث الله عزّ وجلّ جبريل ، فقال : انطلق إلي مالك خازن النار فقل له يخرج من سموم جهنّم على قدر مثقال شعيرة ، ثمّ انطلق به فأحِطْ به أهل مدينة « نينوى » (٢) · قال : فانطلق جبريل ففعل ما أمره ربّه عزّ وجلّ · وعاين قوم يونس العذاب لما هبط للوقت الذى وقّت لهم يونس ·

قال أبو الجَلْد : إنّ العذاب لمّا هبط علي قوم يونس فجعل يحوم على رؤوسهم مثل قطع الليل المظلم · قال ابن عباس : فلمّا استيقنوا بالعذاب سقط فى أيديهم

---

(١)وروى بنحوه النسائى وابن أبى حاتم وابن جرير · وقال ابن كثير : رواه ابن جرير بإسناد جيد وأنظر التفسير (١ / ٩٢) ·

(٢) وقال ذلك أهل التفسير · وأنظر « قصص الأنبياء » (ص / ٢٥٥) لابن كثير · رحمه الله تعالى ·

وعلموا أنّ يونس قد صدقهم ، فطلبوه فلم يقدروا عليه · فقالوا : لنجتمع إلى الله ونتوب إليه ·

قال : فخرجوا إلى موضع يُقال له : تلّ الرماد ، وتلّ التوبة وإنّما سُمّى : تلّ الرماد ، لأنهم خرجوا جميعًا الرجال والنساء والعواتق ، وأخرجوا معهم أنعامهم وبهائمهم ، فميّزوا بين المواضع وأولادها ، والبهائم وأولادها ، وجعلوا الرماد على رؤوسهم ، ووضعوا الشوك من تحت أرجلهم ، ولبسوا المسوح والصوف ، ثمّ استجاروا بالله ورفعوا أصواتهم بالبكاء والدعاء · فعلم الله عزّ وجلّ منهم الصدق ·

فقالت الملائكة : يا ربّ ! رحمتك وسعت كلّ شيء ، فهؤلاء الأكابر من ولد آدم تعذّبهم ، فما بال الأصاغر والبهائم ؟ فقال الله عزّ وجلّ : يا جبريل ! ارفع عنهم العذاب ، فقد قبلت توبتهم · يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إيمَانُها إلاَّ قَوْمَ يُونُس لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عنْهُمْ عذَاب الخِزْيِ فى الْحَيَاة الدُّنْيا وَمَتَّعْناهُم إلى حِينٍ ﴾ (يونس : ٩٨) (١) .

أخبرنا على بن عساكر ، أنا أبو طالب ، أنا أبو علىّ التميمى ، أنا أبو بكر القطيعىّ ، ثنا عبد الله بن أحمد ، ثنا أبى ، ثنا هشيم ، ثنا صالح ، عن أبى عمران الجونىّ ، عن أبى الجَلْد ، قال :

إنّ العذاب لمّا هبط على قوم يونس فجعل يحوم على رؤوسهم مثل قطع الليل المظلم ، فمشى ذوو العقول منهم إلى شيخ من بقية علمائهم ، فقالوا : إنّا قد نزل

---

(١) فى قصة يونس بعض الأمور التى يجب توضيحها · الأول : سبب غضبه على قولين : الأول بسبب قومه وعدم إستجابتهم · الثانى : مغاضبة كانت قبل الرسالة وكانت للملك « حزقيل » · والذى يرجح القول الأول : أن أئمة التفسير كالحسن وابن جبير قالوا أن المقصود من « مغاضبًا » لله تعالى فإنه يتبين تأويله على أن تكون اللام للتعليل فيرجع للمعنى الأول · وقال الحافظ ابن كثير : ذهب مغاضبًا بسبب قومه · الثانى : إختلف المفسرون ، هل كشف عنهم العذاب الأخروى مع الدنيوى على قولين : يقول الحافظ ابن كثير : الأظهر من السياق : نعم والله أعلم كما قال تعالى « لما آمنوا » وقال « وأرسلناه إلى مائة ألف ٠٠ » وهذا المتاع إلى حين لا ينفى أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخروى ٠٠ والله أعلم · وأنظر « قصص الأنبياء » (ص / ٢٥٥) لابن كثير ، و(ص / ٣٥٤) لعبد الوهاب النجار ·

بنا ما ترى ، فعلّمنا دعاء ندعو به ، عسى الله أن يرفع عنا العقوبة فقال : قولوا : يا حيّ حين لا حيّ ، ويا حيّ محيي الموتى ، ويا حيّ لا إله إلا أنت ! قال : فكشف الله عزّ وجلّ عنهم (١) .

وعن الحسن أنَّ يونس عليه السلام بعد ما أنجاه الله من بطن الحوت (٢) رجع فمرَّ براعٍ من رعاة قومه وهو فى بريّة يرعى غنمًا ، فقال يونس للراعى : من أنت يا عبد الله ؟ قال : أنا من قوم يونس بن متّى · قال يونس : فما فعل يونس ؟ قال : لا ندرى ما حاله ، غير أنَّه كان خير الناس وأصدق الناس ، أخبرنا عن العذاب ، فجاءنا على ما قال ، فتبنا إلى الله فرحمنا ، فنحن نطلب يونس ولا ندرى أين هو ولا نسمع له بذكر ·

قال يونس : هل عندك من لبن ؟ قال : لا ، والذى أكرم يونس ما مطرت السماء ولا أعشبت الأرض منذ فارقنا يونس · قال : ألا أراكم تحلفون بإله يونس ؟ قال : لا نحلف بغير إله يونس ، من فعل فى مدينتنا فحلف بغير إله يونس نُزِع لسانه من قفاه · فقال له يونس : متى استحدثتم هذا ؟ قال : لما كشف الله عنَّا العذاب · قال يونس : ائتنى بنعجة · قال : فأتاه بنعجة مسلوبة ، فمسح يده على بطنها ، ثمّ قال لها : درِّى بإذن الله · فدرّت ، فاحتلبها يونس ، فشرب يونس والراعى · فقال الراعى : إن كان يونس حيًّا فأنت هو ! قال : أنا يونس ، فأت قومك فأقرئهم منِّى السلام · قال : إنَّ الملك قال : من أتانى فأعلمنى أنَّه رأى يونس ، وجاءنى ذلك ببرهان ، خلعت له ملكى وجعلته مكانى ولحقت بيونس · فلا أستطيع (أن) أبلغه ذلك إلاَّ بحجَّة ، فإنى أخاف أن يُقال لى : إنَّما قلت هذا لقول الملك وطمعت فى ملكه وكذبت فى أعينهم من ذلك أن أجيئهم بما يكذّبونى ويقتلونى · قال يونس : تشهد لك الشاة التى شربنا منها لبنًا ، وهو مستند إلى صخرة ، فقال للصخرة : اشهدى له ·

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى الزهد (ص / ٣٤) ·

(٢) واختلفوا : هل كان إرساله إليهم قبل الحوت أو بعده ؟؟ أوهما أمتان ؟؟ على ثلاثة أقاويل ، ويرى القاضى عياض حيث قال : وقد روى ابن عباس أن إرساله إنما كان بعد أن نبذه الحوت لقوله « وأرسلناه · · » · وانظر « الشفاء » (٢ / ٩٧) للقاضى عياض · وفى تفسير الطبرى (٢٣ / ٦٦ - ٦٧) ·

قال ابن سمعان : إنّ يونس قال للراعى : انطلق إلى قومك فبلِّغهم عنِّى السلام وأخبرهم أنَّك قد رأيتنى . قال : فانطلق الراعى فأخبرهم ، فكذَّبوه . فلمّا شهدت الصخرة والشاة ، اجتمعوا فبكوا على ذكر يونس ولم يروه ، وقالوا للراعى : أنت خيرنا وسيِّدنا حين رأيت يونس .

فملَّكوه عليهم ، وقالوا : لا ينبغى أن يكون فينا أحد أرفع منك ، ولا نعصى لك أمرًا بعدما رأيت يونس رسول الله . فكان ذلك آخر العهد بيونس . قال : وملكهم الراعى أربعين سنة .

* * *

٢٢ - (توبة قوم نبى من الأنبياء)

أخبرنا عبد الرحمن بن جامع الفقيه ، أنا أحمد بن أحمد المتوكِّلى ، أنا أبو بكر الخطيب ، أنا محمّد بن موسى بن الفضل ، أنا محمَّد بن عبد الله الصفَّار ، أنا ابن أبى الدنيا ، أنا سعيد بن سنان الحمصى ، قال :

أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى نبىّ من الأنبياء : إنَّ العذاب حائق بقومك . قال : فذكر ذلك النبىُّ لقومه وأمرهم أن يُخرِجوا أفاضلهم فيتوبوا . قال : فخرجوا ، فأمرهم أن يُخرجوا ثلاثة من أفاضلهم وفدًا إلى الله تعالى . قال : فخرجت الثلاثة أمام القوم . قال : فقال أحد الثلاثة : اللّهمَّ إنَّك أمرتنا فى التوراة التى أنزلت على عبدك موسى أن لا تردَّ السؤَّال إذا قاموا بأبوابنا ، وإنا سؤَّال من سؤَّالك قمنا بباب من أبوابك فلا تردَّ سؤَّالك . وقال الثانى : اللّهمَّ ! إنك أمرتنا فى التوراة التى أنزلت على عبدك موسى أن نعفوَ عمن ظَلَمنا ، وإنا ظلمنا أنفسنا فاعفُ عنا . وقال الثالث: اللّهمّ ! إنك أمرتنا فى التوراة التى أنزلت على عبدك موسى أن نعتق أرقاءنا ، وإنا عبيدك وأرقاؤك فأوجب لنا عتقنا . فأوحى الله إلى نبيه أنه قد قبل منهم وعفا عنهم .

* * *

ذكر التوابين من آحاد الأمم الماضية

٢٣ - (توبة أصحاب الغار)

أخبرنا أبو الحسين عبد الحقّ بن عبد الخالق اليوسفى ، أنا ابو الحسن ابن العلاف ، أنا أبو القاسم بن بشران ، أنا أبو العباس أحمد ابن إبراهيم ابن على

الكندى ، أنا أبو بكر محمّد بن جعفر السامرّى ، ثنا نصر بن داود بن مهران ، ثنا داود بن عبد الرحمن العطار عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ :

بينما ثلاثة نفر [١] يمشون إذا أخذهم المطر ، فأووْا [٢] إلى غار فى جبل فانحطت عليهم فى غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم باب الغار ٠ فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالا عملتموها صالحة فادعوه بها ٠ فدَعَوُا الله عزّ وجلّ ، فقال بعضهم : اللّهمّ إنه كان لى أبوان شيخان كبيران وامرأة وصبيان ، فكنت أرعى عليهم ٠ فإذا رحت إليهم حلبت فبدأت بوالدىّ أسقيهما قبل بنىّ ٠ وإنه نأى بى طلب الشجر فلم آت حتّى أمسيت فوجدتهما قد ناما ٠ فحلبت كما كنت أحلب ، فجئت فقمت عند رؤوسهما أكره أن أُوقظهما وأكْرَهُ أن أبدأ بالصبية قبلهما ٠ فجعلوا يتضاغون عند قدمىّ ٠ فلم أزل كذلك دأبى ودأبهم حتّى طلع الفجر ٠ فإن كنت تعلم أنّى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافْرُج عنّا فُرَجةً نرى منها السماء ، ففَرَج الله عزّ وجلّ لهم فرجة ٠

وقال الآخر : اللّهم ! إنه كانت لى ابنة عمّ فأحببتها كأشدّ ما يحب الرجل النساء ٠ فطلبت اليها نفسها فأبت علىّ حتّى آتيها بمائة دينار ٠ فسعيت حتّى جمعت مائة دينار فجئتها بها ٠ فلمّا قعدت بين رجليها ، قالت : يا عبد الله ! اتق الله ولا تفض الخاتم إلاّ بحقه [٣] ٠ فقمت عنها [٤] ٠

فإن كنتَ تعلم أنى فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك فافرج لنا فرْجَةً نرى منها السماء ! ففرج الله لهم فرجة ٠

وقال الآخر [٥] : اللّهم ! إنى استأجرت أجيراً ، فلمّا قضى عمله قال : أعطنى حقّى ٠ فعرضته عليه فتركه ورغب عنه ، فثمّرته [٦] حتى أشتريت به بقراً ورعاءها ٠

---

(١) وعند البخارى بلفظ « إنطلق ثلاثة رهط ممن ٠ ٠ » ٠

(٢) أوَى المكان وإليه : عادَ أو لجأ ٠ والمعنى يشير إلى لجأ هنا ، وراجع المعجم الوجيز (ص / ٣٠) ٠

(٣) وفى لفظ عند البخارى « قالت : لا أُحل لك أن تفض ٠ ٠ » ٠ ومعناه : أى لا تفض البكارة ، لأن الخاتم له عدة معانى منها : البكارة ٠ وراجع المعجم الوجيز (ص / ١٨٦) والحق : الزواج أى فى الحلال ٠ والله تعالىٰ أعلم ٠

(٤) وفى لفظ عند البخارى « فتحرجت من الوقوع عليها ، فانصَرفْتُ ٠ ٠ » ٠

(٥) وفى لفظ البخارى « وقال الثالث ٠ ٠ ٠ » ٠

(٦) ثمرَ المال : أى نماه وزاده ٠ وراجع المعجم الوجيز (ص / ٨٧) ٠

فجاءنى بعد حين ، فقال : اتق الله ولا تظلمنى حقى ، فقلت : انطلق فخذ تلك ورعاءها ، فقال : اتق الله ولا تستهزئ بى . فقلت : إنى لا أستهزىء بك . فخذ تلك البقر ورعاءها . فأخذها وذهب . فإن كنت تعلم أنِّى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقي . ففرجها الله عنهم [1] .

* * *

٢٤ - (توبة الكفل)

قال محمَّد بن جعفر : وأخبرنا عبد الرزَّاق بن منصور الضرير ، ثنا أسباط [2] بن محمَّد عن الأعمش عن عبد الله بن عبد الله [3] عن سعد مولى طلحة عن ابن عمر قال : لقد سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا [4] ، قال :

كان الكفل من بنى إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله . فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها . فلمَّا قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت (٥) وبكت . فقال لها [6] : ما يبكيك ؟ أكرهتك [7] قالت : لا ، ولكن هذا عمل [8] لم أعمله قطُّ . قال : فلم تفعلين هذا ولم تكونى فعلتيه قطُّ ؟ قالت : حملتنى عليه الحاجة .

قال : فتركها ، ثمَّ قال : اذهبى والدنانير . ثمّ قال : والله لا يعصى

---

(١) الحديث صحيح : رواه البخارى - فتح - كتاب الإجارة . باب من استأجر اجيرًا فترك أجرة (٤ / ٤٤٩ - ٤٥٠) . وفى كتاب البيوع ، وحديث الأنبياء ، كما أخرجه مسلم فى صحيحه - باب قصة أصحاب الغار . . . (٢٧٤٣) .

(٢) السِّبْطُ : ولد الابن والابنة والسبط هنا اليهود : كالقبيلة من العرب والجمع أسْبَاط . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٣٠١)

(٣) وعند الترمذى : عن عبد الله بن عبد الله الرازى . السنن (٤ / ٢٢٣) .

(٤) وعند الترمذى : سمعت النبى ﷺ يُحدث لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عدَّ سبع مرات ، ولكنى سمعتُهُ أكثر من ذلك . أنظر السنن (٤ / ٢٢٣) .

(٥) وعند الترمذى بلفظ : أُرْعِدَتْ . أنظر السنن (٤ / ٢٢٣) .

(٦) ولها : ساقطة عند الترمذى ، أنظر السنن (٤ / ٢٢٣) .

(٧) وعند الترمذى بلفظ « أأكرَهتُكِ » .

(٨) يوجد بعض التغير عن لفظ الترمذى وراجع السنن (٤ / ٢٢٣) .

الله الكفل أبدًا . فمـــات من ليلتـــه ، فأصبح مكتــوبًا على بابه : غفر الله للكفل (١) .

* * *

٢٥ - (توبة العابد والمرأة البغى)

أنبأنا الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن على الإمام (٢) أنا عبد الملك ابن أبى القاسم قال : أنا محمد بن على بن عمير ، أنا محمد بن محمد بن عبد الله الفامىّ ، أنا محمد بن أحمد المروانى ، قال : حدَّثنى محمد بن المنذرُ شكر ، قال : حدَّثنى الفضل بن عبد الجبار الباهلى ، أنا إبراهيم بن الأشعث ، ثنا معتمر بن سليمان ، عن أبى كعب صاحب الحرير عن الحسن ، قال :

كانت امرأة بَغِى ، لها ثلث الحسن ، لا تمكن من نفسها إلاّ بمائة دينار . وإنّه أبصرها عابد فأعجبتْه . فذهب فعمل بيديه وعالج فجمع مائة دينار . ثمّ جاء إليها ، فقال : إنّك أعجبتنى فانطلقتُ فَعَمِلْتُ بيدىَّ ، وعالجتُ حتّى جمعتُ مائة دينار . فقالت له : ادخل . فدخل ، وكان لها سرير من ذهب ، فجلست على سريرها ، ثمْ قالت له : هلم . فلمّا جلس منها مجلس الخاتن ذكر مقامه بين يدى الله ، فأخذته رِعْدة . فقال لها : اتركينى أخرج ولك المائة دينار . قالت : ما بدا لكَ وقد زعمتَ

---

(١) الحديث ضعيف : رواه أحمد فى « المسند » (٢ / ٤٧٤٧) وابن حبان فى « صحيحه » (٢ / ٣٨٧) ، والترمذى فى السنن (٤ / ٢٢٣) كتاب صفة القيامة (٣٨) باب (٤٨) « ح » (٢٥٠٤) وقال : هذا حديث حسن . قد رواه شَيْبَان وغير واحد عن الأعمش نحو هذا ورَفَعُوهُ ، وَرَوَاهُ بعضُهم عن الأعمش فلم يرفعه ورَوَى أبُو بكر بن عياش هذا الحديث عن الأعمش فَأخطَأَ فيه ، وقال عن عبد الله بن عبد الله عنِ سعيد بن جبير عن ابن عمرو ، وهو غير محفوظ . وعبدُ الله بن عبد الله الرَّازِىُّ هو كُوفِيٌّ وكانت جدته سُرِّيه لعلى بن أبى طالب ، وروى عن عبد الله بن عبد الله الرازى عُبيدةُ الضِّبِّىُّ والحجَّاجُ بن أَرْطأة وغير واحد من كبار أهل العلم . ورواه الحاكم وصححه . وضعفه الألبانى وراجع ضعيف الجامع برقم (٤١٥٠) ، وفى الضعيفة (٤٠٨٣) .

(٢) وهو أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن عبد الرحمن البكرى الصديقى الحنبلى . المشهور بابن الجوزى . أنظر ترجمته فى : البداية والنهاية (١٣ / ٢٨) وطبقـــات الحفـــاظ (ص ٤٨٠) وشذرات الذهب (٤ / ٣٢٩) وتذكرة الحفاظ (٤ / ١٣٤٢) وطبقات المفســرين (١٧) للسيوطى .

أنّك رأيتنى فأعجبتُك فذهبتَ فعالجتَ وكددتَ حتّى جمعت مائة دينار ، فلمّا قدرت علىّ فعلتَ الذى فعلتَ ؟ فقال فرَقًا من الله ومن مقامى بين يديه ، وقد بغضت إلى، فأنتِ أبغضُ الناس إلىّ · فقالت : إن كنتَ صادقًا فما لى زوج غيرك · فقال : دَعينى أخرج · فقالت : لا ، إلاّ أن تجعل لى أن تتزوج بى ، قال : لا ، حتّى أخرج · قالت : فلى عليك إن أنا أتيتك أن تتزوّجنى ؟ قال : لعلّ · فتقنّع بثوبه ، ثمّ خرج إلى بلده · وارتحلتْ تائبةً نادمةً على ما كان منها حتّى قدمتْ بلدَه · فسألت عن اسمه ومنزله ، فدلُتْ عليه · فقيل له : إنّ المَلكةَ قد جاءتك · فلمّا رآها شهق شهقة فمات وسقط فى يدها · وقالت : أمّا هذا فقد فاتنى ، فهل له من قريب ؟ قالوا : أخوه رجل فقير · قالت : فإنّى أتزوجه حبًّا لأخيه · فتزوّجته ، فنَشرَ الله منهما سبعة أنبياء ·

* * *

٢٦ - (توبة القصاب والجارية)

أخبرنا الفقيه أبو محمدّ عبد الرحمن بن جامع بن غنيمة بن البنّا ، حدثنا أبو السعادات أحمد بن أحمد المتوكّلى ، أنا أبو بكر الخطيب ، أنا أبو سعيد محمّد بن موسى بن الفضل ، أنا أبو عبد الله محمدّ بن عبد الله الصفّار ، أنا أبو بكر بن أبى الدنيا ، ثنا الحسن بن الصباح ، ثنا زيد ابن الحباب ، ثنا محمّد بن نشيط الهلالى ، ثنا بكر بن عبد الله المزنّى ·

أنّ قصّابًا ولُع بجارية لبعض جيرانه · فأرسلها أهلها فى حاجة لهم إلى قرية أخرى · فتبعها ، فراودَها عن نفسها · فقالت : لا تفعل ! لأنا أشدّ حبًّا لك منك لى، ولكنّى أخاف الله · قال : فأنت تخافينه وأنا لا أخافه ؟! فرجع تائبًا ، فأصابه العطش حتّى كاد ينقطع عنقه · فإذا هو برسول لبعض أنبياء بنى إسرائيل ، فسأله ، قال : ما لك ؟ قال : العطش · قال : تعالَ حتّى ندعوَ الله حتّى تظلّنا سحابة حتّى ندخلَ القرية · قال : ما لى من عمل · قال : فأنا أدعو وأَمِّنْ أنتَ · قال : فدعا الرسول ، وأمَّنَ هو · فأظلّتْهم سحابةٌ حتّى انتهَوا إلى القرية ، فأخذ القصّاب إلى مكانه ، ومالت السحابة فمالت عليه · فرجع الرسول ، فقال : زعمت أنْ ليس لك عمل ، وأنا الذى دعوتُ وأنتَ الذى أمّنتَ ، فأظلّتْنا سحابة ثمّ تبعتْك ، لَتُخبِرنّى ما أمرك · فأخبره ، فقال الرسول : التائب إلي الله بمكان ليس أحد من الناس بمكانه ·

* * *

٢٧ - (توبة صاحب الرغيف)

أخبرنا أبو الفتح محمّد بن عبد الباقى بن أحمد بن سلمان ، أنا أبو الفضل أحمد بن أحمد ، ثنا أبو نعيم الحافظ ، ثنا عبد الله بن محمد بن شبل ، ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، ثنا معتمر بن سليمان ، عن أبيه ، ثنا أبو عثمان ، عن أبى بردة ، قال:

لما حضرت أبا موسى الوفاة ، قال : يا بَنىّ ! اذكروا صاحب الرغيف ، كان رجل يتعبد فى صومعة أراهُ سبعين سنة لا ينزل إلاّ فى يوم واحد · قال : فشبّه أو شب الشيطان فى عينه امرأة ، فكان معها سبعة أيام أو سبع ليالٍ ، ثم كُشف عن الرجال غطاؤه ، فخرج تائبًا · وكان كلما خطا خطوة صلى وسجدَ · فآواه الليل إلي دكان عليه اثنا عشر مسكينًا · فأدركه العياء ، فرمى بنفسه بين رجلين منهم · وكان ثَمّ راهبٌ يبعث إليهم كلّ ليلة أرغفة فيعطى كلّ إنسان رغيفًا · فجاء صاحب الرغيف ، فأعطى كلّ إنسان رغيفًا ، ومنّ على ذلك الرجل الذى خرج تائبًا فظنّ أنّه مسكين فأعطاه رغيفًا ، فقال له المتروك : مالك لم تعطنى رغيفى ؟ فقال : ترانى أمسكتُ عنك ؟ سلْ هل أعطيتُ أحدًا منكم رغيفين ؟ قالوا : لا · فقال : والله لا أعطيك الليلة شيئًا ! فعمد التائب إلى الرغيف الذى دفعه إليه فدفعه إلى الرجل الذى تُرك ، فأصبح التائبُ ميتًا ، قال : فوزُنت السبعون بالسبع ليالٍ فرجحت الليالى · فوزُن الرغيف بالسبع ليالٍ فرجح الرغيف · فقال أبو موسى : يا بَنىّ ! اذكروا صاحب الرغيف ·

* * *

٢٨ - (توبة راهب من بنى اسرائيل)

أخبرنا أبو الحسن علىّ بن عساكر البطائحىّ ، أنا الأمين أبو طالب اليوسفىّ ، أنا ابن المذهب ، أنا القطيعىّ ، ثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنى أبى ، ثنا أبو معاوية ، ثنا الأعمش ، عن أبى سفيان ، عن مغيث ابنُ سمىّ ، قال :

تعبد راهب من بنى إسرائيل فى صومعة ستين سنة ، فنظر يومًا فى غبّ سماء، فأعجبته الأرض · فقال : لو نزلتُ فمشيتُ فى الأرض ونظرتُ فيها · قال : فنزّل معه برغيف · فعرضت له امرأة فتكشفت له ، فلم يملك نفسه أن وقع عليها · فأدركه الموت على تلك الحال · قال : وجاء سائل فأعطاه الرغيف ومات · قال :

فجيء بعمل ستين سنة فوُضع فى كفة . قال : وجىء بخطيئته فوُضعت فى كفة فرجحت بعمله . قال : وجىء بالرغيف فوُضع مع عمله فرجح بخطيئته .

* * *

٢٩ - (توبة عابد من العبدة)

أخبرنا محمد بن عبد الباقى ، أنا أبو الحسن علىّ بن محمد بن محمد بن محمد الخطيب الأنبارىّ ، أنا أبو الحسين بن بشران ، أنا أبو علىّ بن صفوان ، أنا ابن أبى الدنيا، ثنا المثنى بن معاذ العنبرىّ، ثنا أبى عن شعبة، عن منصور، عن إبراهيم :

أنّ رجلاً من العُباد كلّم امرأة ، فلم يزل حتى وضع يدَهُ على فخذها . فذهب فوضع يده فى النار حتى نشت [١] .

* * *

٣٠ - (توبة ذى الرّجْل)

أخبرنا محمد ، أنا علىّ بن محمد ، أنا علَى بن محمد بن عبد الله بن بشران أنا الحسين بن صفوان ، أنا عبد الله بن محمد ، حدّثنى محمد بن الحسين ، عن موسى بن داود ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه ، قال :

كان فى بنى إسرائيل رجلٌ يتعبد فى صومعته ، فمكث بذلك زمانًا طويلاً . فأشرف يومًا ، فإذا هو بامرأة فافْتُتِنَ بها وهمّ بها . فأخرج رجْله لينزل إليها ، فأدركه الله بسابقة . فقال : ما هذا الّذى أريدُ أن أصنع ؟ ورجعتّ إليه نفسه وجاءتْه العصمة، فندم . فلما أراد أن يعيد رجْله فى صومعته ، قال : هيهات ! هيهات ! رجلٌ خرجت تريد أن تعصىَ الله تعود معى فى صومعتى ؟ لا يكون والله ذلك أبدًا ! فتركها والله معلقة من الصومعة تصيبها الرياح والأمطار والشمس والثلج حتى تقطعت فسقطت . فشكر اللهُ عزّ وجلّ له ، فأنزل فى بعض الكتب : « وذو الرِّجل » ، يذكره بذلك .

* * *

---

(١) وعندنا التعذيب بالنار لا يجوز شرعًا لقوله ﷺ « وإن النار لا يعذب بها إلا الله . . » رواه البخارى (٦ / ١٠٤ - ١٠٥) وقوله ﷺ « إنه لا ينبغى أن يعذب بالنار إلا رب النار » رواه أحمد (١ / ٤٠٤) وأبو داود (٣ / ١٢٥ - ١٢٦) « ح ! (٢٦٧٥) والبغوى (٢٦٦٧) والحاكم (٤ / ٢٣٩) وصحة ووافقه الذهبى .

٣١ - (توبة برخ العابد)

وذكر ابن البراء فى « الروضة » : أنبأنا الفضل بن حازم ، حدّثنى يوسف بن عزولا ، حدّثنى مخلد بن ربيعة الربعىّ ، عن كعب ، قال :

قحطت بنو إسرائيل على عهد موسى عليه السلام فسألوه أن يستسقى لهم . فقال : اخرجوا معي إلى الجبل ، فخرجوا ، فلما صَعَدَ الجبل قال موسى : لا يتبعنى رجل أصاب ذنبًا . فانصرف أكثر من نصفهم . ثمّ قال الثانية : لا يتبعنى من أصاب ذنبًا ، فانصرفوا جميعًا إلاّ رجـلاً واحدًا أعور يقال له : برْخٌ العابد . فقال له موسى : ألم تسمع ما قلت ؟ قال : بلى . قال : فلم تصب ذنبًا ؟ قال : ما أعلمه إلاّ شيئًا أذكره ، فإن كان ذنبًا رجعتُ . قال : ما هو ؟ قال : مررت فى طريق ، فإذا باب حجرة مفتوح ، فلمحتُ بعينىً هذه الذاهبة شخصًا لا أعلم ما هو . فقلت لعينى : أنت من بين بدنى سارعت إلى الخطيئة ، لا تصحبينى بعدها ! فأدخلت أصبعى فقلعتها ، فإن كان هذا ذنبًا رجعتُ . فقال موسى : ليس هذا ذنبًا . قال له : استسق يا برخ ، فقال : قدّوس ! قدّوس ! ما عندك لا ينفد ، وخزائنك لا تفنى ، وأنت بالبخل لا تُرمَى ، فما هذا الذى لا تُعرَف به ؟ اسقِنا الغيث الساعةَ الساعةَ . قال : فانصرفا يخوضان الوحل .

* * *

٣٢ - (توبة العبد العاصى)

رُوى أنّه لحق بنى إسرائيل قحط على عهد موسى عليه السلام فاجتمع الناس إليه ، فقالوا : يا كليم الله ! ادعُ لنا ربّكَ أن يسقينَا الغيث ، فقام معهم ، وخرجوا إلى الصحراء وهم سبعون ألفًا أو يزيد . فقال موسى عليه السلام : إلهى ! اسقنا غيثَك : وانشُر علينا رحمتَك ، وارحمنا بالأطفال الرُضَّع ، والبهائم الرُتَّع ، والمشايخ الرُكَّع . فما زادت السماء إلاّ تقشّعا ، والشمس إلاّ حرارة . فقال موسى : إلهى إن كان قد خَلَق جاهى عندك ، فبجاه النبىّ الأمىّ محمد ﷺ الذى تبعثه فى آخر الزمان ! فأوحى الله إليه : ما خلقَ جاهُك عندى ، وإنّك عندى وجيه ، ولكن فيكم

عبد يبارزنى منذ أربعين سنة بالمعاصى ، فناد فى الناس حتى يخرج من بين أظهركم ، فبه منَعتُكم . فقال موسى : إلهى وسيدى ! أنا عبد ضعيف ، وصوتى ضعيف ، فأين يبلغ وهم سبعون ألفًا أو يزيدون ؟ فأوحى الله إليه : منك النداء ، ومنى البلاغ . فقام مناديًا وقال : يا أيّها العبد العاصى الذى يبارز الله منذ أربعين سنة ! اخرج من بين أظهرنا ، فبكَ مُنعْنا المطر . فقام العبد العاصى ، فنظر ذات اليمين وذات الشمال ، فلم يرَ أحدًا خرج . فعلم أنه المطلوب ؛ فقال فى نفسه : إنْ أنا خرجتُ من بين هذا الخلق افتضحت على رؤوس بنى إسرائيل ، وإن قعدتُ معهم مُنعوا لأجلى . فأدخل رأسه فى ثيابه نادمًا على فَعاله ، وقال : إلهى وسيدى ! عصَيتُك أربعين سنة وأمهلتنى ، وقد أتيتُك طائعًا فاقبلنى . فلم يستتمّ الكلام حتى ارتفعتْ سحابة بيضاء فأمطرت كأفواه القِرب ، فقال موسى : إلهى وسيدى ! بماذا سقيتنا وما خرج من بين أظهرنا أحد ؟ فقال : يا موسى ! سقيتكم بالذى به منَعتُكم . فقال موسى : إلهى ! أرنى هذا العبد الطائع . فقال : يا موسى ! إنّى لم أفضحه وهو يعصينى ،أأفضحهُ وهو يطيعنى ؟! يا موسى ! إنّى أبغُضُ النمــامين ، أفأكون نمامًا ؟! .

* * *

٣٣ - (توبة شاب مسرف على نفسه)

وعن وهب بن منبِّه ، قال : كان فى زمن موسى عليه السلام شابٌ عاتٍ مُسرف على نفسه ، فأخرجوه من بينهم لسوء فعله . فحضرته الوفاة فى خربة على باب البلد ، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : إنّ وليًّا من أوليائى حضره الموت ، فاحضره وغسِّله وصلِّ عليه ، وقل لمن كثر عصيانه يحضر جنازته لأغفر لهم، واحمله إلىّ لأكرم مثواه فنادى موسى فى بنى إسرائيل ، فكَثُرَ الناس . فلما حضروه عرفوه فقالوا : يا نبىّ الله ! هذا هو الفاسق الذى أخرجناه . فتعجب موسى من ذلك . فأوحى الله إليه : صَدَقُوا وهم شهدائى ، إلاّ أنه لما حضرته الوفاةُ فى هذه الخربة نظر يَمنْةً ويَسْرَةً فلم يرَ حميمًا ولا قريبًا ، ورأى نفسه غريبة وحيدة ذليلة، فرفع بصره إلىّ ، وقال : إلهى ! عبدٌ من عبادك غريب فى بلادكَ ، لو علمتُ أنّ عذابى يزيد فى ملكك ، وعفوك عنى ينقص من ملكك لما سألتك المغفرة ، وليس لى

ملجأ ولا رجاء إلاّ أنت ، وقد سمعتَ فيما أنزلتَ أنك قلتَ : إنى أنا الغَفُور الرَّحيمُ، فلا تُخيِّبْ رجائى . يا موسى ! أفكان يحسن بى أن أردَّه وهو غريب على هذه الصفة ، وقد توسل إلىّ بى وتضرّع بين يدىّ ! وعزّتى ، لو سألنى فى المذنبين من أهل الأرض جميعًا لو هبتهم له لِذُلِّ غربته . يا موسى ! أنا كهف الغريب وحبيبه وطبيبه وراحمه .

* * *

٣٨ - (توبة رجلين من بنى اسرائيل)

أخبرتنا شُهدة ابنة أحمد بن الفرج الابرىّ قالت : أنا أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن طلحة ، أنا أبو الحسن محمد بن عبيد الله الحنائى ، أنا ابن السماك ، أنا أبو القاسم إسحاق بن إبراهيم الخُتَّلى ، أنا علىّ بن مسلَم ، ثنا سيار ، ثنا جعفر ، ثنا مالك بن دينار ، عن معبد الجُهَنّى عن أبى العوَام سادنِ بيت المَقدسِ عن كعب الأحبار ، قال : انطلق رجلان من بنى إسرائيل إلى مسجد من مساجدهم، فدخل أحدهما وجلس الآخر خارجًا ، فجعل يقول : ليس مثلى يدخل بيت الله وقد عصيت الله ، فكُتب صدِّيقًا .

قال : وأصاب رجل من بنى إسرائيل ذنبًا ، فحزن عليه وجعل يجىء ويذهب ويجىء ويقول : بم أرضى ربّى ؟ بم أرضى ربّى ؟ بم أرضى ربّى ؟ فكُتب صدّيقًا .

* * *

٣٥ - (توبة عاص من العصاة)

أخبرنا الشيخ أبو الفرج [١] فيما كتبَ إلىّ به ، أنا عبد الملك بن أبى القاسم ، أنا محمد بن علىّ بن عمير ، أنا محمد بن محمد بن عبد الله القاضى ، ثنا محمد بن أحمد المروانى ، قال : حدّثنى محمد بن المنذر ، أنا الربيع بن سليمان ، أنا عبد الله ابن وهب ، قال : حدّثنى بن زيد ، عن ربيعة بن عثمان التيمىّ ، قال :

كان رجل على معاصى الله تعالى ، ثمّ إنّ الله أراد به خيرًا وتوبة . فقال

---

(١) وقال الذهبى : لا يوصف ابن الجوزى بالحفظ عندنا باعتبار الصنعة ، بل باعتبار كثرة إطلاعه وجمعه ، وتوفى سنة سبع وتسعين وخمسمائة . وراجع المصادر السابقة التى ذكرناها .

لزوجته : إنّى لملتمس شفيعًا إلى الله تعالى . فخرج إلى الصحراء ، فجعل يصيح : يا سماء ! اشفعى لى ، يا جبال ! اشفعى لى ، يا أرض ! اشفعى لى ، يا ملائكة ! اشفعى لى . فأدركه الجهد فخرّ مغشيًا عليه ، فبعث الله إليه ملَكًا ، فأجلسه ومسح رأسه وقال له : أبشر ، فقد قبل الله توبتك ، قال : رحمك الله ! من كان شفيعى إلي الله عزّ وجلّ ؟ قال : خشيتُك شَفَعت لك إلى الله تعالى .

* * *

٣٦ - (توبة الخارج من القربة الظالمة)

أخبرنا أبو القاسم يحيى بن ثابت ، أنا طراد بن محمد الزينبى ، أنا أبو الحسين ابن بشران ، أنا إسماعيل بن محمد الصفار ، ثنا أحمد بن منصور ، أنا عبد الرزّاق، أنا معمَر ، عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص ، عن ابن مسعود ﷺ قال :

كانت قريتان إحداهما صالحة ، والأخرى ظالمة ، فخرج رجل من القرية الظالمة يريد القرية الصالحة ، فأتاه مَلك الموت حيث شاء الله عزّ وجل ، فاختصم فيه الملك والشيطان ، فقال الشيطان : والله ما عصانى قطّ ! فقال المَلك : إنه خرج يريد التوبة! فقُضى بينهما أن يُنظر إلى أيهما هو أقرب ، فوجدوه أقرب إلى القرية الصالحة بشبر ، فغُفر له .

* * *

٣٧ - (توبة من قتل مائة نفس)

أخبرنا أبو بكر بن النقور ، أنا أبو طالب اليوسفىّ ، أنا أبو على بن المذهب ، أنا أبو بكر القطيعىّ ، ثنا عبد الله بن أحمد ، ثنا أبى ، ثنا يزيد ، ثنا همام بن يحيى، ثنا قتادة ، عن أبى الصدّيق الناجىّ ، عن أبى سعيد الخدرى ، قال : لا أحدّثكم إلاّ ما سمعت من رسول الله ﷺ ، سمعتْه أذناىَ ، ووعاه قلبى :

أنّ عبدًا قتل تسعةً وتسعين نفسًا (١) فعرضت له التوبة ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدُلّ على رجل (٢) ، فأتاه فقال : إنى قتلتُ تسعةً وتسعين نفسًا ، فهل لى من توبة ؟ فقال : بعد قتل تسعة وتسعين نفسًا ! قال : فانتضى سيفه فقتله به (٣) ،

---

(١) وفى بعض الروايات بلفظ « إنسانًا » البغوى (٢ / ١٦٥) « ح » (١٦٦٥) .

(٢) وفى لفظ « فأتى راهبًا فسأله . . . » .

(٣) وفى لفظ « فقتله . . . » بدون تعيين كيفية القتل .

فأكمل به المائة . ثمّ عرضت له التوبة ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدُلّ على رجل ، فأتاه فقال : إنى قتلتُ مائة نفس ، فهل لى من توبة ؟ قال : ومن يحولُ بينك وبين التوبة ؟ اخرج من القرية الخبيثة التى أنت فيها إلى القرية الصالحة . (قرية كذا وكذا فاعبد ربك فيها ، قال : فخرج إلى القرية الصالحة) فعرض له أجله فى الطريق . قال : فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب . قال : فقال إبليس: أنا أولى به ، إنه لم يعصنى ساعة قط . قال : فقالت ملائكة الرحمة : إنه خرج تائبًا .

قال همام : فحدّثنى حميد الطويلُ ، عن بكر بن عبد الله المزنى عن أبى رافع، قال: فبعث الله – عز وجل – له ملكًا، فاختصموا إليه. ثم رجع إلى حديث قتادة ، قال : فقال : انظروا إلى أى القريتين كان أقرب إليها فألحقوه بأهلها .

قال قتادة : فحدثنا الحسن أنه لما عرف الموت ، احتفز بنفسه . فقرب الله منه القرية الصالحة ، وباعد منه القرية الصالحة ، وباعد منه القرية الخبيثة ، فألحقوه بأهل القرية الصالحة (1) .

* * *

---

(1) والحديث صحيح : أخرجه البخارى فى الصـــــحيح (٦ / ٥١٢) كتاب الأنبياء (٦٠) باب (٥٤) ، وهو ما يلى : باب حديث الغار (٥٣) « ح » (٣٤٧٠) ، ومسلم فى صحيحه (٤ / ٢١١٩) كتاب التوبة (٤٩) باب قبول توبة القاتل .. (٨) « ح » (٤٧ / ٢٧٦٦) وأحمد فى المسند (٣ / ٢٠) والبغوى (٢ / ١٦٥ – ١٦٦) كتاب الدعوات (٩) . باب الإستغفار والتوبة (٥) «ح» (١٦٦٦) . وفى الرياض برقم (٢٠) (ص / ٢٧) قُلت : فى هذا الحديث عدة عبر وعظات وخاصة بما علق ابن حجر رحمة الله على الحديث – فى الفتح – (٦ / ٣٧٤) .

العبرة الأولى : أن الإنسان حينما يسأل عن معضلة لا يسأل عابد وهذا ظاهر من الحديث بقوله « راهب » أى منقطع للعبادة آناء الليل وأطراف النهار « بل يتجه الإنسان إلى العالم وهذا الحديث يدل على فضل العلم على العبادة مع الجهل .

العبرة الثانية : تجنب رفقة السوء فإن الناس يعيرون ولا يغيرون .

العبرة الثالثة : أن التوبة تقبل من أى ذنب حتى القتل ، الإمام مسلم فى صحيحه باب تحت عنوان « قبول توبة القاتل ... » . وهذا معروف من الكتاب والصحيح من السنة . =

٣٨ - (توبة لص من بنى إسرائيل)

أخبرنا أبو الفتح محمد بن عبد الباقى ، أنا أبو الفضل أحمد بن أحمد الحدّاد ، أنا أحمد بن عبد الله بن إسحاق ، ثنا أبو محمد بن حيان ، ثنا أحمد بن الحسين ، ثنا أحمد بن إبراهيم ، حدثنى محمد بن يزيد بن خنيس ، عن وهيب بن الورد ، قال :

بلغنا أن عيسى عليه السلام مرَّ هو ورجل من بنى إسرائيل من حواريه بلصّ فى قلعة له . فلما رآهما اللصّ ، ألقى الله فى قلبه التوبة . قال : فقال لنفسه : هذا عيسى بن مريم عليه السلام ، روح الله وكلمته وهذا حواريه ، ومن أنت يا شقىّ ؟ لصّ بنى إسرائيل ! قطعتَ الطريق ، وأخذتَ الأموال ، وسفكتَ الدماء ! ثم هبط إليهما تائبًا نادمًا على ما كان منه . فلما لحقهما ، قال لنفسه : تريد أن تمشى معهما ؟ لستَ لذلك بأهل ! امش خلفهما كما يمشى الخطَّاءُ المذنب مثلك !

قال : فالتفت إليه الحوارى فعرفه . فقال فى نفسه : انظر إلى هذا الخبيث الشقىّ ومشيه وراءنا ! قال : فاطلع الله سبحانه وتعالى على ما فى قلوبهما من ندامته وتوبته ومن ازدراء الحوارىّ إياه وتفضيله نفسه عليه . قال : فأوحى الله تعالى إلى عيسى بن مريم أن مرِ الحوارى ولص بنى إسرائيل أن يستأنفا العمل جميعًا ، أما اللص فقد غفرتُ له ما قد مضى لندامته وتوبته ، وأما الحوارى فقد حبط عمله لعجبه بنفسه وازدرائه هذا التوّاب .

* * *

= العبرة الرابعة : أن الملائكة تختلف إجتهاداتهم وأنهم يختصمون فى ذلك حتى يقضى الله عز وجل فيه ومن المعلوم أن الرسول ﷺ اجتهد ولم ينظر لمن يقول بخلاف ذلك . وهو معلوم لمن قرأ السنة والسيرة فمن ذلك قصة الأسرى فى غزوة بدر ، وفى توبة الثلاثة الذين خُلِّفُوا . . . إلخ .

العبرة الخامسة : استصحاب النية قبل أى عمل وجعلها خالصة لله فإنك لا تدرى فربما مت عليها ويقول ﷺ « يُحشر الناس على نياتهم » الحديث رواه ابن ماجة والحاكم وصححه الألبانى وراجع صحيح الجامع برقم (٨٠٤٢) وفى الترغيب (١٢) .

٣٩ - (توبة ثلاث بنات من البغايا وغواة قرية)

أخبرنا المبارك بن على ، أنا أحمد بن الحسين بن قريش ، أنا إبراهيم بن عمر البرمكى ، أنا أبو بكر محمد بن زكريا الدقاق ، ثنا عبد الله بن سليمان ، ثنا عبد الملك بن محمد بن عبد الله ، ثنا ابن عائشة ، ثنا سعيد بن عامر قال : حدثنى حسن أبو جعفر ، قال :

كان لقمان الحبشى عبداً لرجل جاء به إلى السوق يبيعه . قال : فكان كلما جاء إنسان يشتريه قال له لقمان : ما تصنع بى ؟ فيقول : أصنع بك كذا وكذا . قال : حاجتى إليك أن لا تشترينى ، حتى جاء رجل ، فقال : ما تصنع بى ؟ قال : أصيِّرك بوابًا على بابى ، قال : أنت اشترينى . قال : فاشتراه وجاء به إلي داره .

قال : وكان لمولاه ثلاث بنات يبغين فى القرية ، وأراد أن يخرج إلى ضيعة له، فقال له : إنى قد أدخلت إليهن طعامهن وما يحتجن إليه ، فإذا خرجت فاغلق الباب واقعد من ورائه ولا تفتحه حتى أجىء .

قال : فقلن له : افتح الباب ! فأبى عليهنّ ، فشججنه ، فغسل الدم وجلس . فلما قدم سيده لم يخبره . ثم عاد مولاه بعد للخروج ، فقال : إنى قد أدخلت إليهن ما يحتجن إليه ، فلا تفتحنّ الباب . فلما خرج ، خرجن إليه فقلن له : افتح الباب، فأبى ، فشججنه ورجعن ، فجلس ، فلما أن جاء مولاه لم يخبره بشىء .

قال : فقالت الكبيرة : ما بال هذا العبد الحبشى أولى بطاعة الله عز وجل منى؟ والله لأتوبنّ ! قال : فتابت . فقالت الصغرى : ما بال هذا العبد الحبشى وهذه الكبرى أولى بطاعة الله عز وجل منى ؟ والله لأتوبن ! فتابت . فقالت الوسطى : ما بال هاتين وهذا العبد الحبشى أولى بطاعة الله عز وجل منى ؟ والله لأتوبنّ ! فتابت . قال : فقال غُواة القرية : ما بال هذا العبد الحبشى وبنات فلان أولى بطاعة الله منا ؟ فتابوا إلى الله عز وجل وكانوا عوابد القرية .

* * *

٤٠ - (توبة صاحب فاحشة)

أخبرنا أبو منصور جعفر بن الدامغانى : أنا محفوظ بن أحمد الكوذانى ، أنا أبو على الجارِى ، أنا المعافى بن زكريا الجريرى ، ثنا الحسين بن القاسم الكوكبى ، ثنا

أبو يوسف يعقوب بن إسحاق القاضى ، ثنا يحيى بن صالح الوُحاظى ، ثنا إسماعيل ابن عياش ،عن صفوان بن عمرو،عن شرَيح بن عُبيد الحضرمى،عن كعب الأحبار :

أنّ رجلاً من بنى إسرائيل أتى فاحشةً ، فدخل نهرًا يغتسل فيه . فناداه الماء : يا فلان ! أما تستحيى ؟ ألم تتب من هذا الذنب وقلت : إنك لا تعود فيه ؟! فخرج من الماء فزعًا وهو يقول : لا أعصى الله ! فأتى جبلاً فيه اثنا عشر رجلاً يعبدون الله عز وجل . فلم يزل معهم حتى قحط موضعهم ، فنزلوا يطلبون الكلأ ، فمرّوا على ذلك النهر . فقال لهم الرجل : أما أنا فلست بذاهب معكم . قالوا : لِمَ ؟ قال : لأن ثَمّ من قد اطلع منى على خطيئة ، فأنا أستحيى منه أن يرانى . فتركوه ومضوا ، فناداهم النهر : يا أيها العُبَّاد ! ما فعل صاحبكم ؟ قالوا : زعم أن له هاهنا من قد اطلع منه على خطيئة فهو يستحيى منه أن يراه .

قال : يا سبحان الله ! إن أحدكم يغضب على ولده أو على بعض قراباته ، فإذا تاب ورجع إلى ما يحبّ أحبه ، وإن صاحبكم قد تاب ورجع إلى ما أحبّ ، فأنا أحبه . فأتوه فأخبروه ، واعبدوا الله على شاطىء ، فأخبروه ، فجاء معهم ، فأقاموا يعبدون الله زمانًا . ثم إن صاحب الفاحشة توفى . فناداهم النهر : يا أيها العُبَّاد والعبيد الزهاد ! غسِّلوه من مائى وادفنوه على شاطئى حتى يبعث يوم القيامة من قربى . ففعلوا ذلك به ، وقالوا : نبيت ليلتنا هذه على قبره نبكى ، فإذا أصبحنا سرنا . فباتوا على قبره يبكون ، فلما جاء وجه السَّحَر غَشِيَهُم النُّعاس ، فأصبحوا وقد أنبت الله على قبره اثنتى عشرة سَرْوَةً ، وكان أول سَرو أنبته الله عز وجل على وجه الأرض . فقالوا : ما أنبت الله هذا الشجر فى هذا المكان إلا وقد أحب الله عبادتنا فيه . فأقاموا يعبدون الله عز وجل على قبره ، كلما مات رجل دفنوه إلى جانبه . فماتوا بأجمعهم . قال كعب : فكان بنو إسرائيل يحجون إلى قبورهم (١) .

* * *

---

(١) وهذا باطل شرعًا مما يدل على فساد القصة بأكملها . فالعبادة عند المقابر لا تجوز وذلك لعدة أمور : منها أن هذا الفعل بداية للإشراك بالله ومن قرأ تاريخ الشرك يعلم ذلك ، الثانى : أنه مكان لا تجوز فيه الصلاة لقوله ﷺ « الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام » أحمد (٤ / ١١٧٨٤)وأبو داود (٢٤) باب وصححه الألبانى . وراجع الإرواد برقم(٢٨٧) وفى المشكاة (٧٣٧) .

أخبار التائبين من أصحاب رسول الله ﷺ

٤١ - (توبة أبي خيثمة رضي الله عنه)

أخبرنا أبو محمد عبد الله بن منصور بن هبة الله الموصليّ ، أنا أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار الصيرفيّ ، أنا أبو الحسن محمد عبد الواحد بن محمد بن جعفر ، أنا أبو بكر أحمد بن إبراهيم محمد بن الحسن بن شاذان ، أنا أبو عبد الله أحمد بن محمد بن المغلس ، أنا أبو عثمان سعيد بن يحيى الأمويّ قال : حدّثني أبي قال: قال ابن إسحاق .

تخلف أبو خيثمة أحد بني سالم ، عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، حتى إذا سار رسول الله ﷺ رجع أبو خيثمة ذات يوم إلى أهله في يوم حارّ . فوجد امرأتين له في عريشين له في حائط لهما ، قد رشت كل واحدة منهما عريشها، وبرّدت له فيه ماءً ، وهيأت له طعامًا . فلما دخل ، قام على باب العريش ينظر ثمّ قال : رسول الله ﷺ في الضح والريح والحرّ - يعني بالضح : الشمس - وأبو خيثمة في ظلّ وماء بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء . ما هذا بالنصف ! والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيّئا لي زادًا . ففعلتا ، ثمّ قدّم ناضحه فارتحله ، ثمّ خرج في طلب رسول الله ، فأدركه حين نزل تبوك .

قال : وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحيّ في الطريق يطلب رسول الله ﷺ ، فترافقا حتى إذا دَنوا من تبوك قال أبو خيثمة لعمير بن وهب : إنّ لي ذنبًا فلا عليك أن تخلّفَ عني حتى آتي رسول الله ﷺ . ففعل ، ثمّ سار حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ وهو بتبوك . فلما طلع قال الناس : هذا راكب مقبل . فقال رسول الله ﷺ : كن أبا خيثمة ! فلما دنا قال الناس : يا رسول الله! هذا والله أبو خيثمة ! فلما أناخ سلّم على رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : أولى لك ، أبا خيثمة ! ثمّ أخبره الخبر ، فقال له خيرًا ! ودعا له .

قال : وقد كان رهط من المنافقين ، منهم مُخَشّن بن حُمَيّر ، رجل من أشْجَعَ، حليف لبني سلمة ، مع رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك . قال : أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم ؟ والله لكأنا غدًا مُقْرَنون في الحبال ! فأطلع الله تعالى نبيّه عليهم ، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون . وقال مخشن بن حمير : يا رسول الله ! قعد بي اسمي واسم أبي . فعفا الله عنه بقوله : ﴿ إن نَعْفُ عَن طائفَةٍ مِنكُمْ ﴾

(التوبة : ٦٦) قال : وهى الطائفة التى عفا عنها . فسُمى عبد الرحمن بن حمير ، قال : وسأل الله تعالى أن يُقتل شهيدًا لا يُعلَم مكانه . فأُصيب يوم اليمامة ولم يوجد له أثر .

* * *

٤٢ - (توبة كعب بن مالك رضي الله عنه) (١)

أخبرنا أبو الفتح محمد بن عبد الباقى ، أنا أبو الفضل جعفر بن يحيى المكىّ ، أنا محمد بن الحسين بن يوسف الأصفهانى ، أنا محمد بن أحمد بن البغوى ، أنا إسحاق بن إبراهيم الدبرى ، أنا عبد الرّزاق عن معمر عن الزهرى قال : أخبرنى ابن كعب بن مالك عن أبيه ، قال :

لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها حتى كانت غزوة تبوك (٢) إلا بدرًا . ولم يعاتب النبى ﷺ أحدًا تخلف عن غزوة بدر ، إنما خرج يريد العير ، فخرجت قريش مغوثين لعيرهم ، فالتقَوْا على غير موعد كما قال الله تعالى . ولعمرى إنّ أشرف مشاهد رسول الله ﷺ فى الناس لَبَدْر ، وما أحبّ أنى كنتُ شهدتُها مكان بيعتى ليلة العقبة حيث تواثقنا على الإسلام . ثم لم أتخلف بعدُ عن رسول الله ﷺ فى غَزَاة غزاها ، حتى إذا كانت غزوة تبوك ، وهى آخر غزاة غزاها ، وآذن النبىُّ ﷺ الناسَ بالرحيل ، وأراد أن يتأهبوا أهبة غزوهم ، وذلك حين طابت الظِّلال وطابت الثمار ، وكان قلَّما أراد غزوة إلا ورّى بغيرها ، وكان يقول : «الحربُ خُدعَة » (٣) - إلا غزوة تبوك ، فإنه جلَّى للناس أمرهم . فأراد النبى ﷺ فى

(١) وكان عدد الذين خلفوا بضعة وثمانون رجلاً وكان كعب رضي الله عنه أحدهم ، وأن المعذرين الأعراب كانوا أيضًا اثنين وثمانين رجلاً من بنى غفار وغيرهم ، وأن عبد الله بن أبى ومن أطاعه من قومه كانوا من غير هؤلاء ، وكانوا عدد كثيرًا . انظر الفتح (٨ / ١١٩) .

(٢) غزوة تبوك فى رجب سنة ٩ هـ وتسمى غزوة العُسْرة وانظر الرحيق (ص / ٤١٤) ومختصر البخارى (ص / ٤٠٥) .

(٣) والحديث رواه البخارى فى الجهاد (٣٠٣٠) باب (١٥٧) الحرب خدعة ، ومسلم فى الجهاد (١٧٣٩) باب (٥) جواز الخداع ، وأحمد فى المسند (٥ / ١٤٣١٢) والترمذى (٣ / ١٦٨١) وقال : حسن صحيح . والحميدى (١٢٣٧) وابن حبان (٤٧٦٣) والطيالسى (١٦٩٨) وراجع شرحه عند الخطابى فى « المعالم » (٢ / ٢٦٩) ، وأبو يعلى (١٨٢٦) و (١٩٦٨) و (٢١٢١) . وأبو داود (٢٦٣٦) .

غزوة تبوك أن يتأهب الناس أهْبَتَهُ . وأنا أيسر ما كنتُ، قد جمعت راحلتين ، وأنا أقدر شيء فى نفسى على الجهاد وخفَّة الحاذ ، وأنا في ذلك أصغى إلى الظلال وطيب الثمار . فلم أزل كذلك حتى قام رسول الله ﷺ غادياً بالغداة ، وذلك يوم الخميس ، وكان يحب أن يخرج يوم الخميس فأصبح غادياً . فقلت : أنطلق غداً إلى السوق فاشترى جهازى ثمّ الحق بهم ، فانطلقتُ إلى السوق من الغد ، فعسر عليّ بعض شأنى ، فرجعت . فقلت : أرجع غداً إن شاء الله فألحق بهم ، فعسر عليّ بعض شأنى أيضاً . فقلت : ارجع غداً إن شاء الله ، فلم أزل كذلك حتى ألبس بى الذّنْبُ ، وتخلفت عن رسول الله ﷺ ، فجعلتُ أمشى فى الأسواق وأطوف بالمدينة ، فيحزننى أنى لا أرى أحداً تخلف إلا رجلاً مغموصاً عليه فى النفاق . وكان ليس أحد تخلف إلا رأى أن ذلك سيخفى له، وكان الناس كثيراً لا يجمعهم ديوان ، وكان جميع من تخلف عن النبى ﷺ بضعة وثمانين رجلاً . ولم يذكرنى النبى ﷺ حتى بلغ تبوكاً قال : ما فعل كعب بن مالك ؟ قال رجل من قومى : خلَّفه يا رسول الله ، بُرداه (١) والنظر فى عِطْفَيْه (٢) ! فقال معاذ بن جبل : بئس ما قلت ! والله يا نبى الله ما علمنا عليه إلا خيراً . قال : فبينماهم كذلك إذا هم برجل يزول به السراب (٣) . فقال النبى ﷺ : كن أبا خيثمة ! فإذا هو أبو خيثمة . فلما قضى النبى ﷺ غزوة تبوك وقفل ودنا من المدينة جعلتُ أتذكر بماذا أخرج به من سخط النبى ﷺ ، وأستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى ، وحتى إذا قيل النبىُّ ﷺ هو مصبحكم غداً بالغداة - زاح عنى الباطل وعرفت أنى لا أنجو إلا بالصدق.

---

(١) البُرْد : كساء مُخطط يُلتحف به والجمع : أبْراد وبُرُود ، وأما البُرْدَة : كساء مخطط يلتحق به والجمع بُرْد ، وبُرَد . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٤٤) .

(٢) العِطْفَ : عطفُ الإنسان وغيره : جانبه والجمع : عطوف وعطاف وأعْطاف . وهذا القول كابنه عن العَجب . وهذا قول باطل كما قال القرطبى . قُلتُ : وهذا لا يجوز لأن كعب صحابى جليل حيث أنه شهد العقبة وبايع تحتها وشهد أحد وتاب الله عليه بسبب تخلفه عن غزوة تبوك والله عليم بذات الصدور ، وأنظر التعريف فى المعجم الوجيز (ص ./ ٤٢٣) .

(٣) السَّرَاب : ما يُرى فى نصف النَّهار من اشتتداد الحر كالماء فى المغاور . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٤٠٢) .

فدخل النبى ﷺ ضحًى ، فصلى فى المسجد . وكان إذا جاء من سفر فعل ذلك : دخل المسجد فصلى فيه ركعتين ثمّ جلس ، فجعل يأتيه من تخلَّف ، فيحلفون له ويعتذرون إليه ، فيستغفر لهم ويقبل علانيتهم ، ويكل سرائرهم إلى الله عز وجل ، فدخلتُ المسجد ، فإذا هو جالس . فلما رآنى تبسَّم تبسُّمَ المغضَب ، فجئتُ فجلست بين يديه . فقال : « ألم تكن ابتعتَ ظهرك ؟ » [1] فقلت : بلى ، يا نبى الله ! قال: « فما خلفك ؟ » فقلت : والله لو بين يدَىْ أحد من الناس غيرك جلستُ لخرجتُ من سخطه علىّ بعذر ، ولقد أوتيتُ جدلاً ولكن قد علمتُ يا نبىَّ الله أنى إن أخبرتك اليوم بقول تجد علىَّ فيه وهو حقّ فإنى أرجو فيه عقبى الله ، وإن حدَّثتك اليوم حديثاً ترضى عنى فيه وهوَ كذب أوشك الله أن يُطْلِعَكَ علىَّ ، والله يا نبىَّ الله ما كنت قطُّ أيسر ولا أخف حاذاً منى حين تخلفت عنك . قال : « أما هذا فقد صدقكم الحديث، فقم حتى يقضى الله فيك » . فقمت ، فثار على إثرى أناس من قومى يؤنبوننى . فقالوا : والله ما نعلمك . أذنبت ذنباً قطّ قبل هذا ، فهلا اعتذرت إلى نبىِّ الله ﷺ بعذر يرضى عنك فيه ! وكان استغفار رسول الله ﷺ سيأتى من وراء ذنبك ، ولم تَقف نفسُك موقفاً لا تدرى ماذا يقضى لك فيه . فلم يزالوا يؤنبوننى حتى هممتُ أن أرجع فأُكذِّبَ نفسى . فقلت : هل قال هذا القول أحد غيرى ؟ قالوا : نعم قاله هلال بن أمية ، ومرارة بن ربيعة . فذكروا رجلين صالحين قد شهدا بدراً ، لى فيهما أسوة . فقلت : والله لا أرجع إليه فى هذا أبداً ولا أكذِّبُ نفسى . قال : ونهى النبىُّ ﷺ الناس عن كلامنا أيها الثلاثة ، قال : فجعلت أخرج إلى السوق فلا يكلِّمنى أحد . وتنكر لنا الناس حتى ما هم بالذين نعرف، وتنكرت لنا الحيطان حتى ما هى بالحيطان التى نعرف . وتنكرت لنا الأرض حتى ما هى بالأرض التى نعرف . وكنتُ أقوى أصحابى ، فكنت أخرج وأطرف فى السوق وآتى المسجد ، فأدخل وآتى النبىَّ ﷺ ، فأسلم عليه ، فأقول : هل حرك شفَتيهِ بالسلام ؟ إذا قمت أصلى إلى السارية فأقبلت قبَل صلاتى نَظَرَ إلىَّ بمؤخر عينيه، وإذا نظرتُ إليه أعرض عنى . قال : واستكان صاحباى فجعلا يبكيان الليل والنهار ولا

---

(١) والمقصود : بالظهر هنا الدابة التى تحمل الأثقال أو يركب عليها . وراجع المعجم الوجيز (صـ ٢/ ٤) .

يُطْلعان رؤوسها . فبينما أنا أطوف في السوق إذا رجل نصراني جاء بطعام له يبيعه ، يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له إليّ . فأتاني بصحيفة من ملك غسان ، فإذا فيها : أما بعد فإنه بلغني أن صاحبك قد جفاك وأقصاك ، ولست بدار مضيعة ولا هوان ، فالحق بنا نواسك . قال : فقلت : هذا أيضاً من البلاء والشر . فاسجرت لها التنور [١] وأحرقتُهاَ . فلما مضت أربعون ليلة إذا رسول من النبي ﷺ قد أتاني . فقال : اعتزل امرأتك . فقلت : أطلقها ؟ قال : لا ولكن لا تقربها، وأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك. فجاءت امرأة هلال بن أمية فقالت : يا رسول الله ! إنَّ هلال بن أمية شيخ كبير ضعيف ، فهل تأذن لي أن أخدمه ؟ قال : نعم ولكن لا يقربنّك ! قالت : يا نبي الله ! والله ما به من حركة لشيء ، ما زال مكتئباً يبكي الليل والنهار منذ كان من أمره ما كان .

قال كعب : فلما طال على البلاءُ اقتحمتُ على أبي قتادة حائطه وهو ابن عمي- فسلمتُ عليه فلم يردّ عليّ . فقلت : أنشدك الله ، يا أبا قتادة ! أتعلم أني أحب الله ورسوله ؟ فسكت . ثم قلت : أنشدك الله ، يا أبا قتادة ! أتعلم أني أحب الله ورسوله ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال فلم أملك نفسي أن بكَيْتُ . ثمّ اقتحمتُ الحائط خارجاً ، حتى إذا مضت خمسون ليلة من حين نهى النبي ﷺ الناس عن كلامنا صليتُ على ظهر بيت لنا صلاة الفجر . ثمّ جلستُ وأنا في المنزلة التي قال الله عز وجل : قد ضاقت عليَّ نفسي وضاقت عليَّ الأرضُ بما رحبت [٢] إذْ سمعت نداءً من ذروة سلع : أبشر يا كعب بن مالك ! فخررت ساجدًا وعرفتُ أنّ الله تعالى قد جاء بالفرج . ثمّ جاء رجل يركض على فرس يبشّرني ، فكان الصوت أسرع من فرسه [٣] فلما جاءني الذي سمعت صوته أعطيته ثوبيَّ بشارة ولبست ثوبين آخرين . قال : وكانت توبتنا نزلت على النبي ﷺ ثلث الليل ، فقالت أم سلمة : يا نبيَّ الله ألا نبشر كعب بن مالك؟قال: إذًا يحطمكم الناس ويمنعونكم النوم سائر الليلة .

---

(١) التنور : الفُرنُ يخبز فيه والجمع تنانير وراجع المعجم الوجيز (صـ ٧٨) .

(٢) وَرَحُبَ المكان : اتّسع فهو رحب ورحيب ورحاب . وأرحب الشيء : وسّعه . وراجع المعجم الوجيز (ص ٢٥٨) .

(٣) قال الحافظ : ويحتمل أن يكون أبا قتادة لأنه فارس النبي ﷺ . وقد يكون الزبير ابن العوام حواري رسول الله ﷺ .

قال : وكانت أمّ سلمة محسنة فى شأنى تحزن بأمرى . فانطلقتُ إلى النبى ﷺ ، فإذا هو جالس فى المسجد ، وحوله المسلمون ، وهو يستنير كاستنارة القمر، وكان إذا سُرّ استنار ، فجئتُ فجلستُ بين يديه ، فقال : « أبشر ، يا كعب بن مالك بخيرِ يومٍ مرّ عليك منذ ولدتك أمك ! » قال : قلت ، يا نبى الله أمِنْ عند الله ، أمْ من عندك ؟ قال : بل من عند الله . ثمّ تلا عليهم ﴿ لقدْ تابَ اللهُ على النبى والمهاجرين والأنصارِ ﴾ حتى بلغ ﴿ التوّابُ الرّحيمُ ﴾ . التوبة ، ١١٧ ، ١١٨) قال: وفينا نزلت : ﴿ اتقوا الله وكونوا معَ الصادقينَ ﴾ (التوبة : ١١٩) قال : فقلتُ : يا نبى الله ! إن من توبتى أن لا أُحدِّث إلا صدْقًا ، وأن أتخلعَ من مالى كله صدقة إلى الله وإلى رسوله . فقال : « أمسك بعض مالك فهو خير لك » . فقلت: فإنى أُمسك سهمى الذى بخيبر . قال : فما أنعم الله علىّ نعمةً بعد الإسلام أعظم فى نفسى من صدقى رسول الله ﷺ حين صدقته أنا وصاحباى أن لا نكون كذبناه فهلكنا كما هلكوا وإنى لأرجو أن لا يكون ابتلى الله أحدًا فى الصدق مثل الذى ابتلانى ، ما تعمدت لكذبة بعدُ وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى (١) .

* * *

٤٣ - (توبة أبى لبابة رضي الله عنه) (٢)

قال الزهرىّ : وكان أبو لبابة ممن تخلَّف عن النبى ﷺ فى غزوة تبوك ، فربط نفسه بسارية ، ثمّ قال : والله لا أحلُّ نفسى منها ولا أذوقُ طعامًا ولا شرابًا حتى أموت أو يتوبَ الله علىَّ ، فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعامًا ولا شرابًا حتى

---

(١) والحديث صحيح : رواه البخارى فى التفسير (٤٤١٨) باب (٨٩) حديث كعب بن مالك رضي الله عنه ، ومسلم فى التوبة (٢٧٦٩) باب حديث توبة كعب بن مالك ، وأحمد فى المسند (١٠ / ٢٧٢٤٥) والترمذى (٥ / ٧٠) كتاب التفسير ، (ح) (٣١١٣) وابن حبان فى صحيحه (٣٣٧٠) ، والبيهقى فى الدلائل (٥ / ٢٧٣ - ٢٧٩) والنسائى (٦ / ١١٢٣٢) وأبو داود فى الإيمان والنذور (٣٣٢٠) وكذا فى الجهاد (٢٦٣٧) وابن ماجه فى الصلاة (١٣٩٣) والطبرانى فى الكبير (١٩ / ٩٠) والطبرى فى « جامع البيان » (١٧٤٤٧) وفى مختصر البخارى (١٦١٩) كتاب المغازى (٦٧) - الزبيدى .

(٢) الصحابى الجليل أبو لبابة مختلف فى إسمه ولقد كان حليفًا لبنى قريظة ، وكانت أمواله وولده فى منطقتهم .

كاد يخرّ مغشيًا عليه ، ثمّ تاب الله عليه ، فقيل له : قد تيب عليك ، فقال : والله لا أحُلُّ نفسى حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يحلُّنى بيده . قال : فجاء النَبى ﷺ فحله بيده . ثمّ قال أبو لبابة : يا رسول الله ! إن من توبتى أن أهجرَ دار قومى التى أصبتُ فيها الذَّنبَ ، وأن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله . قال : « يجزئك الثلث ، يا أبا لبابة » .

أخبرنا أبو صالح سعد الله بن نجا بن الوادى ، أنا القاضى أبو بكر محمد بن عبد الباقى ، أنا أبو محمد الجوهرىّ ، أنا أبو عمر بن حيويه ، أنا عبد الوهاب بن أبى حية ، عن محمد بن شجاع البلخى ، أنا محمد بن عمر الواقدى قال : فحدثنى ربيعة بن الحارث عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن السائب بن أبى لبابة عن أبيه ، قال :

لما أرسلت قريظة إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يرسلنى إليهم - حين اشتدّ عليهم الحصر - دعانى رسول الله ﷺ ، فقال : اذهب إلى حلفائك فإنهم أرسلوا إليك من بين الأوس . قال : فدخلت عليهم وقد اشتدّ عليهم الحصار . فهشوا إلىّ وقالوا : يا أبا لبابة ! نحن مواليك دون الناس كلهم . فقام كعب بن أسد ، فقال : أبا بشير ! قد عرفت ما صنعنا فى أمرك وأمر قومك يوم الحدائق ويوم بعاث وكلّ حرب كنتم فيها ، وقد اشتدّ علينا الحصار وهلكنا ، ومحمد يأبى أن يفارق حصننا حتى ننزل على حكمه ، فلو زال عنا لحقنا بأرض الشام أو خيبر ولم نكثر عليه جمعًا أبدًا ، فما ترى فإنا قد اخترناك على غيرك ، إن محمدًا قد أبى إلا أن ننزل على حكمه . قال : نعم ، فانزلوا . وأومأ إلى حلقه : فهو الذبح . قال : فندمتُ فاسترجعتُ . فقال كعب : مالك يا أبا لبابة ؟ فقلت : خنت الله ورسوله . فنزلتُ وإنّ لحيتى لمبتلة بالدموع والناس ينتظرون رجوعى إليهم ، حتى أخذتُ من وراء الحصن طريقًا آخر حتى أتيتُ المسجد فارتبطتُ . وبلغ رسول الله ﷺ ذهابى وما صنعتُ . فقال : « دعوه حتى يحدث الله فيه ما يشاء ، لو كان جاءنى استغفرتُ له، فأما إذ لم يأتنى وذهب فدَعوه » (١) .

قال : فحدثنى معمر عن الزهرىّ . قال : وارتبط ابو لبابة سبعًا فى حر شديد

(١) وانظر هذا الخبر فى سيرة ابن هشام (٢ / ٢٣٧ - ٢٣٨) وفى مختصر السيرة (٢٨٧ - ٢٩٠) وفى الرحيق المختوم (ص / ٣٠٧ - ٣٠٨) .

لا يأكل ولا يشرب . وقال : لا أزال هكذا حتى أفارق الدنيا أو يتوب الله علىّ . قال : فلم يزل كذلك حتى يسمع الصوت من الجهد ، ورسول الله ﷺ ينظر إليه بكرة وعشية . ثمّ تاب الله عليه ، فنودى : إن الله قد تاب عليك . وأرسل رسول الله ﷺ إليه ليطلق عنه رباطه ، فأبى أن يطلقه عنه أحد غير رسول الله ﷺ ، فجاء رسول الله ﷺ .

قال الزهرىّ : فحدّثتنى هند بنت الحارث عن أمّ سلمة زوج النبى ﷺ ، قالت : رأيتُ رسول الله ﷺ يحلّ رباطه ، وإن رسول الله ﷺ ليرفع صوته يكلمه ويخبره بتوبته ، وما يدرى كثيراً مما يقول له من الجهد والضعف . ولقد كان الرباط حزّ فى ذراعه ، وكان من شعر ، وكان يداويه بعد ذلك دهراً .

* * *

٤٤ - (توبة أبى هريرة رضي الله عنه (١) عن فتواه فى امرأة زانية)

وقرأت فى « تنبيه الغافلين » عن أبى هريرة ، قال : خرجت ذات ليلة بعد ما صلَّيت العشاء مع رسول الله ﷺ ، فإذا أنا بامرأة متنقِّبة قائمة على الطريق . فقالت : يا أبا هريرة ! إنى قد ارتكبتُ ذنبًا عظيمًا ، فهل لى من توبة ؟ فقلت : وما ذنبك ؟ قالت : إنى زنيتُ وقتلتُ ولدى من الزنا . فقلت لها : هلكتِ وأهلكتِ ، والله مالك من توبة . فشهقت شهقةً خرّت مغشيًا عليها ، ومضت . فقلتُ فى نفسى : أفتى ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ؟ فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله ﷺ ، وقلتُ : يا رسول الله ! إن امرأة استفتتنى البارحة بكذا وكذا . فقال رسول الله ﷺ : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ! أنت والله هلكتَ وأهلكتَ ، أين كنت عن هذه الآية : ﴿ والذّينَ لاَ يدْعونَ معَ اللهِ إلهًا آخرَ وَلا يقْتُلونَ النّفسَ التى حرّمَ اللهُ إلاَّ

---

(١) أبو هريرة هو : قيل عبد الرحمن بن صخر وقيل غير ذلك الكثير وقد اختلف فى اسمه واسم أبيه والذى نقلناه هو الأشهر مات سنة سبع . وقيل ثمان وقيل تسع وخمسين . وأنظر ترجمته فى العبر (١ / ٦٢) وشذرات الذهب (١ / ٦٣) وفى تقريب التهذيب (٢ / ٤٨٤) وفى أسد الغابة (٦ / ٣١٨) وتذكرة الحفاظ (١ / ٣٢) .

(٢) لمؤلفه نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندى البلخى أبو الليث ، الملقب بإمام الهدى توفى سنة ٣٧٣ هـ ٨٣ م وقيل سنة ٣٩٣ هـ وقيل ٣٧٥ هـ والراجح ما ذكـــرناه آنفًا .

بالحقِّ وَلا يزْنونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فأُولئكَ يبدِّلُ اللهُ سيئاتهمْ حسنات وكان اللهُ غفورًا رَحيمًا ﴾ ؟ (الفرقان : ٦٨ - ٧٠) قال : فخرجت من عند رسولَ الله ﷺ وآنا أعدو فى سكك المدينة وأقول : من يدّلنى على امرأة استفتتنى البارحة كذا وكذا ؟ والصبيان يقولون : جُنَّ أبو هريرة ! حتى إذا كان الليل ، لقيتُها فى ذلك الموطن فأعلمتُها بقول رسول الله ﷺ وأنّ لها التوبة . فشهقت شهقة من السرور وقالت : إنّ لى حديقة وهى صدقة للمساكين لذنبى .

* * *

٤٥ - (توبة ثعلبة بن عبد الرحمن رضي الله عنه)

أخبرنا الشيخ الصالح أبو عبد الله بن محمد بن أحمد بن النقور ، أنا أبو الحسن على بن محمد بن العلاف ، أنا أبو القاسم بن بشران ، أنا أحمد بن إبراهيم الكندى ، أنا أبو بكر محمد بن جعفر السامرى قال : حدثنى أحمد بن جعفر بن محمد ، ثنا إبراهيم بن على الأطروش ، ثنا سليم بن منصور [1] بن عمار قال: حدثنى أبى عن المنكدر بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر بن عبد الله الأنصارى، قال :

أسلم فتى من الأنصار يقال له : ثعلبة بن عبد الرحمن . قال : وكان يخدم النبى ﷺ ويخفّ له . وإن رسول الله ﷺ بعثه فى حاجة له ، فمرّ بباب رجل من الأنصار ، فرأى امرأة من الأنصار تغتسل . وخاف أن ينزل الوحى على رسول الله ﷺ بما صنع ، فخرج هاربًا على وجهه . فأتى جبالاً بين مكة والمدينة فوَلجها . ففقدَهُ النبى ﷺ أربعين يومًا . وإن جبريل عليه السلام نزل على النبى ﷺ فقال: يا محمد ! إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إنّ رجلاً من أمتك بين هذه الجبال يتعوّذ بى . فقال النبى ﷺ : يا عمر ، ويا سلمان ! انطلقا فأْتيانى بثعلبة بن عبد الرحمن . فخرجا من أنقاب المدينة فلقيا راعيًا من رعاة المدينة يقال له: ذفافة . فقال له عمر : هل لك علم بشاب بين هذه الجبال يقال له : ثعلبة ؟ قال : لعلك تريد الهارب من جهنمّ . فقال له : وما علمك بأنه هارب من جهنم ؟ قال :

(١) وراجع ترجمته فى ميزان الإعتدال (٢ / ٤٢٢) برقم (٣٥٤٢) للذهبى ط . دار الفكر . بيروت .

لأنه إذا كان جوف الليل خرج علينا من بين هذه الجبال واضعًا يده على أمّ رأسه وهو ينادى : يا ليتكَ قبضت روحى فى الأرواح ، وجسدى فى الأجساد ، ولم تجردنى لفصل القضاء ! فقال عمر : إياه نريد . فانطلق بهما . فلما كان فى جوف الليل خرج عليهم من بين تلك الجبال واضعًا يده على أمّ رأسه وهو ينادى : يا ليتّك قبضت روحى فى الأرواح ، وجسدى فى الأجساد ، ولم تجرّدنى لفصل القضاء ! قال : فغدا عليه عمر فاحتضنه . فقال : يا عمر ! هل علم رسول الله ﷺ بذنبى ؟ قال: لا علم لى ، إلاّ أنه ذَكَرَكَ بالأمس فأرسلنى وسلمان فى طلبك . قال : يا عمر ! لا تدخلنى عليه إلاّ وهو فى الصلاة . فابتدر عمر وسلمان الصفّ . فلما سمع ثعلبة قراءة النبى ﷺ خرّ مغشيًا عليه . فلما سلم النبى ﷺ قال : « يا عمر ! يا سلمان ! ما فعل ثعلبة ؟ » قالا : ها هو ذا يا رسول الله ! فقام النبى ﷺ فحركة فانتبه . فقال له رسول الله ﷺ : « ما غيبك عنى ؟ » قال : ذنبى ، يا رسول الله! قال : « أفلا أدلك على آية تمحو الذنوب والخطايا ؟ » قال : بلى ، يا رسول الله ! قال : « قل : ﴿ رَبنا آتنا فى الدُّنيا حسنةً وفى الآخرَة حسنةً وقنا عذَابَ النار ﴾ (البقرة : ٢٠١) . قال : ذنبى ، يا رسول الله ، أعظَم . قالَ « بل كلام الله أعظم» . ثمّ أمره بالانصراف إلى منزله ، فمرض ثمانية أيام . ثم إن سلمان أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! هل لك فى ثعلبة ، فإنه لما به قد هلك . فقال رسول الله ﷺ : « قوموا بنا إليه » . فدخل عليه فأخذ رأسه فوضعه فى حجره . فأزال رأسه عن حجر رسول الله ﷺ . فقال له : « لِمَ أزلت رأسك عن حِجرى ؟» قال : لأنه ملآن من الذنوب . قال : ما تشتكى ؟ قال : مثل دبيب النمل بين عظمى ولحمى وجلدى . قال : ما تشتهى ؟ قال : مغفرة ربى . قال : فنزل جبريل عليه السلام ، فقال : يا محمد ! إنّ ربك يقرئك السلام ويقول لك : لو أن عبدى هذا لقينى بقرَاب الأرض [1] خطيئة لقيته بقرابها مغفرة . قال : فأعلمه النبى ﷺ . قال : فصاح صيحة فمات . قال : فأمر رسول الله ﷺ بغسله وكفنه . فلما صلى عليه جعل يمشى على أطراف أنامله . فلما دفنه ، قيل له : يا

---

(١) قُراب : بضم القاف : وقيل بكسرها والضم أشهر وهو ملؤها أو ما يقارب ملئها . قال ابن رجب : من جاء مع التوحيد بقُراب الأرض خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة . وراجع فتح المجيد (ص / ٤٧ - ٤٨) بتعليق الشيخ ابن باز - حفظه الله .

رسول الله! رأيناك تمشى على أطراف أناملك . قال : « والذى بعثنى بالحق نبيًا ! ما قدرتُ أن أضعَ قدمىّ على الأرض من كثرة من نزل من الملائكة لتشييعه » .

* * *

٤٦ - (توبة مالك الرؤاسى رضي الله عنه)

أخبرنا محمد بن عبد الباقى ، أنا محمد بن أحمد ، أنا أحمد بن عبد الله الحافظ ، ثنا محمد بن محمد ، ثنا محمد بن عبد الله الحضرمى ، ثنا سفيان بن وكيع، حدّثنى أبى ، عن جدى ، عن طارق عن عمرو بن مالك الرؤاسىّ عن أبيه .

أنه أغار هو وقوم من بنى كلاب على قوم من بنى أسد ، فقتلوا فيهم وعبثوا بالنساء . فبلغ ذلك النبى ﷺ فدعا عليهم ولعنهم . فبلغ ذلك مالكًا فغلّ يده ، ثمّ أتى النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله ! ارضَ عنى رضى الله عنك . فأعرض عنه النبى ﷺ . ثمّ دار إليه ، فقال : ارضَ عنى رضى الله عنك ، فوالله إنّ الربّ تعالى ليُترضى فيرْضى . فأقبل عليه النبى ﷺ فقال : تبت ممّا صنعتَ واستغفرتَ الله ؟ قال : نعم . قال : « اللّهمّ ! تب عليه وارضَ عنه » .

* * *

٤٧ - (توبة غنى من أغنياء الصحابة)

أخبرنا الإمام أبو الحسن المقرئ ، أنا أبو طالب اليوسفىّ ، أنا أبو علىّ التميمىّ، أنا أبو بكر القطيعىّ ، ثنا عبد الله قال : حدّثنى أبى ثنا يزيد ، أنا أبو الأشهب قال: حدّثنى سعيد بن أيمن مولى كعب بن سور ، قال :

بينما رسول الله ﷺ يحدّث أصحابه ، إذ جاء رجل من الفقراء ، فجلس إلى جنب رجل من الأغنياء . فكأنه قبض من ثيابه عنه ، وتغيّر رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : يا فلان ! أخشيتَ أن يعدوَ غناك عليه أو أن يعدوَ فقرُهُ عليك ؟ قال : يا رسول الله ! وشرٌّ الغنى ؟ قال : نعم ، إنّ غناك يدعوك إلى النار وإنّ فقره يدعوه إلى الجنّة . قال : فما ينجينى منه ؟ قال : تُواسيه منه . قال : إذًا أفعل . فقال الآخر : لا أرب لى فيه . قال : فاستغفر لأخيك وادعُ له .

* * *

٤٨ - (توبة أبى سفيان بن الحارث رضي الله عنه) (١)

أخبرنا سعد الله بن نجا ، أنا القاضي أبو بكر محمد بن عبد الباقى ، أنا الحسن ابن علىّ الجوهرىّ ، أنا أبو عمر بن حيَّويَه ، أنا عبد الوهاب بن أبى حية ، أنا محمد بن شجاع البلخىّ ، ثنا محمد بن عمر الواقدى حدَّثنى سعيد بن مسلم ، عن عبد الرحمن بن سابط وغيره ، قال :

كان أبو سفيان بن الحارث أخا رسـول الله ﷺ من الرضاعة ، أرضعته حليمة (٢) . وكان يألف رسول الله ﷺ ، وكان له ترِبًا . فلمَّا بُعث رسول الله ﷺ عاداه عداوة لم يعاد أحد قط مثلها ، وهجا رسول الله ﷺ وأصحابه . فمكث عشرين سنة عدوًا لرسول الله ﷺ يهجو المسلمين ويهجونه ، ولا يتخلّف عن موضع تسير فيه قريش لقتال رسول الله ﷺ . ثمَّ إنه الله ألقى فى قلبه الإسلام .

قال أبو سفيان : فقلت : من أصحب ومع من أكون ؟ قد ضرب الإسلام بجرَانه . فجئت زوجتى وولدى فقلت : تهيئوا للخروج فقد أظلَّ قدومُ محمد . قالوا: قد آنَ لك أن تبصر أن العرب والعجم قد تبعت محمدًا ، وأنت مُوضِعٌ فى عداوته ، وكنتَ أولى الناس بنصره . فقلت لغلامى مذكور : عجّلْ بأبعرة وفرس . قال : ثمّ سرنا حتى نزلنا « الأبواء » وقد نزلت مقدمة رسول الله ﷺ « الأبواء » . فتنكَّرت وخفت أن أُقتَل . وكان رسول الله ﷺ قد نذر دمى . فخرجت على قدمىَّ نحواً من ميل ، وأقبل الناس رَسَلاً فتنحيت فَرَقًا من أصحابه ، فلمّا طلع فى موكبه تصدَّيتُ له تلقاء وجهه ، فلمّا ملأ عينيه منى أعرض عنى بوجهه إلى الناحية الأُخرى ، فتحوّلت إلى ناحية وجهه الأخرى ، فأعرض عنى مراراً ، فأخذنى ما قرُب وما بعُد ؛ وقلت : أنا مقتول قبل أن أصل إليه ! وأتذكّر برّه ورُحمه فيمسك ذلك

---

(١) وهو : أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، ابن عم رسول الله ﷺ . وهو أخو النبى ﷺ فى الرضاعة فى بنى سعد . راجع الرحيق المختوم (ص / ٥١) .

(٢) فى قول المؤلف رحمه الله نظر . لأنه لم يرد فى الصحيح ذكر حليمة السعدية صراحة بأنها مرضعة النبى ﷺ ، والرواية التى أوردها ابن سعد ضعيفة ، ولكن صَحّ عند مسلم قول النبى ﷺ « واسترضعت فى بنى سعد » ولم يعين من التى أرضعته وللمزيد راجع كتاب السيرة النبوية من مصادرها الأصلية للدكتور / مهدى رزق الله أحمد .

منى ، وقد كنتُ لا أشك أنّ رسول الله ﷺ وأصحابه سيفرحون بإسلامى فرحًا شديدًا لقرابتى برسول الله ﷺ ، فلما رأى المسلمون إعراض رسول الله ﷺ عنى أعرضوا عنى جميعًا فلقينى ابن أبى قحافة (١) معرضًا عنى ، ونظرت إلى عمر(٢) يغرى بى رجلاً من الأنصار ، فقال لى : يا عدو الله ! أنت الذى كنت تؤذى رسول الله ﷺ وتؤذى أصحابه ، قد بلغت مشارق الأرض ومغاربها فى عداوته . فرددت بعض الردّ عن نفسى ، واستطال علىّ ورفع صوته حتى جعلنى فى مثل الحرجة من الناس يُسَرّون بما يفعل بى . قال : فدخلت على عمى العبّاس ، قلت : يا عمّ ! قد كنت أرجو أن يفرح رسول الله ﷺ بإسلامى لقرابتى وشرفى ، وقد كان منه ما رأيتَ ، فكلّمه فىّ ليرضى عنى . قال : لا والله لا أكلّمه كلمةً أبدًا بعد الذى رأيت إلاّ أن أرى وجهًا . إنى أجلّ رسول الله ﷺ وأهابه ، فقلت : يا عمّ ! إلى من تكلنى ؟ قال : هو ذاك ! قال : فلقيتُ عليًا فكلّمتُه ، فقال لى مثل ذلك . فرجعت إلى العبّاس ، فقلت : ياعمّ ! فكفّ عنى الرجل الذى يشتمنى . قال : صفه لى . فقلت : هو رجلٌ آدمُ شديد الأدمة قصير دحداح بين عينيه شجّة . قال : ذاك نعيمان بن الحارث النّجارىّ . فأرسل إليه ، فقال : يا نعيمان ! إنّ أبا سفيان ابن عم رسول الله ﷺ وابن أخى ، وإن يكن رسول الله ﷺ ساخطًا عليه فسيرضى عنه ، فكُفَّ عنه . فبعْدَ لأْيٍ ما ، كفَّ وقال : لا أعرض له .

قال أبو سفيان : فخرجتُ فجلستُ على باب منزل رسول الله ﷺ حتى راح إلى الجحفة وهو لا يكلمنى ولا أحدٌ من المسلمين . وجعلت لا ينزل منزلاً إلا أنا على بابه ومعى ابنى جعفر قائم . فلا يرانى إلا أعرض عنى . فخرجت على هذه

---

(١) ابن أبى قحافة : هو عبد الله بن أبى قحافة بن عثمان بن عامر بن كعب التيمى القرشى . ولقبه عتيق وروى الترمذى حديث فى فضائله « أنت عتيق الله من النار .. » وهو ضعيف الإسناد : فيه إسحاق بن يحيى بن طلحة وراجع التهذيب (١ / ٢٢٣) وسنن الترمذى (٥ / ٣٧١) باب (١٤) مناقب أبى بكر الصديق رضي الله عنه .

(٢) ابن الخطاب هو : هو عمر بن الخطاب بن نُفيل بن عبد العزّى بن رياح بن عبد الله بن قرط القرشى يجتمع مع النبى ﷺ فى كعب بن لؤى أسلم سنة ست وقبل خمس من البعثة بعد أربعين رجلاً ، توفى فى غرة المحرم سنة (٢٤) هـ وخلافته عشر سنين ونصف . وراجع ترجمته فى سبل السلام (١ / ٨٤ - ٨٥) عقب (ح) (٥٢) بتعليق الخولى .

الحال حتى شهدت معه فتح مكة ، وأنا فى خيله التى تلازمه حتى نزل الأبطح. فدنوت من باب قبته ، فنظر إلىّ نظرًا هو ألين من ذلك النظر الأول ، ورجوت أن يتبسَّم . ودخل عليه نساءبنى عبد المطلب ودخلت معهنّ زوجتى فرقَّقته علىّ ، وخرج إلى المسجد وأنا بين يديه لا أفارقه على حال ، حتى خرج إلى هوازن فخرجت معه وقد جمعت العرب جمعًا لم تجمع مثله قطّ ، وخرجوا بالنساء والذرّية والماشية . فلما لقيُهم ، قلتُ: اليوم يرى أثرى إن شاء الله .

فلمّا لقيناهم حملوا الحملة التى ذكر الله: (ثُمَّ ولَّيْتُم مدْبرينَ) (التوبة:٢٦) . وثبتَ رسول الله ﷺ على بغلته الشهباء [١] وجرّد سيفه فاقتحمت عن فرسى وبيدى السيف صلتًا قد كسرتُ جفنهُ [٢] ، والله يعلم أنى أريد الموت دونه ، وهو ينظر إلىَّ ، وأخذ العباس بلجام البغلة فأخذت بالجانب الآخر . فقال : من هذا ! فقال العباس : أخوك وابن عمك أبو سفيان بن الحارث ، فارضَ عنه أى رسول الله ! قال: قد فعلت ، فغفر الله له كلّ عداوة عادانيها . فأقبل رجله فى الركاب ، ثمّ التفت إلىّ ، فقال : أخى لعمْرى !

ثمّ أمر العباس فقال : ناد يا أصحاب سورة (البقرة)! يا أصحاب السهَمُرة [٣]! يا للمهاجرين ! يا للأنصار ! يا للخزرج ! فأجابوا : لبيك داعىَ الله ! وكرّوا كرّة رجل واحد ، قد حطموا الجفون وشرعوا الرماح وخفضوا عوالى الأسنَّة وأرقلوا إرقال الفحول [٤] .

فرأيتُنى وإنى لأخاف على رسول الله ﷺ شروع رماحهم ، حتى أحدقوا برسول الله ﷺ وقال لى رسول الله ﷺ : « تقدّم فضارب القوم ! فحملت

---

(١) قُلتُ :وجاء فى حديث ابن عباس « وكان ﷺ له بغلة شهباء تسمى الدُّلول . . » وهذا حديث طويل رواه الطبرانى وقال شيخنا الألبانى : الحديث موضوع . وراجع ضعيف الجامع برقم (٤٤٨٢) وفى الضعيفة برقم (٤٢٢٥) .

(٢) الجفْنُ : غمد السيف ونحوه . والجمع : أجفان وجُفون . وراجع المعجم الوجيز (ص / ١٠٩) .

(٣) السَّمُرُ : ضرب من شجر الطلح . واحدته . سَمُرة والجمع : أسْمرٌ . وراجع المعجم الجيز (ص / ٣٢٠ - ٣٢١) .

(٤) الأسنة : نَصلُ الرسح - وراجع المعجم الوجيز (ص / ٣٢٥)

حملة أزلتُهم عن موضعهم ، وتبعنى رسول الله ﷺ قدمًا فى نحور القوم ، ما يألوا ما تقدَّم . فما قامت لهم قائمة حتى طردتُّهم قدر فرسخ (١) وتفرّقوا فى كلّ وجه .

وروى عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، قال : لقد رأيت النبى ﷺ يومئذ وما معه إلا أبو سفيان بن الحارث ، فأتيته حتى أخذت بحكمة بغلته ، وكنت رجلاً صيِّتًا ، فقال رسول الله ﷺ : يا عباس ! اصرخ : يا معشر الأنصار ! يا أصحاب السَّمُرة ! فناديتُ : يا معشرَ الأنصار ! يا أصحابَ السَّمُرة . قال : فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنَّت إلى أولادها ، يقولون : يا لبيك ! يا لبيك ! .

ورُوى أنهم عطفوا عطفة (٢) البقر على أولادها ، قد شرعوا الرماح ، حتَّى إنى لأخاف على رسول الله ﷺ رماحهم أشدّ من خوفى رماح المشركين ، يؤّمون الصوت ويقولون : يا لبيك ! يا لبيك !

قال : والتفت رسول الله ﷺ يومئذ إلى أبى سفيان بن الحارث ، وهو مقنع بالحديد ، وهو آخذ بثغر بغلة النبى ﷺ ، قال : مَن هذ ؟ قال : ابن أمك يا رسول الله ! ويقال ، إنه قال : أخوك ، فداك أبى وأمى ، أبو سفيان بن الحارث . فقال رسول الله ، : نعم أخى ، ناولنى حصى من الأرض ، فناوله ، فرمى بها فى وجوه القوم وقال : شاهت الوجوه ! فمرّت كأنها عنانة (٣) ، فدخلتْ فى أعينهم كلهم فانهزموا .

وذكر ابن عبد البرّ بإسناد عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : مر علينا أبو سفيان بن

(١) الفرسخ : مقياس قديم من مقايس الطول يقدر بثلاثة أميال والجمع فراسخ . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٤٦٧) .

(٢) عَطَفَ : مال وانحنى . ويقال : عَطَفت الظبية : أمالت عنقها وحنته و - إلى ناحية كذا : مال وتحول . ويقال : عطف فلان عن كذا : رجع وانصرف و - : الناقة على وليدها : حنت عليه ودر لبنها . وعليه : أشفق ورَحَم و - حَمَل وكَرَّ و - : الشيء : حَنَاهُ وأمالهُ و - اللفظ على سابقه : أتبعه إيَّاه بواسطة حَرْف العطف وراجع المعجم الوجيز (ص / ٤٢٣) .

(٣) العنان : ما يبدُو لك من السماء إذا نظرت إليها و - : السحاب وراجع المعجم الوجيز (ص / ٤٣٨) .

الحارث ، فقال لى رسول الله ﷺ : هلمى يا عائشة ، حتى أريك ابن عمى الشاعر الذى كان يهجونى ، أوّل من يدخل المسجد وآخر من يخرج منه ، لا يجاوز طرفه شِرَاك نعله (١) .

ورُوى أنه كان لا يرفع رأسه إلى النبى ﷺ حياءً منه . وقال عند موته : لا تبكوا علىّ ، فما تَنَطَّفْتُ بخطيئة منذ أسلمت . وبكى على النبى ﷺ كثيرًا ورثاه ، فقال :

أرقتُ وباتَ ليلى لا يزول ... وليلُ أخى المصيبةِ فيه طولُ
وأسعدنى البكاءُ وذاك فيما ... أُصيبَ المسلمونَ به قليلُ
لقدْ عظُمتْ مصيبتُنا وجلَّتْ ... قيلَ عشيَّةَ قيلَ قدْ قبضَ الرَّسُول
فأضحتْ أرضُنا مِما عراها ... تكادُ بنا جوانبهـــــا تميلُ
فَقَدْنا الوحىَ والتنزيلَ فينا ... يروحُ بهِ ويغدُو جبرئيلُ
وذاك أحقُّ ما سالت عليه ... نُفوسُ الناس أو كادتْ تسيلُ
نبىٌّ كانَ يجلو الشكَّ عنا ... بِما يوحَى إليهِ ومَا يقولُ
ويَهدينا فلا يخشى علينا ... ضلالاً والرَّسولُ لنَا دليلُ
أفاطمُ إنْ جزعتِ فذاكُ عذْرٌ ... وإنْ لَمْ تجزعى فهو السبيلُ
فقبرُ أبيكِ سيِّدُ كلِّ قبرٍ ... وفيهِ سيِّدُ الناسِ الرسولُ

* * *

٤٩ – (توبة عبد الله بن الزبعرى الشاعر رضي الله عنه)

وهرب يوم الفتح هبيرة بن أبى وهب المخزومى زوج أم هانىء بنت أبى طالب، وعبد الله بن الزِّبعرى ، إلى نجران . وكانا شاعرين يهجوان المسلمين . ويقال : إن ابن الزِّبعرى أشعر شعراء قريش . فأرسل حسان بن ثابت أبياتًا يريد بها ابن الزِّبعرى،

(١) الشراك : سير النَّعل علي ظهر القدم والجمع شُرُك وأشْرُك . وفى الحديث « حتى يكلم الرجل عذبة سوطه وشراكُ نعله . . . » والحديث صحيح : وراجع صحيح الجامع برقم (٧٠٨٣) وفى الصحيحة برقم (١٢٢) .

أنشدنيها ابن أبى الزناد :

لاَ تعْـدَ منْ رجلاً أحلَّكَ بُغضهُ نجرَانَ فى عيْشٍ أحـذَّ لئيمِ
بُلِيَتْ قناتُكَ فى الحروبِ فأُلفيتْ خمَّانةً جوفاءَ ذَاتَ وصـومِ
غضبَ الإلهُ على الزِّبعْرَى وابنهِ وعذابُ سوءٍ فى الحيـاةِ مقيمِ

فلما جاءه شعر حسان تهيأ للخروج . فقال له هبيرة : أين تريد يا ابن عمى ؟ قال : أردت والله محمداً . قال : أتريد أن تتبعه ؟ قال : إى والله ! قال هبيرة : يا ليت أنى رافقت غيرك ! والله ما ظننت أنك تتبع محمداً أبداً ؟ قال ابن الزِّبعرى : فعلى أىّ شىء تقيم مع بنى الحارث بن كعب - وأترك ابن عمى وخير الناس وأبرَّه - ومع قومى ودارى ؟ فانحدر ابن الزبعرى حتى جاء رسول الله ، وهو جالس فى أصحابه . فلما نظر رسول الله ، إليه قال : هذا ابن الزِّبعرى ومعه وجه فيه نور الإسلام . فلما وقف على رسول الله ، قال : السلام عليك يا رسول الله ! شهدتُ أن لا إله إلاّ الله وأنك عبدهُ ورسوله ، والحمد لله الذى هدانى للإسلام ، لقد عاديتُك وأجلبت عليك وركبت البعير والفرس ومشيت على قدمىَّ فى عداوتك ، ثم هربت منك إلى نجران وأنا أريد أن لا أقرب الإسلام أبداً ، ثم أرادنى الله منه بخير وألقاه فى قلبى وحببه إلىّ ، وذكرت ما كنت فيه من الضلالة ، واتِّباع ما لا ينفع ذا عقل ، من حجر يُعبد ويذبح له ، لا يدرى من يعبده ومن لا يعبده ، قال رسول الله ﷺ : « الحمد لله الذى هداك للإسلام ، إن الإسلام يجبّ ما كان قبله » .

وقال ابن الزِّبعرى حين أسلم :

مَنعَ الرُّقادَ بلابلٌ وهمومُ والليلُ معتلجُ الرّواقِ بَهيمُ (١)
ممَّا أتانى أنَّ أحمدَ لامنى فيـــه فبتُّ كأننى محمومُ
يا خيرَ منْ حملتْ على أوصالها عيرانةٌ سُرُحُ اليــدينِ غَشوم
إنى لَمعتذرٌ إليك من الَّذى أسديتُ إذْ أنافى الضلال أهيم
أيامَ تأمُرُنى بأغــوى خُطَّةٍ سهمٌ وتأمرنى بهـا مخزوم

(١)البهيم : الأسود ، وليل بهيم : لا ضوء فيه إلى الصباح . والجمع بُهُم ، وبُهْمٌ . وفى الحديث « فاقتلوا منها كل أسود بهيم . . » المقصود الكلاب . والحديث رواه أحمد (٥ / ٥٤ - ٥٦) والدارمى (٢ / ٩٠) وأبو داود (٣ / ٢٦٧) «ح» (٢٨٤٥) والترمـذى (١٤٨٩) . وصححه الألبانى . وراجع صحيح الجامع برقم (٥٣٢١)وفى المشكاة (١٤٠٢) .

فاليومَ آمنَ بالنبى محمد قلبى ومخطىءُ هذه محرومُ
مضت العداوةُ وانقضت أسبابُهاَ ودعتْ أواصرُ بيننا وحُلومُ (١)
فاغفرْ فدًى لكَ والدىَّ كلاهما زللى فإنك راحمٌ مرحومُ
وعليكَ منْ علمِ المليك علامةٌ نورٌ أغر وخاتمٌ مختومُ
أعطاكَ بعدَ محبة برْهانهُ شرفًا وبرهانُ الاله عظيمُ
ولقدْ شهدتُ بأنّ دينكَ صادقٌ حقٌّ وأنكَ فى العبادِ جسيمُ
واللهُ يشهدُ أن أحمدَ مصطفىً متقبَّلٌ فى الصالحاتَ كريمُ
قَرْمٌ تفرَّعَ فى الذُّرى منْ هاشمِ فرعٌ تمكنَ فى الذُّرى وأَروم (٢)

* * *

٥٠ - (توبة هبار بن الأسود ﷺ)

قال الواقدىّ : حدّثنى واقد بن أبى ياسر عن يزيد بن رومان ، قال : قال الزبير بن العوام : ما رأيت رسول الله ﷺ ذكر هباراً - يعنى ابن الأسود - قطّ إلا تغيظ عليه ، ولا رأيت رسول الله ﷺ بعث سرّية قطّ إلا قال : إن ظفرتم بهبَّار فاقطعوا يديه ورجليه ثمّ اضربوا عنقه ، والله لقد كنت أطلبه وأسأل عنه ، والله يعلم لو ظفرتُ به قبل أن يأتى إلى رسول الله ﷺ لقتلته . ثم طلع على رسول الله ﷺ وأنا جالس ، فجعل يعتذر إلى رسول الله ﷺ .

وعن جبير بن مطعم ، قال : كنت جالسًا مع النبى ﷺ فى أصحابه في مسجده منصرفَهُ من الجعرانة . فطلع هبَّار بن الأسود . فلما نظر القوم اليه ، قالوا: يا رسول الله ! هبار بن الأسود ! قال رسول الله ﷺ : « قد رأيته » . فأراد بعض القوم القيام إليه ، فأشار إليه رسول الله ﷺ « أن اجلس » . فوقف عليه هبار ، فقال : السلام عليك يا رسول الله ! إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، ولقد هربتُ منك فى البلاد فأردتُ اللحوق بالأعاجم ، ثم ذكرتُ عائدتك وفضلك

---

(١) الأواصر: ما عطفك على غيرك من رحم أو قرابة ، أو مصاهرة أو معروف والمفرد الآصرة . وراجع المعجم الوجيز (ص / ١٩).

(٢) وراجع الأبيات فى سيرة ابن هشام (٢ / ٤١٩) ، وفى ديوان حسان بن ثابت (٤١٦) .

وبرِّك وصفحك عمن جهل عليك ، وكنَّا يا رسول الله أهل شرك ، فهدانا الله بك وأنقذنا بك من الهلكة ، فاصفح عن جهلى وعما كان يبلغك منى فإنى مقرّ بِسَوأتى ، معترف بذنبى ·

قال الزبير : وقال : فقد كنتُ موضعًا فى سبِّك وأذاك ، وكنتُ مخذولاً ، وقد بصَّرنى الله وهدانى للإسلام · قال الزبير : فجعلت أنظر إلى رسول الله ﷺ وإنه ليطأطىء رأسه مِمَّا يعتذر هبَّار · وجعل رسول الله ﷺ يقول : « قد عفوت عنك ، والإسلام يجبّ ما كان قبله » ·

وكان لَسِنًا · وكان - يعنى بعد ذلك - يُسَبّ حتى يُبلغ منه ، فلا ينتصف · فبلغ رسول الله ﷺ حلمه وما يحمل عليه من الأذى ، فقال : « يا هبَّار ! سبّ من سبَّك » [1] ·

* * *

٥١ - (توبة عكرمة بن أبى جهل رضي الله عنه)

وذكر سعيد بن يحيى الأمويّ قال : حدّثنى أبى ، ثنا الأعمش ، عن أبى إسحاق السَّبيعى قال : لما دخل النبى ﷺ مكة ، قال عكرمة : والله لا أسكن أرضاً أرى فيها قاتل أبى الحكم [2] ! فانطلق يركب البحر · وعمد ختَنه ابو امرأته

(١) الحديث ضعيف : يقول الحافظ رواه على بن حرب فى « فوائده » وأبو الدحداح الدمشقى فى « فوائده » وفى « الدلائل » · وقال : هذا مرسل وفيه وهم · فإنه أسلم بالجعرانة وذلك بعد فتح مكة ولا هجرة بعد الفتح · وهو لا يتفق مع الحديث « لا تسبن أحدًا ، ولا تحقرن من المعروف شيئًا ، ولو أن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه وجهك - » والحديث صحيح: رواه أبو داود (٢ / ١٧٩) والترمذى من طريق آخر وصححه ووافقه وأقره الذهبى ، وأحمد فى المسند (٥ / ٦٤) وفى الترغيب (٣ / ١٨٦) وقال شيخنا الألبانى : ورجاله رجال البخارى غير أبى عفار واسمه المثنى بن سعيد الطائى وهو ثقة وراجع صحيح الجامع برقم (٧٣٠٩) وفى الصحيحة برقمى (١١٠٩) و (١٣٥٢) ·

(٢) وأبو الحكم : هو أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى القرشى ، ولقد كان من أشد المعاندين للرسول ﷺ ولذلك دعا رسول الله ﷺ بهدايته أو عمر بن الخطاب فى الحديث « اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك بأبى جهل أو بعمر بن الخطاب » رواه الترمذى (٥ / ٣٧٠١) وقال : حسن صحيح غريب ؟ وأحمد فى المسند (٢ / ٥٧٠٠) وابن حبان (٦٨٨١) والبيهقى (٢ / ٢١٥) فكان عمر أحب الله تعالى ·

فأمر زوجته فتعصبت . ثمّ تلقته فقالت : أين تذهب يا سيد فتيان قريش ؟ تذهب إلى أرض لا تعرف بها ؟ فأبى أن يطيعها .

وعن عبد الله بن الزبير ، قال : لما كان يوم الفتح أسلمت هند بنت عتبة ، وأسلمت أمّ حكيم بنت الحارث بن هشام امرأة عكرمة ، فى عشر نسوة من قريش . فأتينَ رسول الله ﷺ وهو بالأبطح فبايعنه . فدخلن عليه وعنده زوجتاه وابنته فاطمة ونساء من نساء بنى عبد المطلب . فتكلمت هند بنت عتبة ، فقالت : يا رسول الله ! الحمد لله الذى أظهر الدِّين الذى اختار لنفسه لتمسَّنى رحمكَ ، يا محمد ! إنى امرأة مؤمنة بالله مصدّقة . ثم كشفت عن نقابها ، فقالت : هند بنت عتبة . فقال رسول الله ﷺ : « مرحبًا بك » فقالت : والله ، يا رسول الله ، ما كان على الأرض أهل خباء أحبّ إلىّ أن يذلُّوا من خبائك ، ولقد أصبحتُ وما على الأرض من أهل خباء أحَب إلىّ أن يعزُّوا من خبائك . فقال رسول الله ﷺ : « وزيادة أيضًا » . ثم قرأ رسول الله ﷺ عليهنّ القرآن وبايعهنّ .

ثم قالت أمّ حكيم امرأة عكرمة : يا رسول الله ! قد هرب عكرمة منك إلى اليمن ، وخاف أن تقتله فأمِّنْهُ . فقال رسول الله ﷺ : هو آمنٌ . فخرجت أمّ حكيم فى طلبه ، فأدركته وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تهامة (١) . فجعل نوتىّ السفينة (٢) يقول له : أخلص ! قال : أىّ شىء أقول ؟ قال : قل : لا إله إلا الله . قال عكرمة : ما هربتُ إلا من هذا ! فجاءت أمّ حكيم على هذا من الأمر ، فجعلت تقول : يا ابن عم ! جئتك من عند أفضل الناس وأبرّ الناس وخير الناس ، لا تهلك نفسك ! وقالت : إنى قد استأمنت لك رسول الله ﷺ . قال : أنت فعلت ؟ قالت : نعم ، أنا كلمته فأمنّ . فرجع معها .

قال : وجعل عكرمة يطلب امرأته ليجامعها ، فتأبى عليه وتقول : إنك كافر وأنا مسلمة . فيقول : إنّ أمرًا منعك منى لأمرٌ كبير !

فلمَّا رأى النبىّ ﷺ عكرمة وثب إليه ، وما على النبى ﷺ رداء ، فرحًا

---

(١) تهامة : أرض منخفضة بين ساحل البحر وسلسلة الجبال فى الحجاز واليمن . والجمع : تهائم : وراجع المعجم الوجيز (ص / ٧٨) .

(٢) النوتى : الملاح الذى يُدبر السفينة فى البحر والجمع : نَوَاتى . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٦٣٨) .

بعكرمة . ثمّ جلس رسول الله ﷺ فوقف عكرمة بين يديه ومعه امرأته متنقّبة . ثمّ قال عكرمة : فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله . فسرّ بذلك رسول الله ﷺ ثمّ قال : يا رسول الله ! علمنى خير شىء أقوله . فقال : « تقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله » . فقال عكرمة : ثمّ ماذا ؟ قال رسول الله ﷺ : « تقول : أشهد الله وأشهد من حضر أنى مسلم مهاجر » . فقال عكرمة ذلك . فقال رسول الله ﷺ : « لا تسألنى اليوم شيئًا أعطيه أحدًا إلا أعطيتكه » . فقال عكرمة : فإنى أسألك أن تستغفر لى كل عداوة عاديتكها ، أو مسيرٍ أوضعتُ فيه ، أو مقامٍ لقيتك فيه ، أو كلام قلته فى وجهك أو أنت غائب عنه . فقال رسول الله ﷺ : « اللهم اغفر له كلّ عداوة عادانيها ، وكل مسير سار فيه إلىَّ مُوضعًا يريد بذلك المسير إطفاء نورك ، واغفر له كلّ ما نال منى من عرض فى وجهى أو وأنا غائب عنه . فقال عكرمة : رضيت يا رسول الله ! أما والله ، يا رسول الله ، لا أدع نفقة كنتُ أنفقُها فى صدّ عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها فى سبيل الله ، ولا قتال كنت أقاتل فى صدّ عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه فى سبيل الله . ثمّ أجتهد فى القتال حتى أقتل ، قال : فما زال يقاتل فى سبيل الله حتى قُتِل رحمه الله .

وروى أنه لمّا كان يوم اليرموك ترّجل عكرمة ، فقال له خالد (1) لا تفعل ، فإنّ مصابك على المسلمين شديد . فقال : دعنى يا خالد ! فإنه كانت لك سابقة مع رسول الله ﷺ . ثمّ قاتل قتالاً شديدًا حتى قتل ، فوجد به بضعٌ وسبعون من بين طعنة وضربة ورمية .

وقال عبد الله بن مصعب : استشهد يوم اليرموك الحارث بن هشام ، وعكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عمرو . فأتوا بماء وهم صرْعى ، فتدافعوه . كلما دُفع إلى رجل منهم قال : اسقِ فلانًا ، حتى ماتـوا ولم يشربوه . قال : طلب الماء

---

(1) خالد هو : خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومى القرشى انشغل بالفتوحات الإسلامية وكان من أعظم القواد الإسلاميين . قال رسول الله ﷺ ، « نعمَ عبدُ الله خالد ، سيف من سيوف الله » رواه ابن عساكر (٥ / ٢٧٢ / ٢) وأحمـد فى المسند (٢ / ٣٦٠) والترمذى (٢ / ٣١٦) والحاكم (٣ / ٢٩٨) وابن سعد (٧ / ٣٦٥) . وراجع صحيح الجامع برقم (٣٢٠٦) و (٣٢٠٧) و (٣٢٠٨) وفى المشكاة برقم (٦٢٤٨) وفى الصحيحة (١٢٣٧) وأحكام الجنائز (ص ١٦٦) .

عكرمة ، فنظر إلى سهيل ينظر إليــه ، فقال : ادفعه إليه ، فنظر إلى الحارث ينظر إليه ، فقال : ادفعه إليه ، فلم يصل إليه ، حتى ماتوا ، رحمة الله عليهم .

* * *

٥٢ - (توبة سهيل بن عمرو والحارث بن هشام رضي الله عنهما)

ويروى عن الحسن ، قال : حضر الناسُ باب عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفيهم سهيل بن عمرو وأبو سفيان بن الحارث وأولئك الشيوخ . فخرج آذنه فجعل يأذن لأهل بدرٍ لصهيب وبلال وأهل بدر ، وكان يحبهم وكان قد أوصى بهم . فقال أبو سفيان : ما رأيت كاليوم ، إنه ليؤْذَنُ لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يُلتفت إلينا . فقال سهيل - قال الحسن : ويا له من رجل ما كان أعقله ! - : أيها القوم ! قد أرى الذى فى وجوهكم ، فإن كنتم غضابًا فاغضبوا على أنفسكم ، دُعى القوم ودُعيتم ، فأسرعوا وأبطأتم ، أما والله لَمَا سبقوكم به من الفضل أشدُّ عليكم فوتًا من بابكم هذا الذى تتنافسون عليه ، أيها القوم ! إن هؤلاء قد سبقوكم بما ترون ، ولا سبيل لكم إلى ما سبقوكم إليه ، فانظروا هذا الجهاد فالزموه عسى أن يرزقكم الله الشهادة . ثمّ نفض ثوبه فقام ، فلحق بالشام وخرج بأهله إلا بنته هندًا . فماتوا كلهم إلا هندًا وفاختة بنت عتبة بن سهيل . وقتل سهيل شهيدًا باليرموك [1] ، فقدم بفاختة على عمر . وكان الحارث بن هشام خرج بأهله فلم يرجع منهم إلا ولده عبد الرحمن . فقال عمر : زوِّجوا الشريدَ الشريدةَ . وأقطعهما عمر بالمدينة خطّة وأوسع لهما . فقيل له : أكثرت لهما . فقال : عسى الله أن ينشر منهما ولدًا كثيرًا رجالاً ونساءً فولد لهما أبو بكر وعمر وعثمان وعكرمة وخالد ومخلد . فأبو بكر أحد الفقهاء السبعة ، فقهاء المدينة ، وكان يدعى : راهب قريش .

وروى ابن المبارك عن الأسود بن شيبان عن نوفل بن أبى عقرب قال : خرج الحارث بن هشام من مكة ، فجزع أهل مكة جزعًا شديدًا . فلم يبقَ أحد يطعم الطعام إلا خرج معه يشيِّعه ، حتى إذا كان بأعلى البطحاء أو حيث شاء الله من ذلك، وقف ووقف الناس . فقال : يا أيها الناس ! إنى والله ما خرجت رغبةً بنفسى عن

---

(١) قال الواقدى حدثنى عبد الرحمن بن الفضل عن يزيد بن أبى سفيان عن مكحول قال : كانت وقعه اليرموك فى رجب سنة خمس عشرة من الهجرة . وراجع « فتوح الشــام » (١ / ١٣٥ - ١٣٦) لمحمد الواقدى - رحمه الله .

أنفسكم ولا اختيار بلد على بلدكم ، ولكن كان هذا الأمر فخرجت فيه رجال من قريش ، والله ما كانوا من ذوى أنسابها ولا فى بيوتها ، فأصبحنا والله ولو أنّ جبال مكة ذهبًا أنفقناها فى سبيل الله ما أدركنا يومًا من أيامهم ، والله لئن فاتونا فى الدنيا لَنَلتمسنّ أن نشاركهم فى الآخرة فاتقى الله امرؤٌ . فتوجه إلى الشام واتّبعهُ ثقَلُهُ ، فيُقال : إنه قتل يوم اليرموك رحمه الله .

* * *

٥٣ - (توبة الأنصار رضي الله عنهم)

أخبرنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن أحمد بن النقور ، قال : أنا أبو طالب عبد القادر بن محمد اليوسفى ، أنا أبو على بن المذهب ، أنا أبو بكر القطيعى ، ثنا عبد الله بن أحمد ، ثنا أبى ، ثنا عارم ، ثنا معتمر بن سليمان ، قال : سمعت أبى يقول : ثنا السُّمَيْط السَّدوسّى ، عن أنس ابن مالك ، قال :

فتحنا مكة ثمّ إنا غزونا حُنَيْنًا ، فجاء المشركون بأحسن صفوف رُئيتْ أو رأيتُ . قال : فلم نلبث أن انكشفتْ خيلُنا وفرّت الأعراب ومن تعلم من الناس . قال : فنادى رسول الله ﷺ : « يا للمهاجرين ! يا لَلمهـاجرين ! يا للأنصار ! يا لَلأنصار ! » قال : قلنا : لبيك ، يا رسول الله ! قال : فتقدمّ رسول الله ﷺ . قال : وايم الله ما أتيناهم حتى هزمهم الله . قال : فقبضـنا ذلك المال . قال : فنزلنا ، فجعل رسول الله ﷺ يعطى الرجلَ المائةَ ويعطى الرجل .

قال : فتحدّثت الأنصار بينها : أمَّا من قاتله فيعطيه ، وأمّا من لم يقاتله فلا يعطيه . قال : فَرُفِع الحديث إلي رسول الله ﷺ فأمر بسراة المهاجرين والأنصار أن يدخلوا عليه ، ثمّ قال : « لا يدخلن عليّ إلا أنصارى » . قال : فدخلنا حتى ملأنا القبة . فقال نبىّ الله ﷺ : « يا معشر الأنصار ! ما حديثٌ أتانى ؟ » قالوا : ما أتاك يا رسول الله ؟ قال : « ألا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وتذهبون برسول الله حتي تدخلوه بيوتكم ؟ » قالوا : رضينا يا رسول الله ! فقال رسول الله ﷺ : « لو أخذ الناس شعبًا وأخذت الأنصار شعبًا لأخذت شعب الأنصار » . قالوا : رضينا يا رسول الله ! [1] .

---

(١) وروى بنحوه البخارى (٢ / ٦٢٠ - ٦٢١) وفى سيرة ابن هشام (٢ / ٤٩٩ - ٥٠٠) ، وفى الرحيق (ص / ٤٠٧ - ٤٠٨) وحدث ذلك فى غزوة حنين أثناء تقسيم الغنائم ..

وروى هذا الحديث محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص قال : حدّثنى أبو سلمة بن عبد الرحمن وغيره ، قال : بلغ النبىّ ﷺ أن الأنصار قد قالت . قال : فدخلوا عليه ، فقال لهم : ألم أجدكم ضُلاَّلاً فهداكم الله بى ؟ قالوا: بلى ! قال : ألم أجدكم عالة فأغناكم الله بى ؟ قالوا : بلى : قال ألم أجدكم أعداءً فألف الله بين قلوبكم بى ؟ قالوا : بلى ! قال : أما إنكم لو شئتم قلتم فصدقتم : جئتنا طريداً فآويناك ، قالوا : الله ورسوله أمَنُّ قال: ولو شئتم قلتم : قد جئتنا مخذولاً فنصرناك، قالوا : الله ورسوله أمن . قال : ولو شئتم قلتم : جئتنا عائلاً فآسيناك ، قالوا : الله ورسوله أمَنُّ . قال : أفلا ترضون أن ينقلب الناس بالشاة والبعير وتنقلبون برسول الله إلى رحالكم ؟ قالوا : بلى ، رضينا . قال : ولو أنّ الناس سلكوا واديًا أو شعبًا لسلكت وادى الأنصار وشعبهم ، ولولا الهجرة لكنتُ امرءًا من الأنصار ، الناس دثار والأنصار شعار .

* * *

٥٤ - (توبة أبى محجن الثقفى رضي الله عنه)

أخبرنا الرئيس العالم الأديب أبو العزّ محمد بن محمد بن مواهب بن الخراسانى قال : أنا أبو غالب محمد بن عبد الواحد القزّاز ، أنا أبو الحسن علىّ بن عمر البرمكىّ وأبو الحسين بن النقور قالا : أنا أبو طاهر محمد بن عبد الرحمن المخلص ، أنا أبو بكر أحمد بن عبد الله بن سيف ، أنا أبو عبيدة السرىّ بن يحيى ، أنا شعيب بن إبراهيم ، قال : أنبأ سيف بن عمر التميمى ، عن محمد وطلحة وابن مخراق وزياد ، قالوا :

لمَّا اشتدّ القتال بالسواد - يعنى فى القادسية - وكان أبو محجن قد حبس وقيد فهو فى القصر ، فأتى سلمى بنت حفصة امرأة سعد ، فقال : يا بنت آل حفصة ! هل لك إلى خير ؟ قالت : وما ذاك ؟ قال : تخلين عنى وتعيريننى البلقاء ، فلله علىّ إن سلمنى الله أن أرجع حتى أضع رجلىَّ فى قيدىَّ ، وإن أُصبت فما أكثرَ من أُفلت . فقالت : ما أنا وذاك ؟ فرجع يرسف فى قيوده ويقول :

كَفى حزنًا أنْ تُردى الخيلُ بالقَنا   وأُترَكَ مشدُودًا علىَّ وثاقيَا
إذَا قمْتُ عنَّانى الحديدُ وغلِّقتْ   مصاريعُ دونى قدْ تصمُّ المناديَا
وقدْ كنتُ ذَا مالٍ كثيرٍ وإخوَةً   فقدْ تركونى واحدًا لا أخا ليَا

وللهِ عهدٌ لا أخيسُ بعهـــــدِهِ   لئنْ فرِّجت أنْ لا أزورَ الحوانيا

فقالت سلمى : إنى استخرت الله ورضيت بعهدك . فأطلقته .

فاقتاد الفرس فأخرجها من باب القصر فركبها ، ثمّ دبّ عليها حتى إذا كان بحيال الميمنة كبر ، ثمّ حمل على ميسرة القوم يلعب برمحه وسلاحه بين الصفين . ثمّ رجع من خلف المسلمين إلي الميسرة ، فكبر على ميمنة القوم يلعب بين الصفين برمحه وسلاحه ، ثم رجع خلف المسلمين إلى القلب فبدر أمام الناس فحمل على القوم يلعب بين الصفّين برمحه وسلاحه . وكان يقصف الناس ليلتئذ قصفًا منكرًا ، وتعجب الناس منه وهم لا يعرفونه ولم يروه من النهار .

فقال بعضهم : أوائل أصحاب هاشم ، أو هاشم نفسه . وقال بعضهم : إن كان الخَضِر يشهد الحروب فنظن صاحب البلقاء الخضر . وقال بعضهم : والله لولا أنّ الملائكةَ لا تباشر لقلت : مَلَك بيننا ولا يذكره الناس ولا يأبهون له لأنه بات فى محبسه . وجعل سعد يقول : والله لولا محبس أبى محجن لقلت : إنّ هذا أبو محجن وهذه البلقاء فلما انتصف الليل تحاجز الناس وتراجع المسلمون . وأقبل أبو محجن حتى دخل من حيث خرج ، فوضع عن نفسه ودابته وأعاد رجليه فى قيديه .

وذكر عبد الرزاق قال : وأخبرنا معمر عن أيوب عن ابن سيرين ، قال : كان أبو محجن الثقفى لا يزال يجلد فى الخمر ، فلما أكثر عليهم سجنوه وأوثقوه . فلما كان يوم القادسية فكأنه رأى أنَّ المشركين قد أصابوا فى المسلمين . فأرسل إلى أمّ ولد سعد أو امرأة سعد : إن أبا محجن يقول لكِ : إن خليت سبيله وحملته على هذا الفرس ودفعت إليه سلاحًا ليكوننّ أوّل من يرجِع إليك إلا أن يقتل . وأنشأ يقول :

كفى حزنًا أنْ تلتقى الخيلُ بالقنا   وأُتركَ مشدودًا علىَّ وثَاقيَـــــا
إذا قمتُ عنَّانى الحـديدُ وغلِّقَتْ   مصاريعُ منْ دونى تصمُّ المناديا

فحلت عنه قيوده وحمل على فرس كان فى الدار وأعطى سلاحًا .

ثم خرج يركض حتى لحق بالقوم ، فجعل لا يزال يحمل على رجل فيقتله ويدقّ صلبه . فنظر إليه سعد فجعل يتعجّب ويقول : من ذاك الفارس ؟

قال : فلم يلبثوا إلا يسيرًا حتى هزمهم الله . ورجع أبو محجن وردّ السلاح وجعل رجليه فى القيود كما كان . فجــاء سعد ، فقالت له امرأته : كيف كان

قتالكم ؟ فجعل يخبرها ويقول : لقينا ولقينا ، حتى بعث الله رجلاً على فرس أبلق ، لولا أنى تركت أبا محجن فى القيود لقلت : إنهـا بعض شمائل أبى محجن . فقالت : والله إنه لأبو محجن ، كان من أمره كذا وكذا . فقصَّت عليه قصته .

فدعا به ، فحلّ قيوده وقال : لا نجلدك على الخمر أبدًا . قال أبو محجن : وأنا والله لا أشربها أبدًا ، كنت آنف أن أدعها من أجل جَلدكم . قال : فلم يشربها بعد ذلك .

وقيل : قال أبو محجن : قد كنت أشربها إذ ،يقام عليّ الحد وأُطهر منها ، فأما إذ بهرجتنى ، فوالله لا أشربها أبدًا . وكان أبو محجن أسلم حين أسلمت ثقيف . وسمع من النبى ﷺ وروى عنه . واسمه مالك ، وقيل : عبد الله بن حبيب ، وقيل : اسمه كنيته .

* * *

٥٥ - (توبة طلحة بن خويلد رضي الله عنه)

أخبرنا أبو منصور جعفر بن عبد الله بن الدامغانى ، أنا أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار الصيرفىّ ، أنا أبو منصور بن السوّاق ، أنا أبو القاسم إبراهيم بن أحمد الخرقىّ ، أنا أبو بكر أحمد بن الحسين بن سفيان ، أنا أبو جعفر أحمد بن عبيد بن ناصح ، أنا محمد بن الواقدىّ ، وذكر أمر طليحة بن خويلد حين تنبأ وقتاله إلى أن كسر عسكره ، قال : فحدّثنى موسى بن محمد إبراهيم التميمى عن أبيه ، قال :

لما رأى طليحة أن الناس يقتلون ويؤسرون أعدّ فرسه وهيأ امرأته عنده ، فوثب على فرسه وحمل امرأته فنجا بها ، وقال : من استطاع منكم أن يفعل كما فعلت فليفعل . ثمّ هرب حتى قدم الشام ، فأقام عند بنى جفْنة الغسانيين حتى فتح الله أجنادين وتوفى أبو بكر . فقدم فى خلافة عمر مكَّة محرمًا . فلما رآه عمر قال : يا طلحة ! لا أحبك بعد قتلك الرجلين الصالحين عكاشة وثابت بن أقرم . وكان قتلهما هو وأخوه . قال : يا أمير المؤمنين ! رجلان أكرمهما الله بيدىّ ولم يهنى بأيديهما ، وما كلّ البيوت بنيت على الحبّ ولكنْ صفحةٌ جميلة ، فإنّ الناس يتصافحون على الشّنْان .

وأسلم إسلامًا صحيحًا ولم يغمصْ عليه فى إسلامه . وقال يعتذر ويذكر ما كان منه :

ندمتُ على ما كانَ من قتلِ ثابت وعكّاشةَ الغنميّ ثمَّ ابنِ معبدِ
وأعظمُ منْ هاتينِ عندى مصيبةً رُجوعى عنِ الإسلام فعلَ التعمدَ
وتركى بلادى والحوادثُ جمةٌ طريدًا وقدمًا كنتُ غيرَ مطردَ
فهلْ يقبلُ الصدِّيقُ أنى مراجعٌ ومعط بما أحدَثتُ منْ حدث يدى
وأنّى منْ بعد الضلالةِ شاهدٌ شهادةَ حقٍّ لستُ فيها بملحد
بانَّ إلهَ النَّاسِ ربِي وأننى ذليلٌ وأنَّ الدِّينَ دينُ محمَّدِ

قال الواقدىّ : وحدّثنى محمد بن يعقوب أنّ طليحة خرج غازيًا هو وأصحابه يريدون الروم . فركبوا البحر ، فبينما هم ملججين فيه ، إذ ناداهم قادس من تلك القوادس ، فيه ناس من الروم . فقالوا لهم : إن شئتم أن تقفوا لنا حتى نثب فى سفينتكم ، وإن شئتم وقفنا لكم حتى تثبوا علينا فى سفينتنا . قال طليحة لأصحابه : ما يقولون ؟ فأخبروه . فقال طليحة : لأضربنكم بسيفى ما استمسك فى يدى أو لتقربنّ سفينتنا إليهم . قال : فدنا القوم بعضهم من بعض . قال طليحة لأصحابه : اقذفونى فى سفينتهم ، فرمَوا به فِى سفيتهم ، فغشيهم بسيفه حتى تطايروا منه . فغرق من غرق واستسلم من استسلم . فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فأعجبه .

وذكر سيف بن عمر عن أبى عمرو عن أبي عثمان النهدى ، قال : أخرج سعدٌ طليحةَ فى خمسة ، وعمرو بن معدى كرب فى خمسة- يعنى عيونًا له - صبيحة قدم رستم الجالينوس وذا الحاجب . فرجع عمرو وأصحابه وأصحاب طليحة لما رأوا كثرة عدوّهم . ومضى طليحة حتى دخل عسكر رستم وبات فيه يجوسه . فلما أدبر الليل خرج وقد أتى أفضل من توسم فى ناحية العسكر . فإذا فرس لم ير فى خيل القوم مثله ، وفسطاط [1] أبيض لم ير مثله . فانتضى سيفه فقطع مقود الفرس ، فركبه وخرج يعدو به .

ونذر به الرجل والقوم ، فركبوا الصعبة والذّلول فى طلبه . فأصبح وقد لحقه فارس . فلما غشيه وبوّأ له الرمح ليطعنه عدل طليحة فرسه ، فندر الفارسىّ بين يديه . فكرّ عليه طليحة فقصم ظهره بالرمح . ثمّ لحقه آخر ، ففعل به مثل ذلك . ثمّ لحق به آخر ، ففعل به مثل ذلك . فلما كرّ عليه طليحة ، عرف أنه قاتله فاستأسر . فأمره طليحة أن يركض بين يديه ، ففعل حتى غشيا عسكر المسلمين وهم

(١) الفسطاط : بيت يُتخذ من الشعر و - : مدينة مصر العتيقة التى بناها عمرو بن العاص فى موضع فُسطاطه . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٤٧١) .

على تعبئة . فأفزع الناس وجوّزوه إلى سعد فأخبره بما صنع . وجيء بالترجمان فأُقيم بين يدى سعد والفارسى .

فقال الفارسى : أخبركم عن صاحبى هذا قبل أن أخبركم عما قبلى . باشرت الحروب وغشيتها وسمعت بالأبطال ولقيتها منذ أنا غلام إلى أن بلغت ما ترى . فلم أسمع بمثل هذا ، أن رجلاً قطع عسكرين لا تجترئ عليهما الأبطال إلى عسكر فيه سبعون ألفًا يخدم الرجل منهم الخمسة والعشرة إلي ما دون ذلك . فلم يرضَ أن يخرج كما دخل حتى سلب فارس الجند وهتك أطناب بيته ، فأنْذَره وأنذرنا به ، فأدركه فارس الناس يعدل بألف فارس فقتله . ثمّ أدركه الثانى وهو نظيره فقتله . ثمّ أدركته ، ولا أظنّنى خلفت بعدى من يعدلنى ، وأنا الثائر بالقتيلين وهما ابنا عمّى ، فرأيت الموت فاستأسرت .

ثمّ أخبره عن أهل فارس أنّ الجند عشرون ومائة الف . وأسلم الرجل ، وعاد طليحة ، وقال : والله لا تغلبون ما دمتم على ما أرى من الوفاء والصدق والإصلاح . فكان من أهل البلاء يومئذ .

* * *

ذكر التوابين من ملوك هذه الامة

٥٧ - (توبة ذى الكلاع)

ذكر محمد بن أحمد بن البراء فى كتاب « الروضة » : أنا محمد بن الرصافى ، ثنا سليمان بن معبد ، ثنا سعيد بن عُفير المصرىْ ، ثنا علوان بن داود عن رجل من قومه ، قال :

بعثنى أهلى فى الجاهلية إلى ذى الكَلاع بهدية . فأقمت ببابه سنة لا أصِلُ إليه . ثم اطلع اطلاعةً من قصره فلم يبقَ حول قصره أحد إلا خرّ له ساجدًا . ثم أمر بهديته فقبلت . ثم رأيته فى الإسلام ، قد اشترى لحمًا بدرهم وهو على فرس ، قد سمط اللحم [1] على فرسه وهو يقول :

أفٍّ للـــــدُّنيا إذَا كانتْ كذا   كلّ يومٍ أنا منهـــــا فى أذى

---

(١) سَمَطَ الذبيحة . غمسها فى الماء الحار ، أو فى مادة كيمياوية ، لإزالة ما على جلدها من شعر أو ريش قبل طبخها ، أو شيِّها أو دبغ جلدها . وراجع المعجـــم الوجيز (ص / ٣٢١) .

ولقدْ كنتُ إذا ما قيلَ : منْ أنعمُ الناسِ معاشًا ؟ قيلَ : ذا
ثمَّ بُدِّلتُ بعيشى شِقــوَةً حبذا هذا شقـــاءٌ حبــذا

وروى ابن دريد عن الرياشى عن الأصمعى ، قال : كان رسول الله ﷺ كاتَب ذا الكَلاع من ملوك الطوائف على يد جرير بن عبد الله يدعوه إلى الإسلام ، وكان قد استعلى أمره حتى ادعى الربوبية وأطيع حتى مات النبى ﷺ قبل عودة جرير ، وأقام ذو الكلاع على ما هو عليه إلي أيام عمر ، ثم رغب فى الإسلام ، فوفد على عمر ومعه ثمانية آلاف عبد ، فأســلم على يده وأعتق من عبيده أربعة آلاف . فقال له عمر : يا ذا الكلاع ! يعنى ما بقى من عبيدك حتى أعطيك ثلث أثمانهم ها هنا، وثلثًا باليمن ، وثلثًا بالشام. قال: أجلنى يومى هذا أفكر فيما قلت ، ومضى إلي منزله فأعتقهم جميعًا . فلما غدا على عمر ، قال له : ما رأيك فيما قلت لك في عبيدك ؟ قال : قد اختار الله لى ولهم خيرًا مما رأيت. قال : وما هو ؟ قال : هم أحرار لوجه الله . قال : قد أصبت والله ، يا ذا الكلاع ! قال: يا أمير المؤمنين ! لى ذنب ما أظن أنّ الله يغفره لى. قال : وما هو ؟ قال : تواريتُ عمن يتعبَّد لى ثمّ أشرفتُ عليهم من مكان عال، فسجد لى زُهاءُ مائة ألف [1] إنسان. فقال عمر : التوبة بالإخلاص والإنابة بالإقلاع يرجى بهما مع رأفة الله الغفرانُ . قال الله تعالى : ﴿ لا تقنطُوا منْ رحمةِ الله ﴾ (الزمر : ٥٣) .

* * *

٥٨ - (توبة امير وتاجر)

أخبرنا الشيخ أبو الفرج [2] أنا أبو القاسم هبة الله بن أحمد قال : أنا أبو بكر محمد بن على الخياط ، أنا أحمد بن محمد بن العَّلاف ، ثنا الحسين بن صفوان ، ثنا أبو بكر القرشى ، حدّثنى محمد بن الحسين ، أخبرنى أبو عمر العمرى ، حدّثنى عبيد الله بن صدقة بن مرداس البكرى عن أبيه ، قال :

---

(١) زهــاء الشيء : ما يقرب منه . يقال : هُمْ زهاء ألف . وراجع المعجم الوجــــيز (ص / ٢٩٥).

(٢) وسبق أن تكلمنا عنه وهو ابن الجوزى وراجع ترجمته فى البداية والنهاية (١٣ / ٢٨) وطبقات المفسرين (١٧) وتذكرة الحفاظ (٤ / ١٣٤٢) وطبقات الحفاظ (٤٨٠) .

نظرت إلى ثلاثة أقبر على شرف من الأرض مما يلى بلاد أنطاكية فإذا على أحدها مكتوب :

وكيف يلذُّ العيشَ منْ هوَ عالمٌ بأنَّ إلهَ الخلق لا بد سـائلُهْ
فيأخذُ منهُ ظلمـــهُ لعباده ويجزيه بالخيرِ الذى هوَ فاعلُهْ

وإذا على القبر الثانى :

وكيف يَلذُّ العيشَ منْ كانَ موقنًا بأنَّ المنَايا [1] بغتةً سـتُعاجلُهْ
فتسلبُهُ ملكًا عظيمًا ونخـوةً [2] وتُسكِنُهُ البيتَ الذى هو آهلُهُ

وإذا على القبر الثالث إلى جنبهما :

وكيفَ يلذُّ العيشَ منْ كان صـائرًا إلى جدث [3] تبلى الشبابَ مناهلهُ
ويذهبُ رسمَ الوجه من بعد صونه سريعًا ويبلَى جســمهُ ومفاصلهْ

وإذا هى قبور مسنَّمة على قدر واحد مصطفَّة . فقلت لشيخ جلست إليه : لقد رأيت فى قريتكم عجبًا . قال : وما رأيت ؟ فقصصت عليه قصة القبور . قال : فحدثيهم أعجب مما رأيت على قبورهم .

قال : فقلت : حدّثنى . قال : كانوا ثلاثةَ إخوة ، أمير يصحب السلطان ويؤّمر على المدائن والجيوش ، وتاجر موسر مطاع فى خاصته ،وزاهد قد تخلى لنفسه وتفرّد لعبادته . قال : فحضرت أخاهم العابدَ الوفاةُ ، فاجتمع عنده أخواه . وكان الذى يصحب السلطان منهم قد ولى بلادنا هذه ، أمَّره عليها عبد الملك بن مروان ، وكان ظالمًا غشومًا [4] متعسفًا . فاجتمعا عند أخيهما لما احتُضر ، فقالا له : أوص . قال : لا والله ما لى من مال فأوصى فيه ، ولا لى على أحد دين فأوصى به ، ولا حلف من الدنيا شيئًا فأُسلبه . فقال له أخوه ذو السلطان : أى أخى ! قل لى ما بدا لك ، فهذا مالى بين يديك ، فأوص منه بما أحببت ، وأنفذ منه ما بدا لك ، واعهد إلىّ بما شئت . قال : فسكت عنه . فقال أخوه التاجر : أى أخى ! قد عرفت

---

(١) المنايا : أى الموت ومفردها منية . والمنون : أى الكثير المن و - : الدهر و - : الموت . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٥٩٢ - ٥٩٣) .
(٢) النخوة : أى الحماسة والمروءة و العظمة والتكبر . وراجع المعجم الوجيز(ص/٦٠٧)
(٣) الجدث : القبر . والجمع أجداث . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٩٤) .
(٤)غَشَمَ : الرجلُ - غشمًا : ظلمه أشد الظلم . فهو غاشم . والغشوم : الشديد الظلم . وأما الغشيم : الجاهل الذى يتصرف فى الأمور بلا نظر أو فكر وراجع المعجم الوجيز (ص / ٤٥٠ - ٤٥١) .

مكسبى وكثرة مالى ، فلعلّ في قلبك غصة من الخير لم تكن تبلغها إلا بالإنفاق فيها، فهذا مالى بين يديك ، فاحتكم فيه بما أحببت ينفذْ لك أخوك .

فأقبل عليهما ، فقال : لا حاجة لى فى مالكما ، ولكنى سأعهد إليكما عهداً فلا تخالفا عهدى . قالا : اعهد . قال : إذا مت فغسلانى وكفنانى وادفنانى عى نشز[1] من الأرض واكتبا على قبرى :

وكيفَ يلذ العيشَ من هُوَ عالمٌ   بأنَّ إلهَ الخلـــق لا بدَّ سائلُه
فيأْخذُ منهُ ظلمـــــــهُ لعباده   ويجزيه بالخير الذى هو فاعله

فإذا أنتما فعلتما ذلك فأتيانى كل يوم مرة لعلكما أن تتعظا .

قال : ففعلا ذلك لمَّا مات . قال : وكان أخوه يركب فى جنده حتى يقف على القبر . فينزل فيقرأ ما عليه ويبكى . فلما كان فى اليوم الثالث جاء كما كان يجىء مع الجند ، فنزل فبكى كما كان يبكى . فلما أراد أن ينصرف سمع هدَّةً من داخل القبر كاد ينصدع لها قلبــه ، فانصرف مذعوراً فزعا [2] . فلما كان الليل رأى أخاه فى منامه . فقال : أى أخى ! ما الذى سمعتُ من قبرك ؟ قال : تلك هدَّة المقْمعة . قيل لى : رأيت مظلومًا فلم تنصره . قال : فأصبح مهمومًا . فدعا أخاه وخاصته وقال : ما أرى أخى أراد بما أوصانا أن نكتب على قبره غيرى ، وإنى أشهدكم أنى لا أقيم بين ظهرانيكم أبداً . قال : فترك الإمارة ولزم العبادة . وكتب إلى عبد الملك ابن مروان فى ذلك ، فكتب أن خلوه وما أراد . فكان إنما يأوى الجبال والبرارىّ حتى حضرته الوفاةُ فى هذا الجبل وهو مع بعض الرعاة . فبلغ ذلك أخاه ، فأتاه فقال : أى أخى! ألا توصى ؟ قال : بم أوصى ؟ مالى من مال فأوصى به ؛ ولكن أعهد إليك عهداً ؛ إذا أنامت فبوأتنى قبرى فادفنى إلى جنب أخى واكتب على قبرى:

وكيف يلذُّ العيش منْ كان موقنًا   بأنَّ المنايا بغتةً ســـتُعاجلُهْ
فتلبُسه مُلْكا عظيمـــــا ونخوةً   وتُسكنُهُ القبر الذى هُو آهلهُ

ثم تعاهدنى ثلاثاً ، فادعُ لى لعلّ الله أن يرحمنى .

---

(١) نَشَزَ : ارتفع . ويقال نشز المكان ، ونشز العرق و - عن مكانه ، وفيه : ارتفع عنه ونهض . والجمع نواشز . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٦١٦) .

(٢) فَزَعَ : خاف وذعر و - إليه : لجأ واستغاث . فَزَّعَ : كشف عنه الفزع وفى القرآن الكريم « حتى إذا فُزِّع من قلوبهم » . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٤٧٠) .

قال : فمات ، ففعل به أخوه ذلك . فلما كان اليوم الثالث من إتيانه إياه ، فدعا له وبكى عند قبره . فلما أراد أ ينصرف سمع وجبة [1] من القبر كادت تُذهلُ عقله ، فرجع متقلقلاً . فلما كان من الليل إذا بأخيه فى منامه قد أتاه . قال ذلك الرجل : فلما رأيت أخى وثبتُ إليه ، فقلت : أى أخى ! أتيتنا زائرًا ؟ قال : هيهاتَ أخى ! بعدَ المزارُ واطمأنت بنا الديار . قلت : أى أخى ! كيف أنت ؟ قال : بخير ، ما أجمع التوبةَ لكل خير ! قال : قلت : فكيف أخى ؟ قال : ذلك مع الأئمة الأبرار. قال : قلت : فما أمرنا قبلكم ؟ قال : من قدّم شيئًا من الدنيا والآخرة وجده ، فاغتنم وجُدك قبل فقرك . قال : فأصبح أخوه معتزلاً للدنيا قد انخلع منها، ففرّق ماله وقسم رباعه وأقبل على طاعة الله تعالى . قال : ونشأ له ابنٌ كأهيأ الشباب وجهًا وجمالاً . فأقبل على التجارة حتى بلغ منها . وحضرتْ أباه الوفاة ، فقال له ابنه : يا أبت ألا توصِ ؟ قال : والله يا بنىّ ! ما لأبيك مال فيوصى فيه ولكنى أعهد إليك عهدًا ، إذا أنا متّ فادفني مع عَمومتك واكتب على قبرى هذين البيتين :

وكَيْفَ يلذُّ العيشَ منْ هوَ صـــائرٌ إلى جــدَث تبلى الشبابَ منازله

ويذهبُ رَسم الوجه منْ بَعْد صونه ســـريعًا ويبْلى جسمُهُ ومفاصلُهْ

فإذا فعلت ذلك فتَعاهدنّى بنفسىَ ثلاثاً ، فادعُ لى .

ففعل الفتى ذلك . فلما كان اليوم الثالث سمع من القبر صوتًا اقشعرّ له جلده وتغير له لونه ، فرجع منه محمومًا إلى أهله . فلما كان من الليل أتاه أبوه فى منامه، فقال له : أى بنىّ ! أنت عندنا عن قليل ، والأمر بآخره ، والموت أقرب من ذلك ، فاستعدّ لسفرك وتأهب لرحيلك وحوّل جهازَك من المنزل الذى أنت عنه ظاعن إلى المنزل الذى أنت فيه مقيم ، ولا تغترّ بما اغترّ به المبطلون قبلك من طول آمالهم فقصروا عن أمر معادهم فندموا عند الموت أشدّ الندامة ، وأسفوا على تضييع العمر أشدّ الأسف ، فلا الندامة عند الموت تنفعهم ، ولا الأسف على التقصير أنقذهم من شرّ ما وافى به المغبونون مليكهم يوم القيامة ، أى بنىّ ! فبادر ! ثمّ بادر ! ثمّ بادر !

قال عبيد الله بن صدقة : قال الشيخ الذى حدّثنى بهذا الحديث :فدخلت على هذا الفتى صبيحة ليلته من هذه الرؤيا ، فقصها علينا ، وقال : ما أرى الأمر إلا كما قال أبى ، ولا أرى الموت إلا قد أظلنى قال : فجعل يفرّق ماله ويقضى ما عليه من الدَّين ويستحلّ خلطاء ومعامليه ويحللهم ويسلم عليهم ويودّعهم ويودّعونه ، كهيئة

---

(١) وَجَبَ : سقط إلى الأرض وفى القرآن « فإذا وَجَبَتْ جنوبها فكلوا منها » . ويقال: وَجَبَ القلب : خفق واضطرب ورجَفَ . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٦٦٠) .

رجل قد أُنذر بأمر فهو يتوقعه · وكان يقول : قال أبى : فبادر ! ثمّ بادر ! ثمّ بادر ! فهذه ثلاث ، فهي ثلاث ساعات قد مضت فليست بها ، أو ثلاثة أيام وأنّى لى بها ، أو ثلاثة أشهر وما أُرانى أُدركها ، أو ثلاث سنين فهو أكثر من ذلك ، وما أحبّ أن يكون ذلك كذلك ·

قال : فلم يزل يعطى ويقسم ويتصدّق ثلاثة أيام ، حتى إذا كان فى آخر اليوم الثالث من صبيحة هذه الرؤيا دعا أهله ، وولده فودّعهم وسلم عليهم · ثمّ استقبل القبلة ، فمدّد نفسه وأغمض عينيه وتشهد شهادة الحقّ ، ثمّ مات رحمه الله تعالى · قال : فمكث الناس حينًا ينتابون قبره من الأمصار فيصلون عليه ·

* * *

٥٩ - (توبة ملك من ملوك البصرة) [١]

وأنبأنا المبارك بن علىّ ، أنا هبة الله بن أحمد الجريرىّ ، أنا أبو طالب العشارى، أنا محمد بن عبد الله الدقاق ، أنا الحسن بن صفوان ،قال : أنا ابن أبى الدنيا قال : حدثنى محمد بن الحسين ، قال : حدّثنى سليمان بن أيوب قال : سمعت عبَّاد بن عبَّاد المهلبىّ يقول :

إن ملكًا من ملوك أهل البصرة تنسَّك [٢] · ثمّ مال إلى الدنيا والسلطان ، فبنى دارًا وشيدّهاَ ، وأمر بها ففرشت له ونجدت ، واتخذ مائدة وصنع طعامًا ودعا الناس· فجعلوا يدخلون عليه ويأكلون ويشربون وينظرون إلى بنيانه ويعجبون من ذلك ويدعُون له ويتفرَّقون · قال : فمكث بذلك أيامًا حتى فرغ من أمر الناس · ثم جلس ونفر من خاصة إخوانه ، فقال : قد ترون سرورى بدارى هذه ، وقد حدّثت نفسى أن أتخذ لكلّ واحد من ولدى مثلها ، فأقيموا عندى أيامًا أستمتعْ بحديثكم وأُشاورْكم فيما أريد من هذا البناء لولدى · فأقاموا عنده أيامًا يلهون ويلعبون ، ويشاورهم كيف يبنى لولده ، وكيف يريد أن يصنع ·

(١) البَصْرةُ : مدينة كبيرة فى العراق · وبمعنى : الحجارة الرِّخوْة فيها بياض و - : الطين · والأول هو المقصود هنا · وراجع المعجم الوجيز (ص / ٥٣) ·

(٢) تَسَكَ فلان : تزهد وتعبد · والمنسك : طريقة الزهد والتعبد · وفى القرآن الكريم « ولكل أمة جعلنا منسكًا » والجمع : مناسك · وراجع المعجم الوجيز (ص / ٦١٤) ·

فبيناهم ذات ليلة فى لهوهم ذلك إذ سمعوا قائلاً من أقاصى الدار :

يا أيها البانى (و) الناسى منيَّتَهُ
لا تأْمُلنَّ فإنَّ الموْتَ مكتُوب
على الخلائقِ إنْ سُرُّوا وإنْ فرحوا
فالموتُ حتْفٌ لذى الآمالِ منصوب
لا تبنيَنَّ دِيارًا لستَ تسكُنُها
وراجعِ النسك كما يُغفرَ الحوب

قال : ففزع لذلك وفزع أصحابه فزعًا شديدًا وراعهم ما سمعوا من ذلك . فقال لأصحابه : هل سمعتم ما سمعتُ ؟ قالوا : نعم . قال : فهل تجدون ما أجد ؟ قالوا : وما تجد ؟ قال : أجد والله مسكة على فؤادى وما أراها إلا علة الموت . قالوا: كلا ، بل البقاء والعافية .

قال : فبكى ، ثمّ أقبل عليهم ، فقال : أنتم أخلائّى وإخوانى ، فماذا لى عندكم ؟ قالوا : مرنا بما أحببت من أمرك . قال : فأمر بالشراب فأُهريقَ ، ثم أمر بالملاهى فأُخرجت ، ثمّ قال : اللهم ! إنى أُشهدك ومن حضرنى من عبادك أنى تائب إليك من جميع ذنوبى ، نادم على ما فرَّطت فى أيام مهلتى ، وإياك أسأل إن أقلتنى أن تتم نعمتك على بالإنابة إلى طاعتك ، وإن أنت قبضتنى إليك أن تغفر لى ذنوبى تفضلاً منك علىَّ . واشتدّ به الألم ، فلم يزل يقول : الموت واللهِ ! الموت والله ! حتى خرجت نفسه . فكان الفقهاء يرون أنه مات على توبة .

* * *

٦٠ - (توبة ملك من ملوك البصرة وجاريته)

ورُوى عن مالك بن دينار رحمه الله . أنه كان يومًا ماشيًا فى أزقة البصرة ، فإذا هو بجارية من جوارى الملوك راكبة ومعها الخدم ، فلما رآها مالك ، نادى : أيتها الجارية ! أيبيعك مولاكِ ؟ قالت : كيف قلتَ يا شيخ ؟ قال : أيبيعك مولاكِ ؟ قالت : ولو باعنى كان مثلَك يشترينى ؟ قال : نعم ، وخيرًا منك . فضحكت وأمرت أن يحمل إلى دارها ، فحمل ، فدخلت إلى مولاها فأخبرته . فضحك وأمر أن يدخل إليه . فدخل ، فأُلقيت له الهيبة فى قلب السيد ، فقال : ما حاجتك ؟

قال: بعنى جاريتك ، قال : أو تطيق أداء ثمنها ؟ قال : فثمنها عندى نوتان مسوّستان. فضحكوا ، وقالوا : كيف كان ثمنها عندك هذا ؟ قال : لكثرة عيوبها . قالوا : وما عيوبها ؟ قال : إن لم تتعطر زفرت ، وإن لم تستك بخرت ، وإن لم تمتشط وتدّهن قملت وشعثت ، وإن تعمَّر عن قليل هرمت ، ذات حيض وبول وأقذار حمة ، ولعلها لا تودّك إلا لنفسها ، ولا تحبك إلا لشغفها بك ، لا تفى بعهدك ، ولا تصدق فى ودّك ، ولا يخلف عليها أحد من بغدك إلا رأته مثلك ؛ وأنا آخذ بدون ما سألت فى جاريتك من الثمن جاريةً خلقت من سلالة الكافور [1] ، لو مزج بريقها أُجاج لطاب ، ولو دُعى بكلامها ميت لأجاب ، ولو بدا معصمها للشمس لأظلمت دونه ، ولو بدا فى الليل لسطع نوره ، ولو واجهت الآفاق بحليها وحللها لتزخرفت ، نشأت بين رياض المسك والزعفران ، وقصرت فىْ أكنان النعيم ، وغذيت بماء التسنيم ، فلا تخلف عهدها ، ولا يتبدّل ودّها ؛ فأيهما أحقّ برفعة الثمن ؟ قال : التى وصفتَ . قال : فإنها الموجودة الثمن القريبة المخطب . قال : فما ثمنها رحمك الله ؟ قال : اليسير المبذول ، أن تفرّغ ساعة فى ليلك فتصلى ركعتين تخلصهما لربك، وأن يوضع طعامك فتذكر جائعك فتؤثر الله على شهوتك ، وأن ترفع عن الطريق حجرًا أو قذرًا ، وأن تقطع أيامك بالبلغة [2] وترفع همتك عن دار الغفلة ، فتعيش فى الدنيا بعز القنوع ، وتأتى غدًا إلي موقف الكرامة آمنًا ، وتنزل غدًا فى الجنة مخلدًا .

فقال الرجل : يا جارية ! أسمعت ما قال شيخنا هذا ؟ قالت : نعم قال : أفصدقَ أم كذبَ ؟ قالت : بل صدق وبرّ ونصح . قال : فأنتِ إذًا حرّة لوجه الله ، وضيعة كذا وكذا صدقة عليك ، وأنتم أيها الخدّام ، أحرار ، وضيعة كذا وكذا لكم، وهذه الدار بما فيها صدقة مع جميع مالى فى سبيل الله . ثم مدّ يده إلى ستر خشن كان على بعض أبوابه فاجتذبه ، وخلع جميع ما كان عليه واستتر به .

---

(١) الكافور : شجر من الفصيلة الغارية ، يُتخذ منه مادة ، شفافة بلورية الشكل يميل لونها إلى البياض رائحتها عطرية ، وطعمها مر ، وهو أصناف كثيرة . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٥٣٧) .

(٢) البُلغَةُ : ما يكفى لِسَدِّ الحاجة ولا يفضل عنها . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٦١- ٦٢)

قالت الجارية : لا عيش لى بعدك يا مولاى ! فرمت بكسوتها ولبست ثوبًا خشنًا وخرجت معه . فودّعهما مالك ودعا لهما ، وأخذ طريقًا وأخذا غيره . فتعبدا جميعًا حتى جاء الموت فنقلهما على حال العبادة رحمة الله عليهما .

* * *

٦١ - (توبة أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان) (١)

أخبرنا أبو الفتح محمد بن عبد الباقى قال : أنا محمد بن أبى نصر الحميدى قال : أنا الخضر بن ميمون البابى ، أنا أبو بكر أحمد بن عمر البزاز ، أنا أبو منصور محمد بن عيسى بن عبد العزيز ، ثنا على بن الحسن بن الربيع ، ثنا أبو على الحسن بن يزيد الدقاق عن يعقوب بن إسحاق قال : سمعت إبراهيم بن الجنيد ، قال : ناموس القطان ، ثنا أحمد بن محمد ، ثنا أبو علىّ ، ثنا محمد بن على الزعفرانى قال : سمعت أحمد بن رياح الكاتب يحكى عن الهيثم بن عدى عن مروان بن محمد، قال :

دخلتْ عزّةُ صاحبةُ كثيِّر على أمّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان أخت عمر ، فقالت لها : يا عزّة ! ما معنى قول كُثيِّر :

قَضَى كُلُّ ذِى دَينٍ عَلْمتُ غَرِيمه
وَعزَّةُ مَمْطُولٌ مُعَنىً غريمُها

ما هذا الدين الذى يذكره ؟ قالت : اعفينى . قالت : لا بدّ من إعلامك إياى. فقالت عزّة : كنتُ وعدتُه قبْلةً ، فأتانى لينتجزها فتحرّجت عليه ولم أفِ له ، فقالت لها أمّ البنين : أنجزيها منه ، وعلىَّ إثمها . ثمّ راجعت نفسها فاستغفرتِ الله ، وأعتقت لكلمتها هذه أربعين رقبة . وكانت إذا ذكرت ذلك بكت حتى تبلّ خمارها ، وتقول : يا ليتنى خرس لسانى عندما تكلمت بها ! وتعبَّدتْ عبادةً ذكرتْ بها فى

(١) أم البنين هى : بنت عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس - أبو الأصبغ القرشى الأموى . وكانت أخت عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه . وزوجة الوليد بن عبد الملك بانى جامع دمشق وهو الذى أمر عمر بن عبد العزيز بادخال حُجر أزواج الرسول ﷺ بالمسجد وكانت بدعة عظيمة جعلها عباد القبور حجة لهم . ويقول ابن جرير : أنه كان فى شهر ربيع الأول من سنة ثمان وثمانين من الهجرة . وراجع البداية والنهاية (٥ / ٧٩ - ٨٠) و (٥ / ١٠٠) .

عصرها من شدّة اجتهادها . فرفضت فراش المملكة تحيي ليلها وكانت كلّ جمعة تحْمل على فرس في سبيل الله . وكانت تبعث إلى نسوة عابدات يجتمعن عندها ويتحدّثن ، فتقول : أحبّ حديثكنّ ، فإذا قمت إلى صلاتي لهوت عنكنّ . وكانت تقول : البخيل كلّ البخيل من بخل على نفسه بالجنة . وكانت تقول : جعل لكلّ إنسان نهمة في شيء وجعلت نهمتي في البذل والإعطاء ، والله للعطيةُ والصلة والمواصلة في الله أحبٌّ إلى من الطعام الطيب على الجوع والشراب البارد على الظمأ ، وهل ينال الخير إلا بالاصطناع ؟ وكانت على مذهبٍ جميلٍ حتى تُوفيت رحمها الله تعالى .

* * *

٦٢ - (توبة هشام بن عبد الملك) (١)

قال مموس : وحدّثنا أحمد بن محمد بن إبراهيم ، ثنا القاسم بن جعفر ، ثنا على بن حجر الواسطى نذل : حدّثني عيسى بن الفضل بن موسى أنه سمع إسحاق بن إبراهيم الموصلي يقول : حدّثني محمد بن عبد الرحمن الهاشمي عن أبيه عن سليمان بن خالد :

أنّ هشام بن عبد الملك ذُكرت له ربيبةٌ لبعض عجائز الكوفة ، موصوفةٌ مشهورة ببارع الجمال ، فائقة الحسن والكمال ، قارئةٌ لكتاب الله عزّ وجلّ ، روايةٌ للأشعار مع عقل وأدب ، فأمر أن يُبرد إلى والى الكوفة أن تُبتاع له بحكم مولاتها ، ويعجل حملها إليه ، وبعث في ذلك خادمًا . فلما ورد الكتاب على الوالي بعث إلى العجوز، فابتاع منها الربيبة بمائتي ألف درهم وحديقة نخل تستغل منها كلّ سنة

---

(١) وهو : هشام بن عبد الملك بن مروان : ولد سنة ثنتين وسبعين : وسماه والده بالمنصور » لأنه ولد لما قتل أبوه عبد الملك - مصعب بن الزبير ، ولكن أمه اسمته باسم أبيها، وبويع له بالخلافة يوم الجمعة بعد موت أخيه سنة خمس ومائة . وتوفى بالرصافة سنة ١٢٥ هـ . وراجع ترجمته في البداية والنهاية (٩ / ٣٠٧) . وقال أبو بكر الخرائطي : يقال إن هشام لم يقل من الشعر سوى :

إذا أنت لم تعْص الهوى قادك الهوى إلى كلٌ ما فيـــــــــه عليك مقال

وروى له غير ذلك وكان حازمًا في خلافته جماعًا للأموال ويبخل ، وراجع البداية والنهاية (٩ / ٤٦٠ - ٤٦١ - ٤٦٥) .

خمسمائة مثقال . وجهز الجارية وحملها إلى هشام . وفرَّغ لها مقصورة مفردة أنزلها فيها مع وصائف ، وأمر لها بأنواع اللباس وفاخر الحليّ والفرش . فبينا هو ذات يوم قد خلا بها فى مستشرف قد أهدّت فيه الفرش والطيب ، فتذاكرا فيه طرائف الأخبار، وبلاغة الآثار ، فازداد بها سرورًا ، واجتمعت مسرته ، إذا صوارخ ، فاستشرف هشام ، فإذا بجنازة معها فئام من الناس ووراء الجنازة نسوة صارخات ، ونادبة فيما بيهنّ تقول : بأبى المحمول على الأعواد ، المنطلَق به إلى الأموات ، المخلَّى فى قبره فريدًا ، والمكوَّن فى لحده [1] غريبًا ، ليت شعرى ، أيها المنقول ! أنت ممّن يناشد حملته : أسرعوا بى ! أمّ أنت ممن يناشدهم : ارجعوا بى ! إلام تقدّمونى؟ قال :فأهملت عينا هشام دموعًا ، فلها عن لذته وجعل يقول : كفى بالموت واعظًا . فقالت غضيض : قد قطعت نياط قلبى هذه النادبة . قال هشام : الأمر جدّ . فنادى الخادم ، فنزل عن مستشرفه فمضى ، فأغفت غضيض فى مجلسها، فأتاها آت فى منامها ، وقال لها : أنت المفتنَة بجمالك ، والملهية بدلالك ! كيف أنت إذا نقرَ فى الناقور ، وبعثرت القبور ، وخرجوا منها إلى النشور ، وقوبلوا بالأعمال التى قدّموها؟ فاستيقظت مرتاعة وراحت من شرابها ، فنادت بعض وصائفها ودعت بماء فاغتسلت ، وألقت عنها لباسها وحليها وتدرَّعت بمدرْعة صوف وحزمت وسطها بخيط، وتناولت عصًا وألقت فى عنقها جرابًا . واقتحمت مجلس هشام ، فلما رآها أنكرها . فنادت : أنا غضيض أمتَك ، أتانى النذير فقرع مسامعى وعيده ، وقد قضيتَ منى وطرًا وقد أتيتك لتعتقنى من رقّ الدنيا . فقال هشام : شتّان ما بين الطربين وأنتِ فى طريك ! اذهبى ، فأنتِ حرّة لوجه الله تعالى ، قال : أىّ موضع تقصدين ؟ قالت : أؤُمّ بيت الله الحرام . قال : انطَلقى ، فلا سبيل لأحد عليك .

---

(١) اللحد : بفتح اللام والضم وسكون الحاء - وهو الشق فى عرض القبر جانب القبلة؟ والشق : هو الضريح ، وهو الشق فى وسط القبر . للحديث « اللحد لنا والشق لغيرنا » والحديث رواه أبو داود كتاب الجنائز (٢٠) ، (٦١) باب اللحد . . « ح » (٣٢٠٨) والنسائى (٢١) كتاب الجنائز (٨٥) باب اللحد . والترمذى (٨) كتاب الجنائز ، باب (٥٣) «ح» (١٠٤٧) وقال : حسن غريب . وراجع صحيح الجامع برقم (٥٤٨٩) ، وفى أحكام الجنائز (١٤٤) . وعند أحمد فى المسند « بزيادة » « لغيرنا من أهل الكتاب » وصححه الألبانى . وراجع صحيح الجامع برقم (٥٤٩٠) .

فخرجت من دار الخلافة زاهدة فى الدنيا ، راغبة فى الآخرة ، سائحة على وجهها حتى بلغت مكّة . وأقامت مجاورة صائمة قائمة تعود على نفسها بالغزل فى قوتها . فإذا أمست طافت ، ثم تدخل الحِجْر[1] وتقول : يا ذخرى أنت عدّتى ، لا تقطع رجائى وأنلْنى مُنايَ وأحْسِنْ مُنْقَلبى وأجْزِلْ عطائى . فلم تزل فى الاجتهاد حتى غير مَرُّ الجديدَين الليل والنهار بَشرتَها ، وطولُ القيام جسمها ، وكثرةُ البكاء عينَيْها ، وأقرح المغزلُ بنانها ، حتى تُوفيت - رحمة الله عليها - على ذلك .

* * *

٦٣ - (توبة الأمير حميد بن جابر)

أخبرنا أبو الفتح محمّد بن عبد الباقى ، أنا أحمد بن أحمد ، أنا أحمد بن عبد الله الحافظ قال : حدّثنى إبراهيم بن نصر ، أنا جعفر بن محمّد بن نصير قال : حدّثنى إبراهيم بن بشّار ، قال :

كنت يومًا مارًا مع إبراهيم - يعنى ابن أدهم - فى صحراء ، فأتينا على قبر مسنَّم ، فترَّحم عليه وبكى . فقلت : قبرُ منْ هذا ؟ فقال : هذا قبر حميد بن جابر أمير هذه المدن كلها . كان غرقًا فى بحار الدنيا ، فأخرجه الله تعالى منها واستنقذه . ولقد بلغنى أنه سُرّ يومًا بشىء من ملاهى ملكه ودنياه وغروره وفتنته . ثم نام فى مجلسه ذلك مع من يخصّه من أهله ، فرأى فى منامه رجلاً واقفًا على رأسه ، بيده كتاب . فناوله ، ففتحه ، فإذا فيه كتاب بالذهب مكتوب : لا تؤثرونّ فانيًا على باق ، ولا تغترنْنّ بملكك وقدرتك وسلطانك وخدمك وعبيدك ولذّاتك وشهواتك ، فإنَّ الذى أنت فيه جسيم لولا أنه عديم ، وهو مُلك لولا أنّ بعده هُلك ، وهو فرح وسرور لولا أنه لهو وغرور ، وهو يوم لو كان يُوثَق له بغد ، فسارع إلى أمر الله تعالى ، فإن الله تعالى قال : (وسَارعُوا إلى مَغْفِرَةٍ مِن ربّكُمْ وَجنَّةٍ عرضُها السَّموات والأرض أعِدَّتْ لِلمتَّقين) (آل عمران : ١٣٣) .

قال : فانتبه فَزِعًا ، وقال : هذا تنبيه من الله عزّ وجلّ وموعظة فخرج من ملكه لا يُعلم به ، وقصد هذا الجبل ، فتعبد فيه ، فلما بلغنى قصتّه وحُدِّثت بأمره ،

---

(١) الحجر : ما حواه الحطيمُ ، وهو جانب الكعبة من جهة الشمال . وراجع المعجم الوجيز (ص / ١٣٦) .

قصدته ، فسألته ، فحدثنى ببدء أمره ، وحدثته ببدء أمرى ، فمازلت أقصده حتى مات ، ودُفن هاهنا ، فهذا قبره رحمه الله ٠

* * *

٦٤ - (توبة ابراهيم بن أدهم)

أخبرنا محمّد ، أنا أحمد ، ثنا إبراهيم بن عبد الله بن إسحاق ، ثنا محمد بن إسحاق السرّاج قال : سمعت إبراهيم بن بشار خادم إبراهيم بن أدهم يقول :

قلتُ : يا أبا إسحاق ! كيف كان أوائل أمـــرك ؟ قال : كان أبى من أهل «بلخ » (١) ، وكان من ملوك خراسان ، وحبّب الينا الصيد ، فخرجت راكبًا فرسى وكلبى معى ، فبينما أنا كذلك ، ثار أرنب أو ثعلب ، فحرّكتُ فرسى فسمعت نداءً من ورائى : ليس لذا خُلقتَ ولا بذا أمرتَ ! فوقفت أنظر يَمْنةً ويَسْرةً ، فلم أرَ أحدًا، فقلت : لعن الله إبليس ! ثمّ حرّكت فرسى فأسمع نداءً أجهر من ذلك : يا إبراهيم ليس لذا خُلقتَ ولا بذا أمرت ! فوقفت أنظر يَمَنةَ ويَسرَةً ، فلا أرى أحدًا ، فقلت : لعن الله إبليس ! ثم حرّكت فرسى فأسمع نداءً من قَربوس سرجى : يا إبراهيم ! ما لذا خُلقتَ ولا بذا أمرت ! فوقفت ؛ فقلت : أنبَهْتَ ! أنبَهْت ! جاءنى نذير من ربّ العالمين ، والله لا عصيت الله بعد يومى هذا ما عصمنى ربى ٠ فرجعت إلى أهلى ، ثم جئت إلى أحد رعاة أبى ، فأخذت منه جبّةً وكساءً ، وألقيت ثيابى إليه ، ثم أقبلت إلى العراق ، أرضٌ ترفَعُنى ، وأرضٌ تَضَعُنى ، حتى وصلت إلى العراق ٠ فعملت بها أيامًا ، فلم يصفُ لى منها - يعنى الحلال - فسألت بعض المشايخ ، فقال لى : إذا أردت الحلال فعليك ببلاد الشام ، فَصِرتُ إلى بلادِ الشام ، فسرت إلى مدينة يقال لها : المنصورة وهى المصيّصة ٠ فعملت بها أيامًا فلم يصفُ لى شيء من الحلال ، فسألت بعض المشايخ ٠ فقالوا لى : إن أردت الحلال الصافى ، فعليك بطرسوس ، فإن فيها المباحات والعمل الكثير ، فتوّجهت إلى طرسوس فعملت بها أيامًا أنظر البساتين وأحصد الحصاد ٠ فبينا أنا قاعد على باب البحر ، جاءنى رجل فاكترانى أنظر له بستانه ٠ فكنت فى البستان أيامًا كثيرة ، فإذا أنا بخادم قد أقبل ومعه أصحابه ٠ فقعد فى مجلسه ، ثمّ صاح : يا ناطور ! فقلت : هوذا أنا ٠ فقال :

---

(١) بلخ : وتلقب « قبة الإسلام » وهى أهم مدن خراسان وقيل : بناها بلخ بن بلاخ بن سامان بن سلام بن حام بن نوح ومنه أخذت اسمها وقيل بناها غيره ٠

اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه وأطيبه . فذهبتُ فأتيتُه بأكبر رمان ، فأخذ الخادم رمانةً فكسرها ، فوجدها حامضة ، فقال : يا ناطور ! أنت فى بستاننا منذ كذا وكذا ، تأكل فاكهتنا وتأكل رمانا ، ولا تعرف الحلو من الحامض ؟

قال إبراهيم : قلتُ : واللهِ ما أكلتُ من فاكهتك شيئًا ولا أعرف الحلو من الحامض ، فأشار الخادم إلى أصحابه ، فقال : أما تسمعون كلام هذا ؟ أتَراكَ لو أنك إبراهيم بن أدهم ما زاد على هذا ؟ فانصرف ، فلمّا كان من الغد ذكر صفتى فى المسجد ، فعرفنى بعض الناس ، فجاء الخادم ومعه عَنَق من الناس . فلمّا رأيته قد أقبل مع الناس اختفيتُ خلف الشجر والناس داخلون ، فاختلطتُ معهم وهم داخلون وأنا خارج هارب . فهذا كان أوائل أمرى وخروجى من طرطوس إلى بلاد الرمال .

* * *

(إبراهيم بن ادهم [1] والشيخ الحاج)

أخبرنا أبو بكر عبد الله بن محمّد بن أحمد بن النقور ، قال : أنا أبو القاسم علىّ بن أحمد بن بيان ، أنا أبو القاسم بن بشران ، أنا أبو بكر محمّد بن الحسين الآجرّى ، ثنا أبو الفضل العباس بن يوسف الشكلىّ قال : ثنا إبراهيم بن زياد المقرىء ، ثنا عبد الله بن الفرج ، قال : حدّثنى إبراهيم بن أدهم بابتدائه كيف كان ، قال :

كنتُ يومًا فى مجلس لى ، له منظرة إلى الطريق ، فإذا أنا بشيخ عليه أطمار [2] . وكان يومًا حارًا ، فجلس فى فَيْء القصر ليستريح . فقلت للخادم :

---

(١) إبراهيم بن أدهم هو : إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن عامر بن إسحاق التميمى ، ويقال له : العجلى أصله من بلخ ثم سكن الشام ودخل دمشق . قال النسائى : إبراهيم ثقة . وكان يقول الحزن حزنان : حزن لك وحزن عليك ، حزنك على الآخرة لك ، وحزنك على الدنيا وزينتها عليك . قال ابن عساكر : المحفوظ أن إبراهيم بن أدهم توفى سنة ثنتين وستين ومائة . وقال غيره : إحدى وستين وقيل : سنة ثلاث وقال الحافظ ابن كثير والصحيح ما قاله ابن عساكر والله أعلم . ا هـ . وروى البخارى فى كتاب الأدب عن إبراهيم بن آدهم ، وأخرج له الترمذى فى جامعه حديثًا فى المسح على الخفين . وراجع ترجمته فى البداية والنهاية (٩ / ٦٣٦ - ٦٣٧ - ٦٣٨ . . . ٦٤٧) .

(٢) الطِمر : الثوب الخلق البالى ، والجمع : أطْمَارُ . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٣٩٤) .

اخرج إلى هذا الشيخ فأقرِئه منى السلام وسَلْهُ أن يدخل إلينا ، فقد أخذ بمجامع قلبى · فخرج إليه ، فقام معه ، فدخل إلىّ فسلّم ، فرددت عليه السلام ، واستبشرت بدخوله وأجلسته إلى جنبى ، وعرضت عليه الطعام ، فأبى أن يأكل · فقلت له : من أين أقبلت ؟ فقال : من وراء النهر · فقلت : أين تريد ؟ قال : الحجّ - إن شاء الله تعالى · قال : وكان ذلك فى أوّل يوم من العَشر أو الثانى · فقلت : فى هذا الوقت ؟ فقال : بل يفعل الله ما يشاء · فقلت : الصُحبةَ · فقال : إن أحببت ذلكَ، حتى إذا كان الليل ، قال لى : قُم ، فلبست ما يصلح للسفر ، وأخذ بيدى · وخرجنا من « بلخ » [1] فمررنا بقرية لنا · فلقينى رجل من الفلاّحين ، فأوصيته ببعض ما أحتاج إليه · فقدم إلينا خبزًا وبيضًا ، وسألنا أن نأكل ، فأكلنا ، وجاء بماءٍ فشربنا ·

وقال لى : بسم الله قم ، فأخذ بيدى ، فجعلنا نسير وأنا أنظر إلى الأرض تُجذَب من تحتنا كأنها الموج · فمررنا بمدينة بعد مدينة ، فجعل يقول : هذه مدينة كذا، هذه مدينة كذا ، هذه « الكوفة » [2] · ثمّ قال : الموعد هاهنا فى مكانك هذا فى الوقت من الليل ، حتى إذا كان الوقت إذا به قد أقبل ، فأخذ بيدى وقال : بسم الله · قال : فجعل يقول : هذا منزل كذا ، هذا منزل كذا ، وهذه « فَيْدُ » وهذه المدينة [3] وأنا أنظر إلى الأرض تُجذَب من تحتنا كأنها الموج · فصرنا إلى قبر رسول الله ﷺ ، فزرناه · ثم فارقنى ، وقال : الموعد فى الوقت من الليل فى المصلّى ، حتى إذا كان الوقت خرجت فإذا به فى المصلى · فأخذ بيدى ، ففعل كفعله فى الأولى والثانية حتى أتينا مكّة فى الليل · ففارقنى ، فقبضت عليه وقلت : الصُّحبةَ· فقال : إنى أريد الشام · فقلت : أنا معك · فقال لى : إذا انقضى الحجّ فالموعد هاهنا عند زَمزَم ، حتى إذا انقضى الحجّ إذا به عند زمزم · فأخذ بيدى ، فطفنا بالبيت ، ثمّ خرجنا من مكّة · ففعل كفعله الأوّل والثانى والثالث ، فإذا نحن ببيت

---

(١) وسبق الكلام عنها : وهى مدينة خرج منها بعض أفذاذ العلم مثل السمرقندى - رحمه الله وغيره الكثير ·

(٢) الكوفة : إحدى مُدن العراق المشهورة كالبصرة وغيرها - فتحها سعد ابن أبى وقاص وذكر ذلك الواقدى رحمه الله تعالى · وراجع « من فتوح الشام » (٢ / ١١٤ - ١١٥) للواقدى - رحمة الله ·

(٣) والمقصود هنا المدينة المنورة صلى الله على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم ·

المَقْدس . فلما دخل المسجد ، قال لى : عليك السلام ! أنا على المقام - إن شاء الله - هاهنا . ثم فارقنى ، فما رأيته بعد ذلك ، ولا عرّفنى اسمه . قال ابراهيم : فرجعت إلى بلدى ، فجعلت أسير سير الضعفاء منزلاً بعد منزل حتى رجعت إلى «بلخ » ، فكان ذلك أوْل أمرى .

* * *

(إبراهيم بن ادهم والبحر الهائج)

قال الشكلىُ : حدثنا على بن سعيد ، قال : ثنا إبراهيم بشار ، قال ركبنا البحر مع إبراهيم بن أدهم ، فبينا نحن نسير بريح طيبة ، وكانت مراكب كثيرة ، فعصفت ريح شديدة على المراكب فتقطَّعت ، وإبراهيم ملتف فى عباءة مستلق . فجاء أهل المركب إليه ، فقالوا : يا هذا ! ما ترى ما نحن فيه وأنت مستلقٍ غير مكترث ؟ فجلس وهو يقول : لا أفلَحَ من لم يكن استعدَّ لمثل هذا اليوم ! ثمَّ حرّك شفتيه ، وإذا هاتف ينادى من اللجةّ : تخافون وفيكم إبراهيم بن أدهم ؟ أيها الريح والبحر الهائج ، اسكنا بإذن الله ! فسكن البحر وذهبت الريح حتىّ صار البحر كأنه دفّ - يعنى لوح خشب [1] .

* * *

٦٥ - (توبة شقيق البلخى)

أخبرنا أبو الفتح بن عبد الباقي ، قال : ثنا أبو الفضل الحدّاد ، أنا أبو نعيم الحافظ ، ثنا أبو بكر محمّد بن أحمد البغدادى ، ثنا عبَّاس بن أحمد الشاشىّ ، ثنا أبو عقيل الرصافى ، ثنا أحمد بن عبد الله الزاهد ، قال : قال علىّ بن محمّد بن شقيق :

كان لجدى ثلثمائة قرية ، ولم يكن له يومَ ماتَ كفنٌ يُكفَّن فيه ، قَدَّمَهُ كلَّه بين يديه ، قال : وكان خرج إلى بلاد الترك لتجارة - وهو حَدَثٌ - إلى قوم يقال لهم : الخلوخيّة يعبدون الأصنام . فدخل إلى بيت أصنامهم ، وعالِمُهم قد حلق رأسه

(١) ولقد ساق ابن كثير رواية قريبة منها بدون هذه المبالغات . ولم يذكر ابن كثير إلا أنه دعا ربه وقال : اللهم أريتنا قدرتك فأرنا عفوك » فصار البحر كأنه قدح زيت . وراجع البداية والنهاية (٩ / ٦٤١) .

ولحيته ولبس ثيابًا حمرًا أرجوانيّة (١) ، فقال له شقيق : إن هذا الذى أنت فيه باطل ، ولهؤلاء ولك ولهذا الخلق خالقٌ صانع ليس كمثله شيء ، له الدنيا والآخرة ، قادر على كل شيء ، رازق كل شيء . فقال له الخادم : ليس يوافق قولك فعلُك . فقال له شقيق : كيف ذلك ؟ قال : زعمت أن لك خالقًا قادرًا على كل شيء ، وقد تعنيّت إلى هاهنا لطلب الرزق ، ولو كان كما تقول كان الذى يرزقك هاهنا يرزقكَ ثَمَّ فتربح العناء .

قال شقيق : فكان سبب زهدى كلام التركىّ . فرجع فتصدّق بجميع ما ملك وطلب العلْم .

* * *

٦٦ - (عبد الله بن مرزوق)

وروى أبو سعيد بإسناد له أنّ عبد الله بن مرزوق كان مع المهدىّ فى دنيا واسعة . فشرب ذات يوم على لهوٍ وسماع ، فلم يصلِّ الظهر والعصر والمغرب ، وفى كلّ ذلك تنبِّهه جارية حظية عنده ، فلما جار وقت العشاء جاءت الجارية بجمرة فوضعتها على رجله ، فانزعج وقال : ما هذا ؟ قالت : جمرة من نار الدنيا ، فكيف تصنع بنار الآخرة ؟ فبكى بكاءًا شديدًا ، ثمّ قام إلي الصلاة .

ووقع فى نفسه مما قالت الجارية ، فلم يَر شيئًا ينجيه إلاَّ مفارقة ما هو فيه من ماله . فأعتق جواريه وتحلّل من معامليه وتصدّق بما بقى ، حتى صار يبيع البقل ، وتَبِعته على ذلك الجارية . فدل عليه سفيان بن عيينة (٢) ، وفضيل بن عياض فوجدا تحت رأسه لَبِنَةً وليس تحته شيء . فقال له سفيان : إنه لم يَدَعْ أحد لله شيئًا إلا عوّضه الله منه بدلاً ، فما عوّضك مما تركت له ؟ قال : الرضى بما أنا فيه .

---

(١) الأرجُوان : شجر له زهر شديد الحمرة حسن المنظر ، وليست له رائحة و - : الصبغ الأحمر و - : الثوب المصبوغ به . ويقال : أحمر أرجوانى : قانٍ . وراجع المعجم الوجيز (ص / ١٢) .

(٢) سفيان بن عُيينة الهلالى : أحد الثقات الأعلام . وكان لا يدلس إلا عن ثقة . قال أحمد : هو أثبت الناس فى عمرو بن دينار . وقال ابن القطان : أشهد أن سفيان اختلط سنة سبع وتسعين مائة ، فمن سمع منه فيها فسماعه لا شيء . وأنكر هذا القول الحافظ الذهبى وقال: وأنا استبعد هذا الكلام من ابن القطان . وراجع « ميزان الإعتدال » (٢ / ٣٦٠ - ٣٦١) برقم (٣٣٢٧) وفى التهذيب (٤ / ١١٧) .

٦٧ - (جعفر بن حرب)

وذكر أبو القاسم التنوخي عن أبيه أنّ جعفر بن حرب كان يتقلد كبار الأعمال للسلطان · وكانت نعمته تقارب نعمة الوزارة فى غاية الوفور ، ومنزلته بحالها فى الجلالة · فسمع رجلاً يقرأ : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وما نَزَلَ مِنَ الحقِّ ﴾ (الحديد : ١٦) [١] · فصاح : اللَّهمّ بلى ! فكررّها دَفَعات ، وبكى ·

ثم نزل عن دابته ونزع ثيابه ، ودخل إلى دِجْلة [٢] واستتر بالماء · ولم يخرج منه حتى فرّق جميع ماله فى المظالم التى كانت عليه وردّها وتصدّق بالباقى · فاجتاز رجل فرآه فى الماء قائمًا - وسمع بخبره - فوهب له قميصًا ومئزرًا ، فاستتر بهما وخرج ، وانقطع إلى العلم والعبادة حتى مات ·

* * *

٦٨ - (توبة هارون الرشيد) [٣]

أخبرنا محمّد ، ثنا حمد ، قال : أنبأ أحمد بن سليمان بن أحمد ، قال : أنبأ

---

(١) وهذه الأية العظيمة لها قدر كبير فى التأثير على النفس والقلب فلقد كانت سبب فى توبة كثير من العلماء مثل مالك بن دينار أثناء الحلم ، وقيل أنها كانت سبب توبة الفضل بن عياض بعد ما كان يسرق وغير ذلك فأصبح إمام مشهور له قدره فإن الله واسع المغفرة ·

(٢) دجله : نهر ببغداد لا تدخله الألف واللام وهى معربة على ديلد ، ولها اسمان آخران وهما : أدنك روذ وكورك دريا : أى البحر الصغير وقد اسقط بعض الشعراء الهاء منها ضرورة · ويقول الشاعر ·

رماد أعلى دجل يهدج دونها   قرب يواصله بخمس كامل ·

ويقول الحموى : أن دجله اسم موضع فى ديار العرب بالبادية ، وذلك غير النهر · انظر معجم البلدان (٢ / ٤٤٠) و (٢ / ٤٤٢) ·

(٣) هارون الرشيد هو : هارون الرشيد بن المهدى محمد بن المنصور أبى جعفر عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، القرشى الهاشمى ، ولد سنة ست ، وقيل : سبع · وقيل : ثمان وأربعين ومائة · وقيل خمسين ومائة · وكان يتصدق من صلب ماله فى كل يوم بألف درهم · وكان يصلي فى اليوم مائة ركعة تطوعًا مات بطوس يوم السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة وقيل : فى جمادى الأولى : وقيل فى ربيع الأول ، وله عمر قيل : خمس وقيل : سبع ، وقيل : ثمان وأربعون سنة · ومدة خلافته كانت ثلاث وعشرون سنة وشهر وثمانية عشر يوم · وراجع البداية والنهاية (١٠ / ٧٣٣ - ٧٣٤ - ٧٤٣) ·

سليمان بنَ أحمد ، قال : أنبأ محمّد بن زكريا الغلابيّ ، ثنا أبو عمر الجرمى النحوىّ، ثنا الفضل بن الربيع ، قال :

حجّ أمير المؤمنين هارون الرشيد : فبينا أنا نائم بمكة إذ سمعت قَرْعَ الباب ، فقلت : من هذا ؟ قال : أجب أمير المؤمنين . فخرجت مسرعًا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! لو أرسلت إلىّ لأتيتُك . فقال : ويحك ، قد خطر فى نفسى شىء ، فانظر لى رجلاً أسأله . فقلت : ها هنا سفيان بن عيينة . فقال : امض بنا إليه . فأتيناه ، فقرعت الباب ، فقال : من ذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين ! فخرج مسرعًا، فقال : يا أمير المؤمنين ! لو أرسلت إلىّ لأتيتُك . فقال له : خذ لما جئناك له - رحمك الله - فحدثه ساعة ، ثمّ قال له : عليك دَينٌ ؟ قال : نعم . قال : اقضِ دَيْنَهُ . فلما خرجنا ، قال : ما أغنى عنى صاحبك شيئًا ، انظر لى رجلاً أسأله . فقلت : هاهنا عبد الرزاق بن همام (١) . فقال : امضِ بنا إليه . فأتيناه ، فقرعت عليه الباب ، فقال : من هذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين ! فخرج مسرعًا ، فقال : يا أمير المؤمنين ! لو أرسلت إلىّ لأتيتُك . قال : خذ لما جئناك له - رحمك الله - فحادثه ساعة ، ثم قال : أعليك دَينٌ ؟ قال : نعم . قال : يا عباسىُّ ! اقضِ دَيْنَهُ . ثم انصرفنا ، فقال لى : ما أغنى عنى صاحبك شيئًا ، انظر لى رجلاً أسأله . قلت : هاهنا الفضيل بن عياض . فقال : امض بنا إليه . فأتيناه وإذا هو قائم يصلى يتلو آية من القرآن يردّدها . قال : اقرع الباب ! فقرعتُه . فقال : من هذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين ! فقال : مالى ولأمير المؤمنين ؟ فقلت : سبحان الله ! أما عليكْ طاعتُه ؟ فنزل ففتح الباب ، ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ السراج ، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت . فدخلنا فجعلنا نجول عليه بأيدينا ، فسبقت كفّ هارون قبلى إليه . فقال : يا لهَا من كفّ ما أنعمها ، وأليَنّها إن نجت غدًا من عذاب الله ، فقلت فى نفسى : ليكلّمنّه الليلة بكلام نقى من قلب نقىّ . فقال له : خذ لما جئناك له -

---

(١) عبد الرزاق بنَ همام بن نافع الإمام ، أبو بكر الحميرى مولاهم الصنعانى . أحد الثقات الأعلام ، ولد سنة ست وعشرين ومائة . قال النسائى : فيه نظر لمن كتب عنه بأخره . قال ابن عدى : حدث بأحاديث فى الفضائل لم يوافقه أحد . قال البخارى : ما حدّث عن عبد الرزاق من كتابه فهو أصح . توفى سنة إحدى عشرة ومائتين وراجع الميزان (٣ / ٣٢٣ - ٣٢٤ . . . ٣٢٨) برقم (٥٠٤٤) ، وفى التهذيب (٦ / ٣١٠) .

رحمك الله - فقال : إن عمر بن عبد العزيز [1] لمّا ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظىّ ورجاء بن حَيْوة [2] فقال لهم : قد ابتُليت بهذا البلاء ، فأشيروا علىّ . فعدَّ الخلافة بلاءً ، وعَدَدتّها أنت وأصحابك نعمة ؟! فقال له سالم بن عبد الله : إن أردت النجاة من عذاب الله فصُم عن الدنيا وليكن إفطارك منها الموت . وقال له محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أبًا ، وأوسطهم عندك أخًا وأصغرهم عندك ولدًا ، فوقّر أباك ، وأكرم أخاك ، وتحنَّن على ولدك وقال له رجاء بن حَيْوة : إن أردت النجاة من عذاب الله فأحِبّ للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم مُتْ إذا شئت . وإنى لأقولُ لك هذا ، وإنى لأخاف عليك أشد الخوف فى يوم تزلُ فيه الأقدام ! فهل معك - رحمك الله - مثل هؤلاء من يشير عليك أو يأمرك بمثل هذا ؟ فبكى هارون بكاءً شديداً حتى غُشى عليه فقلت له : ارفق بأمير المؤمنين . قال : يا ابن أمُ الربيع! تقتُله أنت وأصحابك وأرْفقُ به أنا ؟ ثم أفاق ، فقال : زدنى رحمك الله ! فقال : بلغنى يا أمير المؤمنين ، أنّ عاملاً لعمر بن عبد العزيز شُكى إليه قال : فكتب إليه عمر: يا أخى : اذكُرْ طول سهر أهل النار فى النار مع خلود الأبد ، فإن ذلك يطرد بك إلي باب الرب نائمًا ويقظان ، وإياك أن ينصرف بك من عند الله إلي النار فيكون آخر العهد ومُنقطَع الرجاء . قال : فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر . فقال له : ما أقدمك ؟ قال : خلعتَ قلبى بكتابك ، لا وَليتُ لك ولاية حتى ألقى الله . فبكى هارون بكاءً شديداً ، ثم قال له : زدنى - رحمك الله - فقال : يا أمير المؤمنين ! إن العباس ، عم المصطفى ﷺ ، جاء إلى النبى ﷺ ، فقال له :

---

(١) وهو : عمر بن عبد العزيز بن مروان بن ، الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف - أبو حفص القرشى . وأمه : أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه . قال أحمد بن حنبل : لا أدرى قول أحد من التابعين حجة - إلا قول عمر بن عبد العزيز . وفى رواية صحيحة : أنه كان يسبح فى الركوع والسجود عشرًا عشرًا . وقيل سبب وفاته السِّل . وقيل : سمّه أحد مواليه وكانت وفاته بدير سمعان يوم الخميس أو الجمعة سنة إحدى وقيل ثنتين ومائة . وراجع البداية والنهاية (٩ / ٢٥٢ - ٢٥٣ - ٠٠٠ - ٢٨٧) .

(٢) رجاء بن حيوة الكندى : أبو المقدام . ويقال : أبو نصر وهو تابعى جليل ، كبير القدر . ثقة . وكان مكحول إذا سئل يقول : سلوا شيخنا وسيدنا رجاء . توفى سنة « ١١٢ هـ » . وراجع البداية والنهاية (٩ / ٣٩٦ - ٣٩٧) .

أمرّني . فقال له النبى ﷺ « يا عباس : يا عم النبىّ ! نفس تنجيها خيرٌ من إمارة لا تحصيها » (١) إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت أن لا تتأمرنّ على أحد فافعل » . قال :

فبكى هارون بكاءً شديدًا ، ثم قال له : زدنى - رحمك الله -

قال : يا حسن الوجه ! أنت الذى يسألك الله عن هذا الخلق ، فإن استطعت أن تَقىَ هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسى وفى قلبك غشٌ لرعيتك ، فإن النبى ﷺ قال : « من أصبح لهم غاشًا لم يَرحْ رائحة الجنة » (٢) .

---

(١) الحديث ضعيف : رواه ابن أبى الدنيا معضلاً ، والبيهقى متصلاً ، ومن رواية ابن المنكدر مرسلاً ، وقال الحافظ العراقى : وهو المحفوظ مرسلاً . وأبو نعيم فى الحلية به إنقطاع . وجاء عند أحمد فى المسند ولكن الكلام موجه لحمزة - رضي الله عنه - : بنحوه . لكن الحديث ضعيف: فيه عبد الله بن لهيعة . قال ابن معين : ضعيف لا يحتج به . قال ابن المهدى : لا أحمل عن لهيعة شيئًا . وقيل ضعيف بعد احراق كتبه ورد ذلك ابن معين وقال : هو ضعيف قبل أن تحرق كتبه وبعد إحراقها . قال النسائى : ضعيف . قال أبو زرعة ، وأبو حاتم : أمره مضطرب . وله أحاديث منكره مثل ما جاء فى البقرة . قال ابن حبان : ولد سنة ٩٦ هـ - وتوفى سنة ١٧٤ هـ . وراجع « الميزان » (٣ / ١٨٩ - ١٩٠ - ١٩١ - ١٩٧) برقم (٤٥٣٠) وفى التهذيب (٥ / ٣٧١ - ٣٧٢ - ٣٧٣) .

قلتُ : وللحديث عدة بدائل صحيحة . وفى الحديث : « يا أبا ذر إنى أراك ضعيفًا ، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم » رواه مسلم (٣ / ١٤٥٧) كتاب الإمارة (٣٣) باب كراهية . . . (٤) «ح» (١٧ / ١٨٢٦) وله لفظ آخر عند مسلم برقم (١٦ / ١٤٥٧) والبغوى (٢٧٧٣) (٢٧٧٣ ب) . وفى حديث آخر « يا عبد الرحمن بن سَمُرهُ لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها عن مسألة وُكلت إليها . . . » والحديث رواه البخارى (١٣ / ١٢٣ - ١٢٤) كتاب الأحكام (٩٣) «ح» (٧١٤٦) ، ومسلم (٣ / ١٢٧٣ - ١٢٧٤) كتاب الإيمان (٢٧) «ح» (١٩ / ١٦٥٢) - والبخارى بزيادة برقم (٧١٤٧) .

(٢) الحديث صحيح : من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه بلفظ « ما من عبد يسترعيه الله . . . » رواه البخارى فى صحيحه (١٣ / ١٢٧) كتاب الأحكام (٩٣) باب من استرعى (٨) «ح» (٧١٥٠) ومسلم (٣ / ١٤٦٠) كتاب الإمارة (٣٣) باب فضل الإمام العادل (٥) «ح» (٢١ / ١٤٢) . وقال ابن حجر : قوله : لم يجد فى نسخة « الصغانى » : إلا لم يجد بزيادة إلا . انظر فتح البارى (١٣ / ١٢٧) . وله لفظ آخر « ما من وال يلى رعية . . » رواه البخارى نفس المصدر «ح» (٧١٥١) ، ومسلم نفس المصدر «ح» (٢٢ / ١٤٢) .

فبكى هارون بكاءً شديدًا ، ثم قال : عليك دَينٌ ؟ قال : نعم ، دينٌ لربّى لم يحاسبنى عليه ، فالويل لى إن ساءلنى ، والويل لى إن ناقشنى ، والويل لى إن لم ألهم حجتى ! قال : فقال : إنما أعنى من دَين العباد . قال : إن ربى لم يأمرنى بهذا، إنّ ربى أمرنى أن أصدّق وعده وأطيع أمره ، فقال : ﴿ وَما خَلَقتُ الجنَّ والإنسَ إلاَّ ليَعبدُونِ ، ما أُريدُ منهمْ من رزقٍ وما أُريدُ أنْ يُطعمونِ . إنَّ الله هَو الرزاق ذو القوة المتينَ ﴾ (الذاريات : ٥٦ - ٥٨)فقال له : هذه ألف دينار ، خذها فأنفقها وتقوَّ بها على عبادة ربك . فقال : يا سبحان الله : أنا أدلّك على النجاة وأنت تكافينى بمثل هذا ؟ - سلمك الله ووفقك - ثم صمت ، فلم يكلّمنا . فخرجنا من عنده ، فلما أن صرنا على الباب ، قال لى هارون يا عباسىّ ! إذا دللتنى على رجل فدلَّنى على مثل هذا ، هذا سيد المسلمين اليوم . قال غير أبى عمر : فبينا نحن كذلك إذ دخلت عليه امرأة من نسائه ، فقالت : يا هذا ! قد ترى سوء ما نحن فيه من ضيق الحال ، فلو قبلت هذا المال تفرّجنا به ؟! قال : مَثَلى ومثَلكُم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه ، فلما كبر نحروه وأكلوا لحمه . فلمَّا سمع هارون الكلام ، قال : نرجع فعسى أن يقبل المال ، قال : فدخل . فلما علم فضيل ، خرج فجلس على تراب فى السطح على باب الغرفة . وجاء هارون فجلس إلى جنبه ، فجعل يكلمه فلم يجبه . فبينا نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء ، فقالت : يا هذا ! قد آذَيتَ الشيخ منذ الليلة ، فانصرف - رحمك الله - قال : فانصرفنا .

* * *

٦٩ - (توبة ابن هارون الرشيد)

قرأت على الشيخ الصالح أبى المكارم المبارك بن محمد بن المعمّر البادرائى ، أخبركم أبو غالب بن أحمد الباقلانى ، وقرئ على أبى القاسم هبة الله بن الحسن بن هلال الدقاق وأنا أسمع ، أخبركم أبو طاهر عبد الملك بن أحمد السيورىّ ، قالا : أنبأ أبو القاسم بن بشران ، أنبأ أبو بكر الآجرى ، قال : سمعت أبا بكر بن أبى الطيب يقول : بلغنا عن عبد الله بن الفرج العابد ، قال :

احتجت إلى صانع يصنع لى شيئًا من أمر الروزَ جاريين ، فأتيت السوق فإذا بأواخرهم شاب مصفرّ ، بين يديه زنبيل كبير ومرّ ، وعليه جبة صوف ومئزر صوف ، فقلت له : تعمل ؟ قال : نعم . قلت : بكَم ؟ قال : بدرهم ودانِق . فقلت له :

قمْ حتى تعمل · قال : على شريطة · قلت : ما هى ؟ قال : إذا كان وقت الظهر فأذنّ المؤذن خرجتُ فتطهَّرت وصليت فى المسجد جماعةً ثم رجعت ، فإذا كان وقت العصر فكذلك · فقلت : نعم · فقام معى ، فجئنا المنزل ، فوافقته على ما ينقله من موضع إلى موضع · فشدّ وسطه وجعل يعمل ولا يكلمنى بشىء حتى أذّن المؤذن الظهر · فقال : يا عبد الله ! قد أذن المؤذنّ · قلت : شأنك ، فخرج فصلى ، فلما رجع عمل أيضًا عملاً جيدًا إلى العصر · فلما أذن المؤذن . قال لى : يا عبد الله ! قد أذن المؤذن · قلت : شأنك · فخرج فصلى العصر ، ثم رْجع · فلم يزل يعمل إلى آخر النهار ، فوزنت له أجرته وانصرف ·

فلما كان بعد أيام احتجنا إلى عمل · فقالت لى زوجتى : اطلب لنا ذاك الصانع الشاب ، فإنه قد نصحنا فى عملنا ، فجئت السوق ، فلم أره · فسألت عنه ، فقالوا : تسأل عن ذاك المصفرّ المشؤوم الذى لا نراه إلاّ من سبت إلى سبت ، لا يجلس إلاّ وحده فى آخر الناس ؟ قال : فانصرفت ؛ فلمّا كان يوم السبت أتيت السوق فصادفته · فقلت : تعمل ؟ فقال : قد عرفت الأجرة والشرط · قلت : أستخير الله تعالى · فقام فعمل على النحو الذى كان يعمل · قال : فلمّا وزنت له الأجرة ردته ، فأبى أن يأخذ الزيادة · فألححت عليه ، فضجر وتركنى ومضى · فغمَّنى ذلك ، فاتَّبعته وداريته حتى أخذ أجرته فقط · فلما كان بعد مدةٌ احتجنا أيضًا إليه · فمضيت فى يوم السبت فلم أصادفه · فسألت فقيل لى : هو عليل · وقال لى من يخبر أمره : إنما كان يجىء إلى السوق من سبت إلى سبت يعمل بدرهم ودانق ، ويتقوّت كل يوم بدانق ، وقد مرض ، فسألتُ عن منزله فأتيتُه وهو فى بيت عجوز · فقلت لها : هنا الشاب الروزجارىّ ؟ فقالت : هو عليل منذ أيام · فدخلت عليه ، فوجدته لما به ، وتحت رأسه لَبِنةٌ (١) · فسلمت عليه ، وقلت : لك حاجة ؟ قال ! نعم إن قبلتَ ، قلت : أقبل إن شاء الله · قال : إذا مت فبع هذا المرّ ، واغسل جبتى هذه الصوف وهذا المئزر وكفّنى بهما ، وافتق جيب الجبة فإن فيها خاتمًا ، وانظر يوم يركب هارون الرشيد فقف له فى موضع يراك ، فكلّمه وأرهِ الخاتم ؛ فإنه سيدعو بك ، فسلم إليه الخاتم ولا يكون هذا إلاّ بعد دفنى · قلت : نعم · فلمّا مات فعلت به ما أمرنى · ثم نظرت اليوم الذى يركب فيه الرشيد ، فجلست له على الطريق ·

---

(١) الطوب الغير محروق · وسبق ·

فلمّا مرّ ، ناديتهُ : يا أمير المؤمنين ! لك عندى وديعة . ولوّحت بالخاتم ؛ فأمر بى ، فأُخذت وحُملت حتى أُدخلت إلى داره . ثم دعانى ، ونحىَّ جميع من عنده ، وقال: من أنت ؟ قلت : عبد الله بن الفرج . فقال : هذا الخاتم من أين لك ؟ فحدثته قصّة الشابّ . فجعل يبكى ، حتى رَحِمتُه ؛ فلمَّا أنس إلىّ قلت : يا أمير المؤمنين ! من هو منك ؟ قال : ابنى . قلت : كيف صار إلى هذه الحال ؟ قال : ولُد لى قبل أن أبتلى بالخلافة ، فنشأ نشوءًا حسنًا وتعلم القرآن والعلم . فلما وليتُ الخلافة تركنى ، ولم ينلْ من دنياى شيئًا . فدفعت إلى أمه هذا الخاتم - وهو ياقوت يسوى مالاً كثيرًا - فدفعته إليها ، وقلت: تدفعين هذا إليه - وكان برًّا بأمه - وتسألينه أن يكون معه ، فلعله أن يحتاج إليه يومًا من الأيام فينتفع به . وتُوفيت أمه؛ فما عرفت له خبرًا إلا ما أخبرتنى به أنت . ثم قال : إذا كان الليل اخرج معى إلى قبره. فلما كان الليل خرج وحده معى يمشى حتى أتينا قبره ، فجلس إليه ، فبكى بكاءً شديدًا. فلما طلع الفجر قمنا فرجع. ثم قال: تعاهدنى فى الأيام حتى أزور قبره، فكنت أتعاهده فى الليل ، فنخرج حتى نزوره ، ثم نرجع . قال عبد الله بن الفرج: ولم أعلم أنه ابن الرشيد حتى أخبرنى الرشيد أنه ابنه-أو كما قال ابن أبى الطيّب[1] .

* * *

٧٠ - (توبة المأمون) [٢]

وذكر إبراهيم بن الجنيد فى كتاب « زهد الملوك » بإسناده عن صالح بن عبد العزيز قال : أخبرنى عمى عبد الحميد بن محمد :

أنّ المأمون كان يجد بابنه علىّ وجدًا شديدًا ، ويقدّمه على جميع أولاده ، وكان من أحسن الناس وأجملهم مع أدب وفصاحة . قال عبد الحميد : وكنت إذا

(١) وراجع هذه القصة فى « أجمل مائة قصة وقصة . . » الشيخ / محمد الزغبى (ص ٤٢) .

(٢) هو : عبد الله المأمون بن هارون الرشيد العباسى القرشى الهاشمى . ولد فى ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ . تولى الخلافة فى المحرم لخمس بقين منه سنة ثمان وتسعين ومائة . واستمر فى الخلافة عشرين سنة وخمسة أشهر . وكان فيه تشيع واعتزال وجهل بالسنة . وكان على مذهب الإعتزال . ولقد إدعى خلق القرآن . ومذهب أهل السنة أن من يقول بذلك كافر إجماعًا . ولقد أوصى المعتصم بالتمسك بخلق القرآن ومات على ذلك . توفى بطرسوس فى يوم الخميس وقت الظهر سنة ٢١٨ هـ وكانت مدة خلافته عشرين سنة وأشهرًا . وراجع البداية والنهاية (١٠ / ٨١١ - ٨١٢ - ٨١٩) .

دخلت الدار أميل إليه فأسلم عليه ؛ فأرى معه حياءً وبشاشة ولا أرى فيه كبْرًا ولا عزّا ، يضاحك خدمه ويلاطف جلساءه ؛ ثمَّ أسخى من رأت عيناى وأحسنه خُلقًا وأطيبه نفسًا . وكنت إذا رأيته لا أكاد أصرف وجهى عنه من حسنه وجماله . .

وكان سبب تزّهده فيما أخبرنى به شاكر مولاه ، قال : كان فى يوم صائف شديد الحرّ له سموم فى قبّة الجيش ؛ فأتاه يُمنٌ الخادمُ ، فقال : يا سيدى ! أمير المؤمنين يدعوك ، قد دعا بطعامه وهو ينتظرك . قال : ويحك ! الحرّ شديد ويؤذينى، وأكره الخروج ، فارجِع فأعلمه أنك وجدتنى نائمًا ، فمضى ، فلم يكن بأسرع من أن رجع ، فقال : قد قال : أدخل عليه ونبِّهه ، وكان لا يصبر عنه ساعة. فقام وهو كاره ، فحضر الطعام . ثم قعد أمير المؤمنين للشراب مع ندمائه . فقام علىّ وخرج من المجلس ؛ وكان لا يشرب شيئًا من الأنبذة . فانصرف إلي قصره، وأمر أن يُفرَش له فى بعض مستشرفه على دِجْلة ، وألقى فيه الماء والثلج والخِلاف ، وقعد على سرير عليه غِلالة ينظر إلى الناس وإلى دجلة . ودعا بقيانه وندمائه . فبينا هو كذلك ، إذ نظر إلى حمّال قد اقبل عند الزوال ، عليه درّاعة صوف بيضاء بالية بلا قميص تحتها ولا سراويل عليه ؛ وقد شدّ على رجليه خرقًا من الحرّ ولبس نعلين متخرقين ، وعلى رأسه خرقة ، وعلى عنقه كرزنُهُ ، وطبقُهُ ، فأتى دجلة وقعد فى بعض السفن ، والأمير ينظر إليه مستشرف عليه لا يصرف بصره عنه. فوضع طبقة وكرزنه ، وخلع نعليه ، وألقى الخِرَق عن رجليــه ، ودنا من دِجْلة وغسل يديه ورجليه ، وانصرف إلى موضعه فأخرج جرابًا له ففتحه وأخرج منه كسراً يابسة مختلفة الألوان وأخرج منه قَصْعَةَ خشب فغسل قَصعته وجعل فيها ماءً وألقى تلك الكسر فى الماء الذى فى القصعة ، ثم أخرج صُرّة ففتحها وأخرج منها مِلْحًا فنثره على الخبز وقليلَ سعترٍ وتركها مقدار ما بل الكسر . ثم تربّع على الرمل وسمى الله تبارك وتعالى وأكل أكل رجل يشتهى الطعام ، وهو مع ذلك يشكر الله تعالى ؛ والأمير عيناه إليه . حتى فرغ وغسل القَصعة فردّها إلى جرابه مع كُسيرات بقيت ، وشدّ خرقه الملح . ودنا من الشط فاغترف بكفّيه من الماء ، وقال : يا سيدى ومولاى! لك الحمد على هذه النعمة التى تفضّلت بها على ، فلك الحمد على أياديك عندى ، فلك الحمد ولك الشكر ثم وضع رأسه على كرزنه وتمدّد على الرمل ساعة. ثم قام فتهيأ للصلاة وقام يصلى للزوال . فقال الأمير للغلمان الوقوف عنده : ليذهب

بعضكم إلى الرجل القائم المصلى فيأتينى به مع طبقه وكرزنه ، ولا يرعبه ، وعليه باللطف حتى يأتينى به . فمضى بعض الغلمان فأتاه فأقام عنده حتى سلَّم، ثمّ قال له : قم معى حتى تحمل لى متاعًا من قصر الأمير . فقال : اطلب غيرى فإنى متعوب البدن . قال : الموضع قريب والحمل خفيف . قال يا حبيبى ! قد عرفت ذلك وأنت تصيب غيرى ، فاعفنى فإنى أكره دخول الدار . قال : لابدّ منه ، فإن قمت وإلاّ أُقمْتَ . وغلظ له فى الكلام . فقام الرجل وألقى كرزنه فى عنقه وحمل الطبق ، وقرأ ﴿ وَعَسَى أن تكرَهوا شيْئًا وَهوَ خَيرٌ لكُم ﴾ (البقرة : ٢١٦) ﴿ فَعَسَى أن تكرَهوا شَيْئًا ويَجعَلَ اللهُ فيه خَيرًا كثيرًا ﴾ (النساء : ١٩) فأدخله الغلام القصر ، ثم أصعده حتى أوقفه بين يدَى الأمير على هيئته ، فأمره بالقعود . فقال له الندماء : أيها الأمير ! من هذا حتى تأمره بالقعود مع وسخه ونجاسته ؟ قال : اسكتوا ! ثم قال : من أهلها أنت ؟ قال : نعم . قال : ما صناعتك ؟ قال : ما ترى ، الحملُ . قال : وكم عيالُك ؟ قال : نحن عيال الله ، لى والدة عجوز مُقْعَدة ، وأخت عمياء زَمِنة . قال : فأهل وولد ؟ قال : مالى أهل ولا ولد .

قال : فكم يكون الكسب ؟ قال : على قدر ما أرزق ، إلاّ أنه لا ينصرم يوم إلا ونحن فى كفاية من فضل الله تعالى . قال : فتطيق الحمل كلّ يوم ؟ قال : إذا صلّيتُ الفجر خرجت فتعرضت للرزق إلى وقت الزوال ، ثمّ أتفرّغ لنفسى إلى فراغى من صلاة العصر ، وأجمّ نفسى من العصر إلى الليل . قال : أفليس تكون بالليل جمامًا ؟ قال : إن أجممت نفسى بالليل تركنى فقيرًا يوم القيامة . ففطن لها علي ، فقال : إنى رأيتك تأكل وحدك ، كيف لا تأكل مع والدتك وأختك ؟ قال : إنهما يصومان فأجعل عشائى مع فطرهما . قال : أخرج الكسر . ففتح جرابه فأخرج منه كسرًا يابسة ، أسود وأحمر وأبيض . فنظر إليها الأمير ساعة يتأمّلها متفكرًا ، ثمّ قال: يا شاكر ! إيتنى بخمسة آلاف درهم صحاح فأدفعها إليه ليصلح بها حاله . قال: أيها الأمير ! أنا غنىّ عنها ، لا حاجة لى فيها . فجهد به علي أن يأخذها ، فأبى .

قال الأمير : فلى إليك حاجة . قال : ما حاجة مثلك إلى مثلى ؟ قال : هى حاجةٌ مهمّة . فأخذ بيده فأدخله بعض غرفه وخلا معه ، وقال : يا هذا ! قد عرفتَ حالى وقصّتى وموضعى وما أنا فيه من هذا الملك ونعيم الدنيا ولذّاتها ، فادعُ الله تبارك وتعالى أن يزهّدنى فى الدنيا ويرغّبنى فى الآخرة . فقال له الحمّال : يا حبيبى!

مالى عند الله من المنزلة ما أدعوه ، إلاّ أن بعض الحكمـاء يقول : من خاف شيئًا أدلج " افرض على نفسك كلّ يوم وساعة شيئًا معلومًا من خصال الخير ؛ فإنك إذا فعلت ذلك جاءتك العزيمة بالعون من الله تعالى على ذلك ؛ ولا تؤخر عمل يومك لغد ؛ ولا تكلف نفسك ما لا طاقة لها به ، وأكثر ذِكر الموت ، فإن ذكره يكثِّر القليل ويقلّل الكثير ؛ وعليك بتقوى الله تعالى وطاعته واجتناب معاصيه ، ثمّ رفع يديه وطأطأ رأسه ودمعت عيناه ، وقال : يا من رفع السـماء بقوّته ، ودحا الأرض بمشيئته ، وخلق الخلائق بإرادته ، واستوى على العرش بقدرته · يا مالك الملك ، وجبّار الجبابرة ، وإله العالمين ، ومالك يوم الدين ! أسألك برحمتك وجودك وقدرتك أن تخرجَ حبّ الدنيا من قلب عبدك عبد الله عليّ ، وتوّفقه لطاعتك من الأعمال التى تقرّ به إلي مرضاتك وتجنّبهُ معاصيك وتختِمَ لنا وله برضوانك وعفوك ، يا أرحم الراحمين ! قال : فدمعت عينا عليّ وبكى فأكثر · ثم قال للحمال : لو قبلتَ منا شيئًا ! قال : لا أريده ، وحاجتى أن تعجِّل سـراحى · فأمره بالخروج ، فخرج الحمّال ؛ وانصرف الأمير إلى موضعه وهو متفكّر قد ذهب نشاطه · ثم التفت إلى ندمائه ، فقال : يا قوم ! لو شهدتم طعام أمير المؤمنين ورأيتم ما يُرفَع ويُوضَع من صنوف الأطعمة · ثم جعل يصف ذلك الطعام ، ثمّ قال : لو رأيتم الطعام الذى يُخبز قد تُنُوِّقَ فى بياضه وجودته وطحنه ، ثمّ يُنخَل بالشعر ثمّ يُنخَل بالكرابيس ثمّ يُنخَل بالحرير حتى يبقى مخّه فقط تُوقَد ناره بالقصب ، فإذا سكن وهَجه يُخرّ التنّور بالعود القمارى وخُبز بصنوف الطعام ؛ ثمّ وصف ما يُتَّخَذ له من صنوف الألوان من الحارّ والبارد والرطب واليابس والحلو وغير ذلك – وهذا الحمّال طعامه ما قد رأيتم ومائدته طبق من سعف النخل · ثمّ طأطأ رأسه وجعل ينكت بأصبعه على الحصير ساعة · ثمّ قال : يا غلام ! إئت منيبًا خازن الكتب فمُرْه يخرجْ لى سيرة عمر بن الخطاب ﷺ · فأتاه به ، فجعل ينظر فيه ، فقال : اسمعوا ما كان طعام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : عراق لحم الإبل مطبوخ بماء وملح ، وأقراص من شعير غير منخول · فقيل له : يا أمير المؤمنين ! لو أكلتَ غير هذا الطعام فقد وسْع الله على المسلمين ! فقال : هاه ! إنّ الله تبارك وتعالى عيَّر قومًا بأكلهم بقوله : ﴿ أذْهَبْتُمْ طَيِّباتكُم فى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيا ﴾ (الأحقاف : ٢٠) · فجعل يصف لهم سيرَة عمر بن الخطّاب ﷺ وتدمع عيناه · فلمّا فرغ قال : يا غلام ! قُلْ لمنيب يخرج لى سِيرَة عمر

ابن عبد العزيز. فأخرج إليه، فجعل ينظر فيه ويصف لندمائه [1]. ثم قال: أبعد الله بطنًا يعقب صاحبه ندمًا يوم الحسرة فى عرصة القيامة؛ هذا عبد الله بن عمر، زين أبناء الصحابة، اشتهى عنبًا فلم يذقه؛ هذا سعيد بن المسيّب زين التابعين يقول: ليت أن الله جعل رزقى فى مصّ حصاة، فقد استحييت من كثرة الاختلاف إلى الحشّ؛ هذا الربيع بن خيثم اشتهى خبيصًا فلم يذقه؛ هذا مالك بن دينار، هذا فلان، هذا فلان. فجعل يذكر وتدمع عيناه، ثمّ قال: ترى القوم لم يشتهوا طيب الطعام؟! ولكنّهم زهدوا عن الفانى للباقى، وباعوا القليل بالكثير، وصبروا فى دنياهم فنالوا الذى طلبوا؛ خرجوا من الدنيا خماصًا جياعًا حفاةً عراةً، فلم تأكل الأرض منهم شحمًا ولا لحمًا، بليت الجلود على العظام والعروق. ثم أخرج ساعدًا كأنه قضيب فضة مستديرة شحمًا ولحمًا، فقال: إنّ هذا الساعد مع هذا البدن رُبى بالأطعمة والأشربة التى وصفتُ لكم من الطعام والشراب ليبلى فى التراب كما يبلى ساعد الحمّال. ثمّ أرسل عينيه فبكى فأكثر البكاء ونحن قيام على رأسه. ثمّ قال: يا غلام! ارفع هذه الآلة قبّحها الله فما أموتها للقلوب وأضرّها وأذلّها. فرُفعت وصرف الندماء والخدم والغلمان وبقى وحده متفكرًا لا يأذن لأحد عليه؛ حتى إذا مضى بعض الليل، نادانى: يا شاكر! فقلت: لبّيك أيها الأمير! قال: دونك الخزائن فاحفظها مع جميع ما فى الدار، فإنى منطلق إلى سيّدى، وأنا أظنّ أنه يعنى بسيّده أباه. فخرج علىّ وعليه إزار قد أخذه على رأسه، ونعل طاق قد وضعها فى رجله، وقال: لا يتّبعنى منكم أحد بشمع. فخرج ومعهُ غلام صغير، وتخلّف عنه الخدم والغلمان. فلما أصبحنا افتقدنا الغلام إلى ارتفاع النهار. فجاء الغلام فسألته عنه، فقال: لم يدخل دار أمير المؤمنين ولكنه أخذ نحو الدِّجلة، وقال لى: قف موضعك هذا، لا تبرح. فلا أدرى أين ذهب، إلاّ أنه دنا من ملاّح فناوله دنانير، وقال: لى حاجة مهمّة بـ « واسط ». ثمّ لم يقم بـ « واسط » حتى خرج إلى «البصرة » وتنكّر ولبس الخشن على ذلك الجلد النقى؛ واشترى طبقًا كهيئة ما رأى من زىّ الحمال، وجعل الطبق على عاتقه، يعمل على مقدار قوته؛ يحمل على رأسه بالقطع والكسر، لا يردّ ما أعطى؛ بالنهار صائم يحمل على رأسه، وبالليل قائم يصلى، يمشى حافيا حتى تقطّعت رجلاه، يبيت فى المساجد يتخلّلها كى لا

(١) النديم: المصاحب على الشراب و -: المُسامر. وراجع المعجم الوجيز (ص / ٦٠٩).

يُفطَن به. فلم يزَل كذلك يعمل ويعبد ربّه سنين. وأمير المؤمنين لمّا وقف على أمره كتب فى جميع الآفاق إلى العمّال فى كلّ بلدة أن يُطلَب وتُوضَع عليه العيون؛ فلم يوقَف على أمره. قال: فمرض فى بعض المساجد وتغيّرت حاله. فلمّا اشتدت به العلة دخل بعض الخانات بالبصرة فاكترى غرفة وألقى نفسه على بارية. فلما أيس من نفسه دعا صاحب الخان فناوله خاتمه ورقعة مختومة فقال: يا هذا! إذا أنا قضيتُ نحبى فاخرج إلى صاحبكم - يعنى الوالى - فأرِه خاتمى وعرّفه موضعى وناوله هذه الرقعة. فمات رحمه الله، فلما قضى سجّاه وخرج نحو باب الأمير، فنادى: النصيحة، فأُدخل، فأراه الخاتم. فلما نظر إليه الوالى عرفه، وقال: ويحك، أين صاحب الخاتم؟ قال: فى الغرفة فى الخان ميّت، وناوله الرقعة مختومة مكتوبًا عليها: لا يفكّها إلاّ المأمون أمير المؤمنين. فركب الأمير حتى أتى الخان، وحوّله إلى قصره وطلى عليه الكافور والمسك والعنبر، ولفّه فى قباطىٍّ مصرَ وحمله فى الماء إلى المأمون. وكتب إليه يعرّفه قصّته وأنه وجده فى غرفة على بارية فى بعض الخانات، ما تحته مهاد، ولا عنده باكية، مسجّى مغمض العينين مستنير الوجه طيِّب الرائحة. قال: وبعث إليه خاتمه ورقعته. فلمّا وصل كتابه إلى أمير المؤمنين، وأدخل (علىٌّ) عليه قام فكشف عن وجهه وانكبّ عليه يقبّله ويبكى.

ووقعت الصيحة والضجيج فى الدار. ثم فكّ الرقعة فإذا فيها مكتوب بخطه: يا أمير المؤمنين! اقرأ سورة الفجر إلى رابع عشرة آية فاعتبر بها، واعلم أنَّ الله مَعَ الذينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ محْسِنُونَ، ثمّ أمر المأمون فغُسّل وكُفن وأُخرج ليُدفن؛ والمأمون يمشى حتى صلى عليه. فلمّا وُضِع فى حفرته أمر الخدم، فقال: اخرجوا من القبر. ثم اطلع فى القبر، فقال: يا بُنىَّ! رحمك الله وأعطاك أمنيَّتك ورجاءك؛ إنى لأرجو أن يكون الله تعالى قد أسعدك ونفعنى بك؛ فنعمَ الولدُ كنتَ؛ جمع الله بينك وبين ابن عمّى المصطفى ﷺ، ورزقنى الصبر عليك. ثم قال: سوُّوا عليه. فدخل الخدم فأطبقوا عليه ألواحَه. ثمّ قال: أهيلوا عليه التراب. وهو واقف يصيبه الغبار، والخدم قيام معهم المناديل يردّون عنه الغبار. فقال: إليكم عنّى! يبلى علىّ فى التراب وتردّون عنى الغبار؟! ثمّ قال: اللّهم! ثبِّته بالقول الثابت، وأشْهدُك أنى راضٍ عنه يا أرحم الراحمين! والرقعة فى يده لا يضعها. فدعا محمد بن سعد الترمذىّ فأمره أن يقرأ سورة (الفجر). فجعل يقرأ والمأمون يبكى حتى بلغ (إنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصَادِ) (الفجر: ١٤)، فأمسك.

فتصدّق عنه بألف ألف درهم ، وأمر بعرض السجون وأطلق عنهم ، وكتب إلى العمّال بإنصاف الرعيّة وردّ المظالم ، ونزع عن أمور كثيرة . وبقى بعده لا يذكره إلاّ بكى ، وهو مكروب لا يرتاح للذّة ولا لشهوة . وينتاب مجلسه الفقهاء يصبّرونه ويعظونه . فما زالت هذه حاله حتّى مات رحمه الله .

* * *

٧١ - (توبة موسى بن محمد بن سليمان الهاشمى)

قال عبد الحميد بن محمد : وسمعت محمد بن السمّاك يقول : إن موسى بن سليمان الهاشمى كان من أنعم بنى أبيه عيشًا وأرخاه بالاً ، يعطى نفسه شهوتها من صنوف اللذّات فى المأكل والمشرب والملبس والطيِّب والجوارى والغلمان . ليست له فكرة ولا همّة إلاّ فيما هو من عيشه ولذّته . وكان شابًا جميلاً ، وجهه كاستدارة القمر فى صفاء مع بياض وملاحة مشربًا حمرة ، شديد سواد الشعر ، جعدًا ، أقنى الأنف [١] ، أكحل العينين ، أدعج [٢] مثل عين الظبية ، يسحر بعينيه الناظر إليه ، طويل الأشفار [٣] ، مقرون الحاجبين كأنّما خُطّا بالقلم ، صغير الفم ، رقيق الشفتين، أبلج الثنايا [٤] ، مفلّج الأسنان [٥] ، فصيح اللسان ، حلو الكلام ، خافض الصوت. وكانت نعمة الله عليه سابغة ، يستغلّ من ضياعه وعقاره ومما أُقطعه من الضياع ويجرى عليه من الرزق كلّ حول نحوًا من ثلاثة آلاف ألف وثلثمائة ألف ،

---

(١) قنى الأنف : ارتفع وسَطُ قصبته وضاق منخراه فهو أقنى وهى قنواء . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٥١٨) .

(٢) دَعِجَت العين : اشتد سَوَاد سوادها وبياضُ بياضها واتّسعت فهى دعْجاء . ويقال : دعج الرجل ، ودعجت المرأة . فهو أدْعجُ وهى دعجاء . والجمع : دُعْج . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٢٢٨) .

(٣) الشَّفرُ : حرف كل شىء . وشفر الجفن : حرفُهُ الذى ينبت عليه الهُدْبُ . والجمع: أشفار . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٣٤٦) .

(٤) بَلَجَ وجهُهُ : تنضر سُرورًا . وأبلج : أضاء وأسْفر . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٦٠) .

(٥) فَلَجَ : تباعد بين . . أسنانه . فهو : أفلج - وهى : فلجاءُ . والجمع : فُلج . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٤٧٩) .

يصرف هذا كلّه فيما هو فيه من النعيم · وقد أعجبته نفسه وشبابه ودنياه المواتية له في جميع ما يشتهى ·

وكان له مستشرف عالٍ يقعد فيه العشيّات يشرف على الناس ، له أبواب مشرعة إلى الجادّة ، وأبواب مشرعةٌ إلى بساتينه ، قد ضرب فيه قبة عاج مخروطة من أنياب الفيل مضبّبة بالفضّة قد طُلى بالذهب ، وغشىّ القبة بالديباج الأخضر ، وحشاه بالخزّ[1] المندوف ، وعلق من القبة سلسلة ذهب منظومة بالجواهر واللؤلؤ ، تضىء القبةُ من الياقوت الأحمر ، والزبرجد الأخضر ، والعقيق الأصفر ، كل حبّة كالجوزة، وعلّق على الأبواب المشرعة الستور المُضرَّبة الموّشاة المنسوجة بالذهب ، ووضع حول القبة ثلاثين شمعة ، فى ثلاثينَ طستًا من فضّة ، وزن كلَ طسْت ألف درهم ، على كلّ خمس طُسوت غلام قائم بيده مقطعة من ذهب من مائة مثقال ، عليهم من أنواع الثياب والمناطق المرّصعة بالجواهر ، وعلّق على كل باب خارج من الشبّاكات قناديل بسلاسل الفضة ، وجعل دهنها الزئبق الخالص · وهو على سرير عليه غلالة قصب معلم منسوج ، وعلى رأسه عمامة مكللة باللآلىء ، ومعه فى القبْة ندماؤه وإخوانه · والمجامر منصوبة لا ترفَع على البخور ، وقد وقف على رأسه الخدم بأيديهم المراوح والمذابّ ، والقَيْنات بحذائه فى مجلس خارج من القبة يراهُنَّ· فإذا نظر عن يمينه رأى نديمًا قد اصطفاه وأنس بمحادثته ، وإن نظر عن يساره رأى أخًا وَصفيًا قد واده واجتباه ، وإن رفع طرفه نظر إلى خدم قيامٍ قد اختارهم ، وإن رمى بطرفه إلى حواشيه رأى مَطربيه وقيانه كلّهم يُفَدّونه ، أسماعُهم مصغية إليه ، وأعيُنهم قبلَهُ لا يشتغلون بغيره · فإن تكلّم سكتوا ، وإن قام قاموا · إذا اشتهى سماع القيان نَظر نحو الستارة ، وإن أراد سكوتهم أو ما بيده إلى الستارة فأمسكوا ، قد عرفوا ذلك منه ·

هذا دأبُه إلى أن يذهب الليل ويذهب عقله ، فيخرج الندماء ويخلو مع الوصفاء · فإذا أصبح اشتغل بالنظر إلى اللّعابين بين يديه بالشطرنج والنرد[2] · لا يُذكَر

---

(١) الخزّ : ما ينسج من صوف وحرير خالص · والجمع : خُزُوزٌ · وراجع المعجم الوجيز (ص / ١٩٤) ·

(٢) النرد : الطولة · وفى الحديث « من لعب بالنرد فكأنما غمس يده فى لحم الخنزير ودمه » رواه مسلم (٤ / ١٧٧٠) (١٠) (٢٢٦٠) وأحمد (٥ / ٣٥٢) وأبو داود (٥ / ٤٩٣٩) وغيرهم

بين يديه موت ولا سقم ولا مرض ، ولا شيء فيه ذكر الغمّ إلا ذُكر الفرح والسرور والنوادر التي يضحك منها . ويطرف كلّ يوم بأنواع الطيب والشّمامات ما يكون في أوانه ، حتّى مضت له سبع وعشرون سنة .

فبينا هو ذات يوم في قبّته ، وقد مضى بعض الليل ، إذ سمع نغمة من حلق نديّ شجي خلاف ما يسمع منْ مطربيه ، فأخذتَ بمجامع قلبه ولَها عمّا كان فيه . فأومأ إليهم أن أمسكوا ، وأخرج رأسه من بعض تلك الشبّكات المشرعة إلى الجادّة يتسمّع الذي وقع بقلبه ؛ فإذا النغمة ربمّا سمعها ، وربما خفيت . فصاح بغلمانه: اطلبوا صاحب هذا الصوت !وكان قد عمل فيه الشراب . فخرج الغلمان يطوفون؛ فإذا هم بشابّ نحيل الجسم، دقيق العنق ، مصفرّ اللون ، ذابل الشفتين ، شعث الرأس ، قد لصق بطنه بظهره ، عليه طمران ما يتوارى بغيرهما ، حافي القدمين ، قائم في بعض المساجد يناجي ربّه تعالى . فأخرجوه من المسجد وانطلقوا به لا يكلّمونه ، حتّى أوقفوه بين يديه . فنظر إليه فقال : من هذا ؟ قالوا : صاحب النغمة التي سمعت . قال : أين أصبتموه ؟ قالوا : في المسجد قائمًا يصلي ويقرأ . فقال : أيها الشابّ ! ما كنتَ تقرأ ؟ قال : كلام الله . قال : فأسمعني بتلك النغمة. فقال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ إنَّ الأبرَارَ لَفي نَعيم ﴾ إلى قوله : ﴿ يَشْرَب بِها الْمُقرَّبونَ ﴾ (المطففين : ٢٢ - ٢٨) ؛ أيها المغرور ! إنّها خلاف مجلسك ومستشرفك وفرشك ؛ إنها أرائك مفروشة بفرش مرفوعة ﴿ بَطائنُها مِنْ إسْتَبرَق ﴾ (الرحمن : ٥٤) ، ﴿ عَلى رَفْرَف خُضْر وَعَبْقَرِيٍّ حسان ﴾ (الرحمن : ٧٦) يشرف وليّ الله منها على عينَين تجريانَ في جنّتَين ﴿ فيهِمَا مِنْ كلِّ فاكهة زَوْجان ﴾ (الرحمن: ٥٢) ﴿ لاَ مَقْطُوعة ولا ممنوعة ﴾ (الواقعة : ٣٣) ﴿ في عيشَة رَاضيَة ﴾ (الحاقة : ٢١) ﴿ في جَنَّة عاليَة ﴾ إلى قوله : ﴿ وزَرَابيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ (الغاشَية : ١٠ - ١٦) ﴿ في ظلاَلٍ وَعُيُون ﴾ (المرسلات : ٤١) ﴿ أُكُلُها دَائمٌ وَظلُّها تلْكَ عُقْبى الذينَ اتقوا وَعقْبى الكافرينَ النارُ ﴾ (الرعد : ٣٥) . ﴿ لا يفتَّر عَنهُمْ وَهمْ فيه مُبلسُونَ ﴾ (الزخرف : ٧٤) ، ﴿ في ضَلاَل وسُعُر . يَوْمَ يُسْحَبُون في النَّار على وُجُوههمْ ذُوقُوا مسَ سَقَرَ ﴾ (القمر : ٤٧ ، ٤٨) ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرمُ لَوْ يَفْتَدى مِنْ عَذَاب يَومَئذ ببَنيه ﴾ (إلى قوله : ﴿ وَجَمَعَ فأوْعى ﴾ (المعارج : ١١ - ١٨) في جهد جهيد وعذاب شديد ومقت من ربّ العالمين ﴿ وَمَا هُمْ منْها بمُخْرَجينَ ﴾ (الحجر : ٤٨) .

فقام الهاشمى من مجلسه وعانق الشاب وبكى ؛ وصاح بندمائه : انصرفوا عنى . وخرج إلى صحن داره ، وقعد على حصير مع الشاب ينوح ويبكى على شبابه ويندب نفسه ، والشاب يعظه ، إلى أن أصبح وقد عاهد الله أن لا يعود إلى معصية أبدًا . فلما أصبح أظهر توبته ولزم المسجد والعبادة . وأمر بالذهب والفضة والجواهر والملابس فبيعت كلّها وتصدق بها ، وقطع الإجراء عن نفسه ورد الضياع المُقطَعة ، وباع ضياعه وعبيده وجواريه ، وأعتق من اختار العتق وتصدق به كلّه . ولبس الصوف الخشن وأكل الشعير . وكان يُحيى الليل ، ويصوم النهار ، حتى كان ينتابه الصالحون والأخيار ويقولون له: ارفُق بنفسك فإنّ المولى كريم ، يشكر اليسير ، ويثيب على الكثير . فيقول : يا قومِ ! أنا أعرَفُ بنفسى ، إنّ جرمى عظيم ، عصيت مولاى بالليل والنهار . ويبكى ويكثر البكاء . ثمّ خرج حاجًا على قدميه حافيًا ما عليه إلا خيشة،وما معه إلا رَكْوَة وجراب [1] ،حتّى قَدِم مكّة وقضى حجّه وأقام بها . وكان يدخل الحِجْر بالليل ينوح على نفسه ويقول : سيّدى ! لم أراقبْك فى خلواتى ؛ سيدى ! ذهبت شهواتى وبقيت تَبِعاتى ؛ فالويل لى يوم ألقاك ، والويل كلّ الويل من صحيفتى إذا نشرت مملوءة من فضائحى وخطاياى ؛ بل حلّ بى الويل من مقتك إياى وتوبيخك لى فى إحسانك إلى ومقابلة نعمتك بالمعاصى ؛ وأنت مُطّلع على أفعالى ؛ سيِّدى ! إلى من أهرب إلاّ إليك ، وإلى من التجىء إلاّ إليك ؟ سيّدى ! إنى لا أستأهل أن أسألك الجنّة ، بل أســألك بجودك وكرمك وتفضُّلك أن تغفر لى وترحمنى ، فإنك أهل التقوى وأهل المغفرة .

قال محمد بن السّماك : فبينا أنا ذات ليلة فى الطواف إذ سمعت نغمته ونوحه وبكاءه ، فحرّكنى وأقلقنى . فقطعت الطواف ودخلت الحِجْر ، وأنا لا أثبته ، فقلت له : حبيبى ! من أنت ؟ فإنى أراك صغير السن ، قريح القلب ، مكروبًا مغمومًا ، حزين النّوح ، كثير الدموع ؛ فما القصّة ؟ فإنى حامل الخطيئة مع شيبتى ، صاحبُ ذنوب . فنظر إلىّ فعرفنى ؛ فقال : ألست الواعظ لى وأنا منهمك فى ضلالتى ، سكران فى حيرتى ، لا أقبل عليك بوجهى ؟ أنا موسى بن محمّد بن سليمان بن علىّ الذى رأيتنى بالبصرة . قال : فأصابتنى من قوله دهشة ؛ فدنوت منه فعانقته

---

(١) الجراب : وعاء يحفظ فيه الزاد ونحوه . والجمع . أجربةٌ ، وجُرْبٌ ، وراجع المعجم الوجيز (ص / ٩٨) .

وقبَّلت بين عينيه ، وقلت : بأبى أنت أبو القاسم ! ما القصّة ؟ فأخبرنى قال : استر أمرى فلا أحب - رحمك الله - أن أعرَف وأعلمَ ؛ إنّ المولى المنعم المتفضل المحسن أنبهنى من غفلتى وبصَّرنى بعيب نفسى ، فتركت جميع ما كنت فيه ممَّا رأيت ، وأقبلتُ إلى ربى ؛ فهل تراه يقبلنى ؟ فإنى خائف أن يكون قد صرف وجهه عنى ، قال : فأبكانى كلامه ، وقلت : حبيبى ! أبشر فقد بلغنى أنه ما من شىء أحب إلى الله تبارك وتعالى من شابّ تائب . فلما أن سمعها أراد أن يضبط نفسه من البكاء ، وخاف أن يجتمعوا عليه إذا سمعوا بكاءه . فقام وهو يقول أيها الطبيب ! ابتعنى . فتبعته حتى خرج من باب الحناطين وهو يمشى ويلتفت إلىّ ، وقد أمسك على بطنه ، حتى انتهى إلى باب . ثمّ دخل وأدخلنى معه وأصعدنى إلى غرفة وقعد ، وقال : مازلت متشوقًا إلي لقائك لتداوى قرحى بمرهم كَلامك . فقلت له : أبا القاسم ! قد أسعدك بلطفه إله العالمين فأنبهك من رقدة الغافلين ؛ فاشكره على توفيقه إياك وكن من الشاكرين ، وبما أنعم عليك فكن من الحامدين ، فإنّ الله تعالى معوضك برحمته أفضل ما تركت له من مخافته . أبا القاسم ! اجعل الموت نصب عينيك ، واعلم أنّ بين يديك عقبة عليها المسلك غدًا لا يقطعها إلا الوَرِعُون عن محارم الله تعالى ، وقناطر لا يجوزها إلا المخفّون من المظالم ، يتردّى منها فى نار ﴿ أحاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِماءٍ كالمُهْلِ يَشْوِى الوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مرْتَفَقًا ﴾ (الكهف : ٢٩) . فكنْ على عدّة ، وأعدّ الجواب فإنَّك قادم لا محالة . وعلى من القُدُوم ؟ على أحكم الحاكمين ، والعدل الذى لا يجور ، وديان يوم الدين ، يومَ لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم . وهو منصت يسمع ؛ ثمّ أطرق شبه المفكر ، فتوّهمت أنّه لا يعلم ما أقول ، فقمت من عنده وخرجت . فلمَّا أصبحت تصرّفت فى حوائجى . فلما دخل وقتُ الظهر وأنا فى الطواف ، وإذا الناس يتعادَوْن نحو باب الصفا . قلت : ما الخبر ؟ قالوا : جنازة غَريب . فخرجت وصليت عليه . وضرب على قلبى ، فصرت من فورى إلي تلك الدار ، فسألت عنه : فقالوا : آجرك الله ! ألم تسهد جنازته ؟ قلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ! سبحان الفعَّال لما يريد ! قالوا : ألستَ صاحبه البارحة ؟ قلت : نعم . قال : إنك لما خرجت لم يزل يقول : فؤادى ! فؤادى ! ذنبى ! ذنبى ، إلى أن مضى عامة الليل وهو يبكى ، ثم سكن ؛ فلما أصبح أنبهناه للصلاة فإذا هو قد فارق الدنيا ، لم يشهد خروج روحه أحد ولم يُغمض . قلت لهم : عرفتموه ؟ قالوا : لا ، كان غريبًا من الحاجّ نزل عندنا ، ما

رأينا ولا سمعنا بمثله ؛ ليلة قائم يصلّي وينوح على نفسه كأن ذنوب العباد هو المُطالب بها ، لا يُوقف على كسبه ومطعمه ، ولا يقبل برّ أحد . قلت : كم له منذ نزل عندكم ؟ قالوا : حَجّتين . قلت : معرفة الله خير من معرفتكم إياه .

* * *

٧٢ - (توبة جعفر البرمكيّ) (١)

قال عبد الحميد : كنت في مجلس جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك أعرض عليه متاع مصر ، وهو في قبّة من عاجٍ مركّب قد غشّاها بملحم ، إذ دخل عليه محمد ابن السمّاك . فقال : أسْمعنى بعض كلامك - يرحمك الله - فقال : يا أبا الفضل ! لا أحد أحدّثك عن الماضين ولا عن الملوك السابقة ولا الأكاسرة ، ولكن أخبرك بما شهدتُ وعاينت منذ أعوام من ابن عمٍ لأمير المؤمنين موسى بن محمد بن سليمان بن عليّ بن عبد الله بن العبَّاس ، وحدَّثه في هذا الحديث . فرأيت جعفرًا جعل يبكى ويكثر البكاء ، ويقول : هذا كلّه من توفيق الله تعالى إيّاه وسعادته له . اللّهمّ فكما أسعدته بطاعتك ووّفقته لرضاك وعصمته حتّى نال ذلك كلّه بإرادتك ، وفقنا للعمل الصالح برحمتك ، واختم لنا بعفوك ومغفرتك يا أرحم الراحمين ! ثم إنه في مجلسه ذلك تصدّق بمائة ألف على أهل الحاجة والمسكنة . فما لبث بعد ذلك إلاّ القليل حتى غضب عليه هارون أمير المؤمنين وأمر بقتله وأن يُجعَل أربعًا ويُصلَب . ففُعل به ذلك . فكانُ يرجي لجعفر ذلك الدعاء لعل الله تعالى استجاب له ؛ لأنه مثِّل به . وكان كثير الصنائع المحمودة ، معطيًا للمال ، قاضيًا للحوائج ، حسن العشرة ، عارفًا بحقّ الإخوان رحمه الله .

* * *

---

(١) وهو : جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك ، أبو الفضل البرمكى . وكانت له فصاحة وبلاغة وذكاء وكرم زائد وصار له اختصاص بالرشيد . قال الخطيب : لقد كان جعفر من علوّ القدر ونفاذ الأمر عند الرشيد على حالة انفرد بها . وقتله الرشيد ونصب رأسه على الجسر . وكان مقتله ليلة السبت مستهل صفر من سنة ١٨٧ هـ . وكان عمره ٣٧ سنة . وراجع البداية والنهاية (١٠ / ٧١٠ - ٧١١ - ٧١٢ - ٧١٣) .

٧٣ - (توبة جارية من بنات الكبار على يد أبى شعيب البرائى)

أخبرنا أبو الفتح محمّد ، أنبأ أبو الفضل المقرئ ، أنبأ أبو نعيم ، أخبرنى جعفر ابن محمّد بن نصير فى كتابه قال : سمعت الجنيد بن محمّد يقول :

كان أبو شعيب البرائىّ أول من سكن برائى فى كوخ يتعبّد فيه . فمرّت بكوخه جارية من بنات الكبار كانت ربّيت فى قصور الملوك .فنظرتْ إلى أبى شعيب فاستحسنت حاله وما كان عليه ، فصارت كالأسير له ، فعزمت على التجرّد من الدنيا والاتصال بأبى شعيب فجاءت إليه ، وقالت : أريد أن أكون لك خادمة . فقال لها : إن أردت ذلك فغيّرى من هيئتك وتجردى عما أنتِ فيه حتى تصلحى لما أردت . فتجرّدتْ عن كل ما تملكه ولبست ثياب النساك وحضَرته ، فتزوّجها . فلمّا دخلَت الكوخ رأت قطعة خصاف فى مجلس أبى شعيب تقيه النَّدى [١] . فقالت : ما أنا بمقيمة فيها حتَّى تُخرج ما تحتك ، لأنى سمعتك تقول : إن الأرض تقول : يا ابن آدم! تجعل اليوم بينى وبينك حجابًا وأنت غدًا فى بطنى ؟ فما كنتُ لأجعل بينى وبينها حجابًا . فأخذ أبو شعيب الخصاف فرمى بها . فمكثت معه سنينَ كثيرة تتعبَّد أحسن عبادة ، وتوفِّيا على ذلك متعاونَيْن [٢] .

* * *

---

(١) الندَّى : بُخار الماء يتكاثف فى طبقات الجو الباردة فى أثناء الليل ويسقط على الأرض قطرات صغيرة . وبمعنى الجود والسخاء . والجمع . أنداء . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٦٠٩) .

(٢) وهذا زهد زائد فتعريف الزهد : ترك ما لا يحتاج إليه من الدنيا وإن كان حلالاً ، وإلا قتصار على الكفاية وفى الحديث « إزهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس » : الحديث ضعيف : رواه ابن ماجه فى السنن (٢ / ١٣٧٣ - ١٣٧٤) كتاب الزهد (٣٧) «ح» (٤١٠٢) ، والعقيلى فى الضعفاء الكبير (٢ / ١١) ضمن ترجمة خالد بن عمرو الأموى (٤١٣) والطبرانى فى الكبير (٦ / ٢٣٧) «ح» (٥٩٧٢) وابن عدى فى الكامل(٢ / ٩٠٢) ضمن ترجمة خالد بن عمرو القرش.والحاكم في المستدرك(٤ / ٣١٣) . وأبو نعيم فى الحلية (٣ / ٢٥٣) ضمن ترجمة سلمة بن دينار (٢٤٠) والتبريزى فى المشكاة (٣ / ١٤٣٣) وعزاه للترمذى ولابن ماجه ، ولكن عزوه للترمذى غير سديد . ويقول القارى : قال ميرك ، أظن أن ذكر الترمذى وقع سهوًا من الناسخ. انظر المرقاة (٥ / ٣٣) ، والحديث ضعيف فيه : خالد بن عمرو القرشي : ضعيف . قال العقيلى : ليس له أصل من حديث الثورى . قال البخارى : منكر الحديث . وراجع الميزان (/ ١٥٨ - ١٥٩ - ١٦٠) برقم (٢٤٤٧) وفى التهذيب (٣ / ١٠٩) .وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع برقم (٩٢٢) وفى الصحيحة (٩٤٤) . ولا أرى أن يرتفع إلى درجة الحسن والله تعالى أعلم .

٧٤ - (توبة الواثق بالله [١] وابنه المهتدى بالله [٢])

أخبرنا الشيخ الإمام العالم أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى قال : أخبرنا أبو منصور عبد الرحمن بن محمّد القزاز ، وأبو السعود أحمد بن على بن المجلى قالا : أنا أحمد بن على بن ثابت ، أنا محمد بن أحمد بن رزق ، أنا أحمد ابن سندى الحداد قال : قرئ على أحمد بن المنيع وأنا أسمع قيل له : أخبركم صالح ابن على بن يعقوب الهاشمى قال :

حضرتُ المهتدى بالله أمير المؤمنين وجلس للنظر فى أمور المظلومين فى دار العامة . فنظرتُ إلى قصص الناس تُقرأ عليه من أوّلها إلى آخرها ؛ فيأمر بالتوقيع عليها ، وينشأ الكتابُ عليها وتحرَّر ، وتُختم وتُرفع إلى صاحبها بين يديه . فسرّنى ذلك ؛ واستحسنتُ ما رأيتُ . فجعلتُ أنظر إليه ؛ ففطن ونظر إلىّ ، فغضضت عنه ، حتى كان ذلك منى ومنه مِراراً ثلاثًا : إذا نظر غضضت ، وإذا شُغِل نظرت . فقال لى : يا صالح ! قلت : لبيَّك يا أمير المؤمنين ! وقمت قائمًا . فقال : فى نفسك منّا شيء تريد - أو قال - تحبّ أن تقوله ؟ قلت : نعم يا سيدى ! فقال لى : عد إلى موضعك . فَعُدْتُ ؛ حتّى إذا قام ، قال للحاجب : لا يبرحْ صالح . فانصرف الناس ؛ ثم أذِنَ لى فدخلتُ فدعوتُ له ، فقال لى : اجلس . فجلستُ ، فقال : يا صالح تقول لى ما دار فى نفسك أو أقول أنا ما دار فى نفسى أنّه دار فى

---

(١) وهو : هارون الواثق بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد أبى جعفر هارون الواثق . بويع بالخلافة قبل موت أبيه سنة ٢٢٧ هـ - ويكنى : أبا جعفر . وجمع الواثق أصحاب النجوم فى زمانه حين اشتدت علته واشتدت بعد قتله أحمد بن نصر الخزاعى وقال الخطيب : وكان ابن أبى داود استولى على الواثق وحمله على التشديد فى محنة خلق القرآن . ويقال أنه رجع عن ذلك قبل موته . توفى - رحمه الله سنة ٢٣٢ هـ . وراجع البداية والنهاية (١٠ / ٨٥٥ - ٨٥٦ - ٨٥٧ - ٨٥٨) .

(٢) وهو محمد بن هارون بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد . أبو عبد الله المهتدى . وأخذ البيعة يوم الأربعاء سنة ٢٥٥ هـ . بعد خلع المعتز نفسه . وكانت خلافته صالحة وأمر بنفى القيان والمغنون من سامرا وأمر بقتل السباع والكلاب التى فى دار السلطان ، وقتل على يد أحمد بن خاقان رماه بسهم فى خاصرته وحملوه إلى دار أحمد بن خاقان . فجعل من هناك يصفعونه ويبزقون فى وجهه وغير ذلك حتى مات سنة ٢٥٦ هـ يوم الخميس - رحمه الله . وراجع البداية والنهاية (١١ / ٢٤ - ٢٥ - ٢٦ - ٠٠ ٣١) .

نفسك ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ! ما تعزم عليه وتأمر به ، قال : أقول أنا : إنه دار في نفسي أنّك استحسنت ما رأيت منّا ، فقلتَ : أى خليفة خليفتُنا إن لم يكن يقول: القرآنُ مخلوقٌ ؟ فورد على قلبي أمر عظيم ؛ ثمّ قلتُ : يا نفس ! هل تموتين قبل أجلك ؟ وهل تموتين إلاّ مرّة ؟ وهل يجوز الكذب في جدّ أو هزل ؟ فقلتُ : يا أمير المؤمنين ! ما دار في نفسي إلاّ ما قلتَ . ثمّ أطرق مليًا وقال : ويحك ! اسمع مني ما أقول ، فوالله لتسمعنّ الحق ، فسُرّي عنّى فقلت : يا سيدى ! وَمن أولى بقول الحق منك وأنتَ خليفة رب العالمين وابن عم سيِّد المُرسَلين ؟ فقال : ما زلت أقول : إن القرآن مخلوق صدرًا من أيام الوثائق ، حتى أقدم أحمد بن أبى داود علينا شيخًا من أهل الشام من أهل « اذَنَةَ » فادخل الشيخ على الواثق مقيَّدًا ، وهو جميل الوجه تام القامة حسن الشيبة . فرأيت الواثق قد استحيى منه ورق له . فما زال يدنيه ويقربه حتى قرب منه . فسلم الشيخ فأحسن ، ودعا فأبلغ . فقال له الواثق : اجلس ، فجلس ، فقال له : يا شيخ ! ناظر ابن أبى داود[1] على ما يناظرك عليه . فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ! ابن أبى داود يصبى ويضعُف عن المناظرة . فغضب الواثق عاد مكان الرقة غضبًا عليه . قال الواثق : أبو عبد الله بن أبى دُواد يصبى ويضعف عن مناظرتك أنت ؟ فقال الشيخ : هوِّن عليك يا أمير المؤمنين ما بك، فائذَنْ فى مناظرته . فقال الواثق : ما دعوتك إلا للمناظرة . فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ! إن رأيتَ أن تحفظ على وعليه ما نقول . قال : أفعلُ .

قال الشيخ : يا أحمد ! أخبرْنى عن مقالتك هذه ، هى مقالة واجبة داخلة فى عقد الدِّين فلا يكون الدِّين كاملاً حتى يُقال فيه بما قلتَ ؟ قال : نعم . قال الشيخ : يا أحمد ! أخبرنى عن رسول الله ﷺ حين بعثه الله إلى عباده ، هل ستر شيئًا مما أمره الله به فى أمر دينهم ؟ قال : لا . فقال الشيخ : فدعا رسول الله ، الأمة إلى مقالتك هذه ؟ فسكت ابن أبى داود . فقال الشيخ : تكلم ! فسكت . فالتفت إلى الواثق ، فقال : يا أمير المؤمنين ! واحدة . فقال الواثق : واحدة.

---

(١) قال ابن خلكان اسمه : أبو عبد الله أحمد بن أبى دؤاد فرج بن جرير بن مالك بن عبد الله بن عباد بن سلام ولى قضاء القضاة للمعتصم . ثم للواثق وكان موصوف بالأدب ولكن كان مذهبه جهمى وحمل السلطان على امتحان الناس بخلق القرآن وان الله لا يرى فى الآخرة . إبتلاه الله بالفالج قبل موته بأربع سنين حتى بقى طرحًا وحرم لذة الطعام والنكاح . توفى سنة (٢٤٠ هـ) . وراجع البداية والنهاية (١٠ / ٨٧٠ - ٨٧١ - ... ٨٧٥) .

فقال الشيخ : يا أحمد ! أخبرنى عن الله عز وجل حين أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فقال : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ ، (المائدة : ٣) هل كان الله تعالى الصادق فى إكمال دينه أو أنت الصادق فى نقصانه حتى يُقال فيه بمقالتك هذه ؟ فسكت ابن أبى داود . فقال الشيخ : أجبْ يا أحمد ! فلم يُجبْ ؛ فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ! اثنتان . فقال الواثق . اثنتان ، فقال الشيخ : يا أحمد ! أخبرنى عن مقالتك هذه ، هل علمها رسول الله ﷺ أم جهلها ؟ فقال ابن أبى دُواد : علمها . قال : فدعا الناس إليها ؟ فسكت ؛ فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ! ثلاث . فقال الواثق : ثلاث . فقال الشيخ : يا أحمد ! فاتَّسعَ لرسول الله ﷺ أن علمها وأمسك عنها كما زعمت ولم يطالب أمته بها ؟ قال : نعم قال الشيخ : واتَّسع لأبى بكر الصدّيق وعمر بن الخطاب وعثمان ابن عفّان وعلىّ بن أبى طالب ﷺ ؟ قال ابن أبى داود : نعم . فأعرض الشيخ عنه وأقبل على الواثق ، فقال : يا أمير المؤمنين ! قد قدّمتُ القول : إنّ أحمد يصبى ويضعف عن المناظر ؛ يا أمير المؤمنين ! إن لم يتسع لنا من الإمساك عن هذه المقالة بما زعم هذا أنه اتَّسع لرسول الله ﷺ ولأبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ ، فلا وّسع الله على من لم يتسَّع له ما اتَّسع لهم . فقال الواثق : نعم ، إن لم يتَّسع لنا من الإمساك عن هذه المقالة ما اتَّسع لرسول الله ﷺ ولأبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ فلا وّسع الله علينا ؛ اقطعوا قيد الشيخ ! فلما قُطع القيد ضرب الشيخ بيده إلى القيد حتى يأخذه ، فجاذبه الحدّاد عليه . فقال الواثق : دع الشيخ يأخذه ! فأخذه فوضعه فى كمّه . فقال له الواثق : يا شيخ ! لم حاذبت الحدّاد عليه ؟ قال : لأنى نوديت أن أتقدّم إلي من أوصى إليه إذا أنا متّ أن يجعله بينى وبين كفنى حتى أخاصم به هذا الظالم عند الله يوم القيامة ، وأقول : يا ربّ ! سلْ عبدك هذا لِمَ قيَّدنى وروَّع أهلى وولدى وإخوانى بلا حقّ أوجبَ ذلك على . وبكى الشيخ وبكى الواثق وبكينا . ثم سأله الواثق أن يجعله فى حلٍّ وَسَعة بما ناله ، فقال الشيخ : والله يا أمير المؤمنين ، لقد جعلتك فى حلٍّ وسَعَة من أوّل يوم إكرامًا لرسول الله ﷺ ، إذ كنت رجلاً من أهله . فقال الواثق : لى إليك حاجة . فقال الشيخ : إن كانت ممكنة فعلتُ . فقال له الواثق : تُقيمُ قِبَلنا فننتفع بك وتنتفع بنا . فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ! إن ردَّك إياى إلى الموضع الذى أخرجنى عنه هذا الظالم أنفع لك من مقامى عليك ؛ وأخبرك بما فى ذلك : أصير إلى أهلى وولدى فأكف

دعاءهم عليك ، فقد خلَّفتهم على ذلك . فقال له الواثق : فتقبل منا صلةً تستعين بها على دهرك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! لا تَحلُّ لى ، أنا عنها غنى وذو مِرة سوى فقال : سلْ حاجة . فقال : أو تقضيها يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم . قال : تأذن أن يُخلى لى السبيل الساعة إلى الثغر . قال : قد أذنت لك فسلمً وخرج .

قال المهتدى بالله : فرجعتُ عن هذه المقالة ، وأظنّ أن الواثق رجع عنها منذ ذلك الوقت .

* * *

ذكر سبب توبة جماعة من الأمة رحمة الله عليهم

٧٥ - (توبة حبيب أبى محمد)

أخبرنا أبو الفتح محمد بن عبد الباقى ، أنبأ أبو الفضل أحمد بن أحمد الحداد ، أنبأ أبو نعيم الحافظ [١] ، قال :

كان سبب إقبال حبيب أبى محمد على الآجلة وانتقاله عن العاجلة حضوره مجلس الحسن [٢] فوقعت موعظته فى قلبه ، فخرج عما كان يتصرف فيه ثقة بالله ومكتفيًا بضمانه ، فاشترى نفسه من الله ، فتصدق بأربعين ألف درهم فى أربع دفعات: تصدق بعشرة آلاف درهم فى أول النهار ، فقال : يا رب ! قد اشتريتُ نفسى منك بهذا ، ثم أتبعها بعشرة آلاف أخرى ، فقال: هذه شكرًا لما وفَّقتنى له؛ ثم أخرج عشرة آلاف أخرى فقال : يا رب ! إن لم تقبل منى الأولى والثانية فاقبل منى هذه ؛ ثم تصدق بعشرة آلاف أخرى ، فقال : يا رب ! إن قبلت منى الثالثة فهذه شكرًا لها .

* * *

(١) هو : أحمد بن عبد الله بن أحمد بن اسحاق بن موسى بن مهران ، أبو نعيم الأصبهانى ، الحافظ الكبير . له تصانيف عديدة مثل « حلية الأولياء » و« معجم الصحابة » و« صفة الجنة ودلائل النبوة » « وكتاب فى الطب النبوى » . توفى رحمه الله فى سنة ٤٣٠ هـ عن أربع وتسعين سنة . وراجع البداية والنهاية (١٢ / ٥١٠ - ٥١١) .

(٢) هو : الحسن بن يسار البصرى . مولى زيد بن ثابت . وأمه : خيرة : مولاة لأم سلمة ، كانت تخدمها . وكان عمر بن الخطاب يدعو له فيقول « اللهم فقهه في الدين ، وحببه إلى الناس » . قال قتادة : ما رأيت عيناى أفقه من الحسن . . وراجع البداية والنهاية (٩ / ٣٥١ - ٣٥٢) وفى الميزان (٢ / ٥٠) برقم (١٩٦٨) .

٧٦ - (توبة زاذان الكندى [١])

وروى عن عبد الله بن مسعود ﷺ [٢] أنه مرَّ ذات يوم فى موضع من نواحى الكوفة فاذا فتيان فسّاق قد اجتمعوا يشربون ، وفيهم مغنٍ يُقال له : زاذان يضرب ويغنِّى ، وكان له صوت حسن .

فلما سمع ذلك عبد الله قال : ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله ! وجعل الرداء على رأسه ومضى ، فسمع زاذان قوله فقال : من كان هذا ؟ قالوا : عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ قال : وأىّ شىء قال ؟ قالوا : إنه قال: ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله تعالى . فقام وضرب بالعود على الأرض فكسره ثم أسرع فأدركه وجعل المنديل فى عنق نفسه وجعل يبكى بين يدى عبد الله بن مسعود . فاعتنقه عبد الله بن مسعود ، وجعل يبكى كل واحد منهما . ثم قال عبد الله : كيف لا أحبّ من قد أحبه الله - عز وجل - فتاب إلى الله - عز وجل - من ذنوبه ؛ ولازم عبد الله بن مسعود حتى تعلم القرآن ، وأخذ حظًّا من العلم حتى صار إمامًا فى العلم ، وروى عن عبد الله بن مسعود وسلمان وغيرهما .

* * *

---

(١) هو : زاذان أبو عمر الكندى مولاهم الكوفى : كان يشرب المسكر ويضرب بالطنبور فرزقه الله التوبة على يد ابن مسعود . قال ابن معين : ثقة . وذكره ابن عدى فى الكامل وقال : أحاديثهُ لا بأس بها . قال أبو أحمد الحاكم : ليس بالمتين عندهم . قال ابن عدى : تاب على يدى ابن مسعود - ﷺ . توفى سنة ٨٢ هـ . وراجع البداية والنهاية (٩ / ٦٤) والميزان (٢ / ٢٥٣) برقم (٢٨١٧) وفى التهذيب (٣ / ٣٠٢ - ٣٠٤) .

(٢) ابن مسعود هو : عبد الله بن مسعود بن غافل بمعجمة وفاء ابن حبيب بن شخص بن قاربن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحرث بن تيم بن سعد بن هذيل الهذلى . شهد بدر وما بعدها . قال أبو نعيم : كان سادس من اسلم . وكان يقول أخذت من فى رسول الله ﷺ سبعين سورة . أخرجه البخارى . وكان يحمل نعل النبى ﷺ . قال البخارى مات قبل قتل عمر . قال أبو نعيم : مات سنة ٣٢ هـ وقيل ثلاث انظر جامع المعقول والمنقول (ص / ١٩٦) لابن الأثير الجزرى .

٧٧ - (توبة مالك بن دينار (١))

وروى عن مالك بن دينار أنهُ سئل عن سبب توبته ، فقال : كنت شرطيًا وكنتِ منهمكًا على شرب الخمر . ثم إننى اشتريتُ جارية نفيسة (٢) ؛ ووقعت منى أحسن موقع ، فولدت لى بنتًا . فشغفتُ بها ؛ فلما دبت على الأرض ازدادت فى قلبى حبًا ، وألِفتنى وألِفتها . قال : فكنت إذا وضعتُ المسكر بين يدىَّ جاءت إلىَّ وجاذبتنى عليه وهرَقته من ثوبى ، فلما تم لها سنتان ماتت فأكمدنى حزنها . فلما كانت ليلةُ النصف من شعبان ، وكانت ليلةَ الجمعة ، بتّ ثملاً (٣) من الخمر ؛ ولم أصلٍ فيها عشاء الآخرة . فرأيت فيما يرى النائم كأن القيامة قد قامت ، ونفخ فى الصور ، وبُعثرت القبور ، وحُشر الخلائق ، وأنا معهم . فسمعت حسًا من ورائى ، فالتفت ، فإذا أنا بتنِّين (٤) أعظم ما يكون أسود أزرقَ قد فتح فاه مسرعًا نحوى . فمررت بين يديه هاربًا فزعًا مرغوبًا . فمررت فى طريقى بشيخ نقىٍّ الثوب طيب الرائحة ؛ فسلمت عليه فردّ السلام . فقلت : أيها الشيخ ! أجِرنى من هذا التنِّين أجارك الله ، فبكى الشيخ وقال لى : أنا ضعيف وهذا أقوى منى وما أقدر عليه ؛ ولكن مر وأسرعْ فلعل الله أن يتيح لك ما ينجيك منه . فوليت هاربًا على وجهى ، فصعدتُ على شرف من شُرَف القيامة ، فأشرفت على طبقات النيران ، فنظرت إلي هولهَا ، وكدت أهوى فيها من فزع التنين ؛ فصاح بى صائح : ارجع فلست من

---

(١) مالك بن دينار : من علماء البصرة وزُهَّادها المشهورين . وكان ينسخ المصاحف . صدوق . وثقة النسائى وغيره . قال بعضهم : صالح الحديث . قال الأزدى : يعرف وينكر . قال ابن المدينى : له نحو أربعين حديثًا . وقال الذهبى : استشهد به البخارى واحتج به النسائى . وذكره ابن حبان فى الثقات . يكنى أبا يحيى . يروى عن آنس بن مالك . وفى وفاته أقوال : أحدها ١٣٠ هـ . وراجع « الميزان » (٤ / ٣٤٦) برقم (٦ / ٧٠) للذهبى .

(٢) النفيس : الشيء العظيم فى القدر والقيمة . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٦٢٧) .

(٣) ثَملَ : سكرَ من الشراب . فهو ثمل . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٨٧) .

(٤) التِّنين : فى المعجم : حيوان اسطورى يجمع بين الزواحف والطير وله مخالب أسد . قُلتُ : ويصح أن يكون نوع من الحاتِ العظام كما جاء وصفها فى الأحاديث مثل تمثله لجامع الذهب ولا يخرج زكاته ... انظر المعجم الوجيز (ص / ٧٨) .

أهلها! فاطمأننت إلى قوله ورجعت ، ورجع التنين فى طلبى . فأتيت الشيخ فقلت : يا شيخ ! سألتك أن تجيرنى من هذا التنين فلم تفعل . فبكى الشيخ ، وقال : أنا ضعيف ولكن سر إلي هذا الجبل ، فإنّ فيه ودائع المسلمين ، فإن كان لك فيه وديعة فستنصرك . قال : فنظرت إلي جبل مستدير من فضة ، وفية كوى مخرّمة وستور معلق ، على كلّ خوخة وكوة مصراعان من الذهب الأحمر ، مفصّلة باليواقيت مكوكبة بالدر ، على كل مصراع ستر من الحرير . فلما نظرت إلي الجبل وليت إليه هاربًا والتنّين من ورائى ؛ حتى إذا قربت منه صاح بعض الملائكة : ارفعوا الستور وافتحوا المصاريع وأشرفوا ! فلعل لهذا البائس فيكم وديعة تجيره من عدوه . فإذا الستور قد رُفعت والمصاريع قد فتحت ، فأشرف على من تلك المخرّمات أطفال بوجوه كالأقمار . وقرب التنّين منى ، فتحيرت فى أمرى . فصاح بعض الأطفال : ويحكم ! أشرفوا كلكم فقد قرب منه عدوه . فأشرفوا فوجًا بعد فوج ، وإذا أنا بابنتى التى ماتت قد أشرفت علىّ معهم . فلما رأتنى بكت وقالت : أبى والله ! ثم وثبت فى كفة من نور كرَمية السهم حتى مثلت بين يدّى . فمدت يدها الشمال إلى يدى اليمنى فتعلّقت بها ، ومدت يدها اليمنى إلي التنّين فولى هاربًا .

ثم أجلستنى وقعدت فى حجرى وضربت بيدها اليمنى إلى لحيتى ، وقالت : يا أبت ﴿ ألَمْ يأنِ للذينَ آمنُوا أنْ تخْشَعَ قُلوبُهمْ لذكر الله ﴾ . (الحديد : ١٦) فبكيتَ وقلت : يا بنيَة ! وأنتم تعرفون القرآن ؟ فقالت : يا أبتِ ! نحن أعرف به منكم . قلت : فأخبرينى عن التنين الذى أراد أن يهلكنى . قالت : ذلك عملك السوء قوّيته فأراد أن يغرقك فى نار جهنم . قلت : فأخبرينى عن الشيخ الذى مررتُ به فى طريقى . قالت : يا أبتِ ! ذلك عملك الصالح أضعفته حتى لم يكن له طاقة بعملك السوء . قلت : يا بنية ! وما تصنعون فى هذا الجبل ؟ قالت : نحن أطفال المسلمين قد أُسكنا فيه إلى أن تقوم الساعة ننتظركم تقدمون علينا فنشفعَ لكم .

قال مالك : فانتبهت فزعًا وأصبحت فأرقت المسكر [1] وكسرت الآنية وتبت إلى الله عزّ وجلّ . وهذا كان سبب توبتى .

* * *

---

(١) الخمر فى اللغة : تذكر وتؤنث . والأصمعى : أنكر التذكير . فالخمر مؤنثة فقط . قال ابن الأعرابى : وسميت الخمر خمرًا لأنها تركت فأخمرت واختمارها تغير ريحها . وقيل سميت لمخاوتها العقل . وتسبب السُكر : والسكران ضد الصاحى . والجمع سكارى . وقرأ النخعى : سكرى بفتح السين على مثال « فعلى » . =

٧٨ - (توبة داود الطائى) (١)

أخبرنا عبد الله بن عبد الرحمن السلمىّ ، أنبأ أبو القاسم الحسينىّ ، أنبأ رشأ ابن نظيف المقرئ ، أنبأ الحسن بن إسماعيل ، أنبأ أحمد بن مروان ، ثنا محمد بن حاتم البغدادىّ ، قال : سمعت الحمانى يقول : كان بدء توبة داود الطائى(٢) أنه دخل المقبرة فسمع امرأة عند قبر وهى تقول :

مُقيمٌ إلى أن يبعثَ اللهُ خلقهُ
لقاؤكَ لا يُرْجى وَأنت قريبُ
تزيدُ بِلىً فى كلٍّ يومٍ وليلةٍ
وتُسلى كما تَبلى وأنت حبيبُ

وقال أبو نعيم : قدم داود من السواد ولا يفقه ؛ فلم يزل يتعلَّم ويتعبَّد حتى ساد أهل الكوفة . وقال يوسف بن أسباط : ورث داود عشرين ديناراً فأكلها فى عشرين سنة . قال أبو نعيم : كان داود يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز . وقال : بين

= ومن المعروف أن هناك تدرج فى التشريع : لأن الشرع لم ينزل دفعة واحدة بل على فترات حسب الحدث . ومن أمثلة ذلك الزنا : كان فى صدر الإسلام لا يرجم الزانى أو يجلد بل الحبس فى البيت والإيذاء بالقول فيقول تعالى : ﴿ واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت ﴾ . ثم بعد ذلك أصبح الرجم للمحصن والجلد والتغريب للغير محصن .

فكذا التدرج بالنسبة للخمر : وهذا واضح من حديث عمر بن الخطاب « اللهم بين لنا فى الخمر شفاء » ونزل القرآن على دفعات والحديث رواه الترمذى (٥ / ٣٠٦) وأبو داود (٣٦٧٠) باب (١) ، والنسائى باب (١) «ح» (٥٥٥٥) وفيه : محمد بن يوسف . ضعيف . ضعفه البخارى وغيره . ووثقه ابن حبان . انظر التهذيب (٩ / ٤٧١) . وقال المباركفورى: تابعه عليه خلف بن الوليد عند أحمد . وقال نقلاً عن الحافظ فى - الفتح - بعد ذكره لهذا الحديث : صححه على بن المدينى والترمذى ، والحافظ ابن كثير فى التفسير ا هـ .

(١) وهو : داود بن نصير الطائى أبو سليمان . تعلم من أبى حنيفة وغيره من العلماء، وهو من كبار الزهاد. وقال الذهبى: وهو ثقة بلا نزاع . ووثقه ابن معين. توفى سنة ١٦٥ هـ . وراجع « الميزان » (٢ / ٢١١) برقم (٢٦٥١) .

مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية · ودخل إليه يومًا رجل ، فقال : إن فى سقف بيتك جذعًا قد انكسر · فقال : يا ابن أخى ! إنى فى هذا البيت منذ عشرين سنة ، ما نظرت إلى السقف · وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام ·

* * *

٧٩ - (توبة الفضيل بن عياض) (١)

أنبأنا الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علىّ أنا عبد الرحمن بن أبى غالب ، أنا أحمد بن على قال : أخبرنى الحسن بن على بن محمد الواعظ ، ثنا محمد بن العباس ، قال : أنبأ على بن الحسين بن حرب ، ثنا إبراهيم بن الليث النخشى ، ثنا على بن خشرم قال : أخبرنى رجل من جيران الفضيل بن عياض ، قال :

كان الفضيل يقطع الطريق وحده · فخرج ذات ليلة ليقطع الطريق ، فإذا هو بقافلة قد انتهت إليه ليلاً ، فقال بعضهم لبعض : اعدلوا بنا إلى هذ القرية فإن أمامنا رجلاً يقطع الطريق يُقال له : الفضيل · قال : فسمع الفضيل ، فأرعد ، فقال : يا قوم ! أنا الفضيل ، جوزوا ، والله لأجتهدَنَّ أن لا أعصى الله أبدًا ! فرجع عما كان عليه ·

ورُوى من طريق أخرى أنه أضافهم تلك الليلة ؛ وقال : أنتم آمنون من الفضيل · وخرج يرتاد لهم علفًا ؛ ثمّ رجع فسمع قارئًا يقرأ ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قلوبُهم لِذكرِ اللهِ ﴾ (الحديد : ٦) قال : بلى واللهِ قد آن · فكان هذا مبتدأ توبته ·

وقال إبراهيم بن الأشعث : سمعت فضيلاً ليلة وهو يقرأ سورة محمد ﷺ ويبكى ويرددّ هذه الآية ﴿ وَلَنبْلوَنَّكمْ حتىَ نعْلَم المجاهدين مِنْكمْ وَالصَّابرِينَ وَنَبْلوَاَ أخْبَارَكم ﴾ (محمد : ٣١) وجعل يقول : ونبلوَ أخباركم ! ويردد ويقول : وتبلوَ

(١) وهو : الفضيل بن عياض بن مسعود التميمى اليربوعى · الزاهد · شيخ الحرم وأحد الأثبات · مُجمع على ثقته وجلالته ولا عبرة بما رواه أحمد بن أبى خيثمة قال : سمعت قُطبة بن العلاء يقول : تركت حديث فُضيل بن عياض لأنه روى آحاديث أذْرَى فيها على عثمان ﷺ · وقال الذهبى : فمن قُطبة ! وما قُطبة حتى يجرح وهو هالك · وراجع ترجمته فى البداية والنهاية · (١٠ / ٧١٥ - ٧١٦)،وفى وفى الميزان (٤ / ٢٨١) برقم (٦٧٦٨) ·

أخبارنا ! إن بلوتَ أخبارنا فضحتنا وهتكــتَ أستارنا ! إن بلوتَ أخبارنا أهلكتنا وعذّبتنا !

وسمعته يقول : تزّينت للناس وتصنّعتَ لهم وتهيّأتَ لهم ، ولم تزل ترائى حتى عرفوك فقالوا : رجل صالح ! فقضواْ لك الحوائج ، ووسّعوا لك فى المجلس ، وعظّموك ، خيبة لك ؛ ما أسوأ حالك إن كان هذا شأنك !

وسمعته يقول : إن قدرتَ أن لا تُعرف فافعلْ ؛ وما عليك أن لا تعرف ، وما عليك إن لم يُثنَ عليك ، وما عليك أن تكون مذمومًا عند الناس إذا كنت عند الله محمودًا .

* * *

٧٨ - (توبة على بن الفضيل بن عياض)

أخبرنا الحافظ أبو موسى محمّد بن أبى بكر الأصبهانىّ فى كتابه ، أنا عبد الرزّاق بن محمد بن الشرابىّ ، أنا سعيد بن محمد بن سعيد الولىّ ، أنا على بن أحمد بن علىّ الواقدىّ ، أنا أبو اسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبىّ ، أنا أبو الحسن عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد ابن يحيى قال : سمعت أبى يقول : سمعت محمد بن اسحاق السرّاج يقول : سمعت محمد بن خلف يقول : حدّثنى يعقوب بن يوسف ، قال :

كان الفضيل بن عياض إذا علم أن ابنه عليًا خلفه - يعنى فى الصلاة - مرّ ولم يقفْ ولم يخوّفْ ؛ وإذا علم أنه ليس خلفه تنوّق فى القرآن وحزّن وخوّف . فظنّ يومًا أنه ليس خلفه ، فأتى على ذكر هذه الآية : ﴿ ربَّنا غَلبتْ علينْا شقْوتُنا وكُنا قومْاً ضالين ﴾ . (المؤمنون : ١٠٦) . قال : فخرّ علىّ مغشيًا عليه . فلما علم أنه خلفه وأنه قد سقط ، تجوّز فى القراءة . فذهبوا إلى أمه فقالوا : أدركيه . فجاءت فرّشت عليه ماءً ، فأفاق . فقالت لفضيل : أنت قاتل هذا الغلام على فمكث ما شاء الله . فظن أنه ليس خلفه ، فقرأ : ﴿ وبدا لهمْ من الله ما لمْ يكُونوا يحتسبُونَ ﴾ . (الزمر : ٤٧) فخرّ ميتًا . وتجوّز أبوه فى القراءة . وأُتيت أمّه فقيل لها : أدركيه . فجاءت فرشّت عليه ماءً ، فإذا هو ميّت رحمه الله .

* * *

٧٩ – (توبة بشر بن الحارث الحافى) (١)

أخبرنا محمد بن عبد الباقى ، أنا حمد بن أحمد قال : سمعت عبد الله ابن محمد بن جعفر يقول : سمعت عبد الله بن محمد يقول : سمعت محمد ابن الدينورىّ يقول : سمعت بشر بن الحارث وسُئِلَ : ما كان بدء أمرك ، لأنّ اسمك بين الناس كأنه اسم نبىّ ؟ قال : هذا من فضل الله ، وما أقول لكم ؟ كنت رجلاً عَيَّاراً (٢) صاحب عَصبيَّة ، فجزْت يومًا ، فإذا أنا بقرطاس (٣) فى الطريق ، فرفعته فإذا فيه : ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ ﴾ . فمسحتَه وجعلتُه فى جيبى . وكان عندى درهمان ما كنت أملكُ غيرهما . فذهبت إلى العطّارين فاشتريت بهما غاليَةً (٤) . ومسحته فى القرطاس . فنمت تلك الليلة ؛ فرأيت فى المنام كأن قائلا يقول : يا بشر بن الحارث! رفعت اسمنا عن الطريق وطيّبتَه ، لأُطيِّبنَّ اسمك فى الدنيا والآخرة ! ثمّ كان ما كان .

وحُكى أن بشراً كان فى زمن لهوه فى داره ، وعنده رفقاؤه يشربون ويطيبون . فاجتاز بهم رجل من الصالحين ، فدقّ الباب . فخرجت إليه جارية ، فقال : صاحب هذه الدار حرّ أو عبد ؟ فقالت : بل حرّ ! فقال : صدقتِ ، لو كان عبدًا لاستعمل أدب العبودية وترك اللهو والطرب . فسمع بشر محاورتهما فسارع إلى الباب حافيًا حاسرًا وقد ولىَّ الرجل . فقال للجارية : ويحكِ ! من كلّمكِ على الباب ؟ فأخبرته بما جرى . فقال : أىّ ناحية أخذ الرجل ؟ فقالت : كذا ، فَتبعه بشر حتى لحقه ؛

---

(١)وهو : بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان بن عبد الله المروزى ، أبو النصر . المعروف بالحافى : نزيل بغداد . قال ابن خلكان : وكان اسم جده عبد الله الغيور اسلم على يدى على ابن أبى طالب وقال ابن كثير : ولد ببغداد سنة ١٥٠ هـ . سمع من عبد الله بن المبارك ومالك وغيرهما . توفى سنة ٢٨٨ هـ وراجع البداية والنهاية (١٠ / ٨٤١ - ٨٤٢ - ٨٤٣ - ٨٤٤) وفى الحلية (٨ / ٣٣٦ - ٣٣٧) والشذرات (٢ / ٦٠ - ٦١) .

(٢) العَيَّار من الرجال : الذى يتبع هوى نفسه . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٤٤٣)

(٣) القِرطَاسُ : الصَّحيفة يُكتب فيها و- : الورقة تلف على هيئة القمع ليوضع فيها الحب : والجمع : قراطيس . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٤٩٨) .

(٤) الغالية : أخلاط من الطيب كالمسك والعنبر . وراجع الوجيز (ص / ٤٥٤) .

فقال له : يا سيدى ! أنت الذى وقفتَ بالباب وخاطبت الجارية ؟ قال : نعم . قال: أعد علىّ الكلام . فأعاده عليه . فمــرّغ بشر خدّيه على الأرض وقال : بل عبدٌ! عبدٌ ! ثمّ هام على وجهه حافيًا حاسرًا حتى عُرف بالحِفاء . فقيل له : لِمَ لا تلبس نعلاً ؟ قال : لأنى ما صالحنى مولاى إلا وأنا حافٍ . فلا أزول عن هذه الحالة حتى الممات .

أنبأنا الشيخ أبو الفرج قال : أنا محمد بن عبد الله بن حبيب ، أنا على ابن عبد الله بن أبى صادق ، ثنا محمد بن عبد الله بن باكوية ، قال : حدّثنى مفرّج بن الحسين الصعيدىّ قال : حدثتنى فاطمة بنت أحمد أخت أبى علىّ الروذبارى (١) ، قالت :

كان ببغداد عشرة فتيان معهم عشرة أحداث . فوّجهوا واحدًا من الأحداث فى حاجة لهم ؛ فأبطأ ، فحردوا عليه . فجاء وهو يضحك ، وبيده بطيخة . فقالوا له: تبطىء وتجىء وأنت تضحك ؟! فقال : جئتُكم بأُعجوبة ؛ وضع بشر يده على هذه البطيخة فاشتريتها بعشرين درهمًا . فأخذ كلّ واحد منهم يقبِّلها ويضعها على عينه . فقال واحد منهم : بأىّ شىء بلغ بشر هذه المرتبة ؟ فقالوا : بالتقوى : فقال : هو يُشهدكم أنه تائب إلى الله تعالى ، فقال القوم كلُّهم مثله . ويقال : إنهم خرجوا إلي طرسوس فاستُشهدوا كلّهم - رحمة الله عليهم .

أنبأنا الإمام الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السِّلَفىّ (٢) قال : أنا أبو الحسين

---

(١) وهو : محمد بن أحمد القاسم ، أبو على الروذبارى ، وقيل : اسمه أحمد بن محمد وقيل :الحسين بن همام . والصحيح الأول . أصله من بغداد وسكن مصر . صحب الجنيد وسمع الحديث وحفظ منه كثيرًا . وأخذ النحو عن ثعلبة ومن شعره :

لو مضى الكلُّ منى لم يكن عجبًا وإنما عجبى فى البعض كيف بقى
أدرك بقيــــة روح منك قد تلفتْ قبل الفراق فهــــذا آخر الرمق

وراجع البداية والنهاية (١١ / ٢٣٣ - ٢٣٤) .

(٢) وهو : أحمد بن محمد بن إبراهيم سلفه ، الحافظ لكبير المعمر ، أبو طاهر السلفى الأصبهانى . وإنما قيل له : السلفى ، لجده إبراهيم سلفة لأنه كان مشقوق إحدى الشفتين ، وكان له ثلاث شفاة . قال ابن خلكان : كان يلقب باسم صدر الدين . وكان شافعى المذهب. آخذ عن الخطيب أبى زكريا ، يحيى التبريزى . بنى له العادل أبو الحسن . مدرسة وفوضها إليه فهى معروفة به إلى الآن ولد سنة ٤٠٢ هـ . توفى ليلة الجمعة سنة ٥٧٦ هـ بثغر الإسكندرية . دفن بوعلة . وراجع البداية والنهاية (١٢ / ٨٣٦ - ٨٣٧) .

بن الطيوريّ ، أنا أبو القاسم عبد العزيز بن أحمد بن الفضل ، أنا أبو الحسن على بن عبد الله بن الحسن بن جهضم ، ثنا علىّ بن هارون ، ثنا محمد بن مخلد قال : حدثنى أبو الفتح بن مخرق ، قال :

تعلق رجل بامرأة من بنات الشام فتعرّض لها بيده سكين ، لا يدنو منه أحد إلا عقره . وكان الرجل شديد البدن . فبينا الناس كذلك ، والمرأة تصيح من يده ، إذ مرّ بشر بن الحارث ؛ فدنا منه وحك كتفه بكتف الرجل . فوقع الرجل إلى الأرض، ومضى بشر . فدَنوا من الرجل وهو يرشح عرقًا كثيرًا ؛ ومضت المرأة بحالها . فسألوه : ما حالك ؟ فقال : ما أدرى ، ولكنى حاكَّنى شيخ وقال : إن الله ناظر إليك وإلى ما تعمل ! فضعفتْ لقوله قَدَمى وهبتُه هيبةً شديدة ، لا أدرى من ذلك الرجل . قالوا له : ذاك بشر بن الحارث . فقال : واسوءتاه ! كيف ينظر إلىّ بعد اليوم ؟ وحُمَّ الرجل من يومه ، ومات اليوم السابع .

* * *

٨٠ - (توبة تاجر من تجار بغداد من الوقيعة فى الناس)

أنبأنا محمد ، قال : أنا أحمد ، قال : أخبرنى محمد بن خفيف فيما كتب إلىّ قال: حدثنى عبد الله بن الفضل ، حدثنى أبو عبد الله القاضى قال: حدَّثنى أبى، قال :

كان عندنا ببغداد رجل من التجار صديق لى ؛ وكان كثيرًا ما أسمعه يقع فى الصوفيّة . قال ، فرأيته بعد ذلك يصحبهم ، وأنفق عليهم جميع ما ملك . قال : فقلت له : أليس كنت تبغضُهم ؟ قال : فقال لى : ليس الأمر على ما توهمتُ . قلت له : كيف ؟ قال : صليت الجمعة يومًا من الأيام ، وخرجت فرأيت بشرًا الحافى يخرج من المسجد مسرعًا . قال : فقلت فى نفسى : انظر إلى هذا الرجل الموصوف بالزهد ، ليس يستقر فى المسجد ! قال : فتركت حاجتى ، فقلت : انظر أين يذهب . قال : فتبعته فرأيته تقدّم إلى الخباز واشترى بدرهم خبز الماء . قال : قلت : انظر إلى هذا الرجل يشترى خبز الماء ! قال : فتقدّم إلى الشوّاء فأعطاه درهمًا وأخذ شواءً ؛ فزادنى عليه غيظًا . قال : وتقدّم إلى الحلاوىِّ واشترى فالُوذجًا [1]

(١) الفالوذج : نوع من أنواع الحلوى وفى بعض الأحاديث الضعيفة التى وردت بأن الرسول ﷺ أكلها وردها الحافظ العراقى فى تخريج الإحيـاء . وراجع الإحياء بتحقيق العراقى .

بدرهم . فقلت في نفسي : والله لأُنغِصَنَّ عليه حين يجلس ويأكل ! قال : فخرج إلى الصحراء ، وأنا أقول : يريد الخضرة والماء . قال : فما زال يمشي إلى العصر وأنا خلفه . قال : فدخل قرية ، وفي القرية مسجد وفيه مريض . قال : فجلس عند رأسه وجعل يلقمه . قال : فقمتُ لأنظرَ القرية . قال : فبقيت ساعة ، ثمّ رجعت فقلت للعليل : أين بشر ؟ قال : ذهب إلى بغداد . قال : فقلت : وكم بيني وبين بغداد ؟ فقال : أربعون فرسخًا . فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ! أيْش [1] عملت بنفسي وليس معي ما أكترى ولا أقدر على المشي ! قال : اجلس حتى يرجع . فجلست إلى الجمعة القابلة . قال : فجاء بشر في ذلك الوقت ومعه شيء يأكلُ المريض . فلما فرغ ، قال له العليل : يا أبا نصر ! هذا رجل صحبك من بغداد وبقى عندي منذ الجمعة ، فرُدَّه . قال : فنظر إليَّ كالمُغضَب ، وقال : لِمَ صحبتَني ؟ قال : فقلت : أخطأتُ . قال لي : قم امشِ . قال : فمشيت إلى قربَ المغرب . قال : فلما قربنا ، قال لي : أين محلتك من بغداد ؟ قلت : في موضع كذا . قال : اذهب ولا تعد . قال : فتبتُ إلى الله - عز وجل - وصَحِبتُهم ، وأنا على ذلك .

* * *

٨١ - (توبة أبي عبد ربّ)

أخبرنا محمد ، قال : ثنا حمد ، أنا أحمد ، ثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد ، ثنا الحسن بن محمد ، ثنا أبو زرعة ، ثنا إبراهيم بن العلاء بن الضحاك ، ثنا الوليد بن مسلم [2] . عن ابن جابر [3] :

---

(١) أيش : أى شيء يقال : أيش هذا ؟ . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٣١) .

(٢) هو : الوليد بن مسلم أبو العباس الدمشقي ، مولى بني أمية . أحد الأعلام . قال أحمد : ما رأيت في الشاميين أعقل منه . قال ابن المديني : هو رَجُل أهل الشام ، وعنده علم كثير . قال أبو مُسْهر: الوليد مدلس وربما دلس عن الكذَّابين. ولد ١١٩ هـ . قال أبو اليمان: ما رأيت مثل الوليد . قال أبو حاتم : صالح الحديث : توفى في المحرم سنة ١٩٥ هـ. وراجع الميزان (٦ / ٢١ - ٢٢) برقم (٩٤٠٥) وفي التهذيب (١١ / ١٥١) .

(٣) هو : عبد الرحمن بن يزيد بن جابر أبو عُتبة الأزدي الدَّاراني الدمشقي . أحد العلماء الثقات . قال الذهبي : لم أرى أحد ذكره في الضعفاء إلا البخاري وما ذكر شيئًا يدل على ضعفه أصلاً قال أبو مُسْهر : رأيت ابن جابر - مات سنة ١٥٤ هـ . وضعفه الفَلَّاس . وراجع الميزان (٣ / ٣١٢ - ٣١٣) برقم (٥٠٠٧) وفي التهذيب (٦ / ٢٩٥ - ٢٩٧) .

أنّ أبا عبد ربّ كان من أكثر أهل دمشق مالاً ، فخرج إلى أذربيجان فى تجارة ؛ فأمسى إلى جانب مرج ونهر فنزل به . قال أبو عبد ربّ : فسمعت صوتًا يكثر حمد الله فى ناحية من المرج ، فاتبعته . فوافيت رجلاً فى حقير من الأرض ملفوفًا فى حصير . فسلمت عليه ، وقلت : من أنت يا عبد الله ؟ قال : رجل من المسلمين . قال : قلت : ما حالك هذه ؟ قال : حال نعمة يجب علىّ حمد الله فيها . قال : قلت : كيف وإنما أنت فى حصير ؟ قال : ومالى لا أحمد الله أنْ خلقنى فأحسن خلقى وجعل مولدى ومنشئى فى الإسلام ، وألبسنى العافية فى أركانى ، وستر علىّ ما أكره ذكره أو نَشْرَه ؟! فمن أعظم نعمة ممن أمسى فى مثل ما أنا فيه ؟ قال : قلت: رحمك الله ! إن رأيت أن تقوم معى إلى المنزل فإنا نزول على النهر . قال : ولمه ؟ قلت : لتصيب من الطعام ولنعطيك ما يغنيك عن لبس الحصير . قال : ما بى حاجة .

قال الوليد : فحسبت أنه قال : إنَّ لى فى أكل العشب كفاية عما قال أبو عبد ربّ ، قال : فأردته على أن يتبعنى ؛ فأبى ، قال : ما لى به من حاجة .

قال أبو عبد ربّ : فانصرفتُ وقد تقاصرتُ إلىَّ نفسى ومقتُّها أنى لم أخلّف بدمشق رجلاً فى الغنى يكاثرنى وأنا ألتمس الزيادة فيه . وقلت : اللهم ! إنى أتوب إليك من سوء ما أنا فيه . قال : فبتّ ولم يعلم إخوانى بما قد أجمعت به . فلمّا كان من السَّحر رحلوا كنحو من رحيلهم فيما مضى ؛ وقدّموا إلىَّ دابتى فركبتها وصرفتها إلى دمشق . وقلت : ما أنا بصادق التوبة إن أنا مضيت فى متجرى هذا ، فسألنى القوم فأخبرتهم ؛ وعاتبونى على المضى فأبيت .

قال ابن جابر : فلما قدم تصدق بصامت ماله (١) وتجهز به فى سبيل الله . قال ابن جابر : فحدّثنى بعض إخوانى قال : ماكست (٢) صاحب عباءة فى عباءة ،

---

(١) الصامت من المال: الذهب والفضة . ويقولون : ماله صامت ولا ناطق . والنَّاطق : الماشية: أى: لا يملك شيئًا . والجمع: صُمُوت، وصَوَامت . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٣٦٩)

(٢) مَاكَسَهُ فى البيع : طلب منه أن يُنقص الثمن . مكَسَ فى البيع : نقص الثمن و-: الضريبة . والتماكس : البيعان : تشاحًا . الماكس : من يأخذ المكْسَ من التجار . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٥٨٧) .

أعطيته ستة وهو يقول : سبعة . فلما أكثرت قال : ممن أنت ؟ قلت : من أهل دمشق . قال : ما تشبه شيخًا وفد عليّ أمس ، يقال له : أبو عبد ربّ اشترى منى سبعمائة كساء بسبعة سبعة ؛ ما سألنى أن أضع له درهمًا ، فسألنى أن أحملها له ، فبعثت أعوانى ؛ فما زال يفرقها بين فقراء الجيش ، فما دخل إلى منزله منها بكساء .

قال ابن جابر : وباع عقدة وتصدق بها ، وباع داره بمال عظيم وفرّقه ؛ وكان مع ذلك موته . فما وجدوا منها إلا قدر ثمن الكفن . وكان يقول : والله لو أنّ نهركم هذا - يعنى بردى - سال ذهبًا وفضة ، من شاء خرج إليه فأخذ منه ، ما خرجت إليه ؛ ولو قيل : من مسّ هذا العمود مات ، لسرنى أن أقوم إليه شوقًا إلى الله وإلى رسوله .

* * *

٨٢ - (توبة القعنبى) (١)

أنبأنا الإمام أبو طاهر أحمد بن محمد السلفى قال : أنا أبو عليّ أحمد بن محمد بن أحمد البردانى ، أنا الحسن بن أحمد بن عبد الله المقرئ ، أنا هلال بن محمد الحفّار ، ثنا أبو العبّاس أحمد بن محمد الصباح البزار قال : لم يرو القعنبيّ عن شعبة (٢) غير هذا الحديث الواحد وله شرح : حدثنى بعض القضاة عن بعض ولد القعنبى بالبصرة ، قال :

كان أبى يشرب النبيذ ويصحب الأحداث . فدعاهم يومًا ، وقد قعد على الباب ينتظرهم . فمرَّ شُعبة على حماره والناس خلفه يهرَعون . فقال : من هذا ؟ قيل : شعبة . قال : وأيْش شعبة ؟ قالوا : محدِّث .

فقام إليه وعليه إزر أحمر ، فقال له : حدثنى . فقال له : ما أنت من

(١) هو : عبد الله بن مسلمة بن قعنب الحارثى . ثقة ثبتٌ خرج له البخارى ومسلم توفى سنة (٢٢١ هـ) وراجع البداية والنهاية (١٠ / ٨٢٣) .

(٢) هو : شعبة بن الحجاج بن الورد العتكى الأزدى مولاهم أبو بسطام الواسطى ، الحافظ العلم . أحد الأئمة الأعلام قال الشافعى : لولا شعبة ما عرف الحديث بالعراق . توفى سنة ١٦٠ هـ . وراجع ترجمته فى . تذكرة الحفاظ (١ / ١٩٣) وفى تهذيب الأسماء واللغات (١ / ٢٤٤) والعبر (١ / ٢٣٤) وتاريخ بغداد (٩ / ٢٥٥) طبقات الحفاظ (ص ٨٩) .

أصحاب الحديث فأُحدِّثك . فأشهر سكينه وقال : تحدّثني أو أجرحك ؟ فقال له : حدثنا منصور عن ربعى عن أبى مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا لم تستحى فاصنع ما شئت (١) فرمى سكينه ورجع إلى منزله . فقام إلى جميع ما كان عنده من الشراب فهَراقه ، وقال لأمّه : الساعة أصحابى يجيئون ، فأدْخليهم وقدِّمى الطعام إليهم ؛ فإذا أكلوا فخيّريهم بما صنعتُ بالشراب حتى ينصرفوا . ومضى من وقته إلى المدينة ، فلزم مالك بن أنس (٢) ، فأثر عنه . ثم رجع إلى البصرة وقد مات شعبة ، فما سمع منه غير هذا الحديث .

* * *

---

(١) الحديث صحيح : بلفظ « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى . . » أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠ / ٥٢٣) كتاب الأدب (٧٨) ، باب إذا لم تستحى . . (٧٨) «ح» (٦١٢٠) . وفى مختصر البخارى برقم (١٩٥١) الزبيدى - رحمه الله - ورواه أبو داود فى السنن (٤ / ٤٧٩٧) ، وابن ماجة فى السنن (٢ / ٤١٨٣) وأحمد فى المسند (٤ / ١٢١ - ١٢٢) و (٥ / ٣٨٣) . وفى الرياض برقم (١٨٤٤) (ص ٥٣٩) . وقد يراد بلفظ « إذا لم تستحى فاصنع ما شئت » معنيان :

الأول : لفظ للتهديد والوعيد لا للإباحة .

الثانى : إما أن يكون المعنى على ظاهره أى إذا زال الياء فأصنع ما تريد لأن الحياء لا يأتى إلا بخير لقوله ﷺ « الحياء لا يأتى إلا بخير » رواه البخارى (١٠ / ٥٢١) كتاب الأدب (٧٨) ، باب الحياء (٧٧) «ح» (٦١١٧) ، ومسلم (١ / ٦٤) كتاب الإيمان (١)، باب بيـان عدد شعب - (١٢) «ح» (٦٠ / ٣٧) وفى لفظ آخر « الحياء خير كله » رواه مسلم (١ / ٦٤) كتاب الإيمان (١) باب بيان عدد الشعب (١٢) «ح» (٦١ / ٣٧) . ومن حديث ابن عمر » الحياء من الإيمان » رواه البخارى (١ / ٧٤) كتاب الإيمان (٢) باب الحياء من الإيمان (١٦) «ح» (٢٤) ، ومسلم (١ / ٦٣) كتاب الإيمان (١) ، باب (١٢) «ح» (٥٩/ ٣٦) وهذه الأحاديث تدل على أهمية الحياء وعظمة دوره فى حياة المسلم فهو قرين الإيمان ولذلك قال رسول الله ﷺ « الحياء والإيمان قرنا جميعًا ، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر » صححه الألبانى وراجع صحيح الجامع برقم (٣٢٠٠) وفى الروض (٢ / ٤٢٣) .

(٢) هو : مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر الأصبحى الحميرى أبو عبد الله المدنى شيخ الإسلام . وإمام دار الهجرة . قال البخارى : أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر. وهى السلسلة الذهبية . توفى رحمه الله ١٧٩ هـ . وراجع ترجمته فى . البداية والنهاية (١٠ / ١٧٤) واللباب (١ / ٥٥) وتهذيب الأسماء (٢ / ٧٥) وطبقات الحفاظ (ص ٩٦) وتذكرة الحفاظ (١ / ٢٠٧) .

٨٣ - (توبة عكبر الكردى)

قرأتُ فى « الملتقط » عن بشر بن الحارث الحافي أنه قال : اعترضت عكبر الكرديّ ، فقلت له : أيْش كان أصل رجوعك إلى الله تعالى ؟ فقال : كنت فى بعض الدحال أقطع الطريق ، وكان فيها ثلاث نخلات نخلة منهنّ لا تحمل . وإذ بعصفور يأخذ من حمل النخلة التى تحمل رطبة فيدعها فى التى لا تحمل . فلم أزل أعدّ عليه عشر مرار ؛ فخطر بقلبى : قم وانظر ! فنهضت ، فإذا فى رأس النخلة حية عمياء - يعنى وهو يضع الرطبات فى فيها .

فبكيت ، وقلت : سيدى ! هذه حية قد أمر نبيُّك بقتلها ؛ أعميتَها وأقمت لها عصفوراً يقوم لها بالكفاية ؛ وأنا عبدك ، أقر بأنك واحد ، أقمتنى لقطع الطريق وإخافة السبيل ؟! فوقع فى قلبى : يا عكبر ! بابى مفتوح . فكسرتُ سيفى ، ووضعتُ التراب على رأسى ، وصحْت : الإقالة ! الإقالة ! فإذا بهاتف يقول : قد أقلناك ! قد أقلناك ! فانتبه رفقائى ، فقالوا : مالك ؟ قد أزعجتنا ! فقلت : كنت مهجوراً ، وقد صُولحت . فقالوا : ونحن أيضًا كنا مهجورين ، وقد صولحنا . فرمينا ثيابنا وأحرمنا كلنا . فما زلنا كذلك ثلاثة أيام نصيح ونبكى ونحن سُكارى حيارى . فوردنا اليوم الثالث على قرية ؛ وإذا بامرأة عمياء جالسة على باب القرية . فقالت : فيكم عكبر الكردّى ؟ فقال أحدنا : نعم ، لك حاجة ؟ قالت : نعم ؛ لى ثلاث ليال أرى النبى ﷺ فى النوم ، وهو يقول : أعط عكبر الكردى ما خلّفه ولدك . فأخرجت لنا ستين شقّة . فائتزرنا ببعضها ودخلنا البادية إلى أن أتينا البيت .

* * *

٨٤ - (توبة صدقة بن سليمان الجعفرى)

وذكر ابن أبى الدنيا [١] قال : حدثنى محمد بن الحسين ، ثنا خالد بن عمرو القرشيّ ، ثنا صدقة بن سليمان الجعفريّ ، قال :

---

(١) هو : عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس ، أبو بكر بن أبى الدنيا ، الحافظ المصنف فى كل فن المشهور بالتصانيف الكثيرة وهى تزيد على مائة مصنف . وقيل نحو: الثلاثمائة مصنف وقيل اكثر كان صدوقًا حافظًا . إلا أنه كان يروى عن محمد بن اسحاق البلخى وكان هذا الرجل كذابًا . توفى ببغداد فى جمادى الأولى سنة ٢٨١ هـ . ودفن بالشونيزية . رحمه الله . وراجع البداية والنهاية (١١ / ٩٢ - ٩٣) .

كانت بى شرّة سمجة ؛ فمات أبى ؛ فأُبتُ وندمتُ على ما فرّطت ، ثم زللت زلة فرأيت أبى فى المنام ، فقال : أىْ بنى ! ما كان أشدّ فرحى بك وأعمالك تُعرض علىّ فنشبهها بأعمال الصالحين ! قال خالد : وكان بعد ذلك قد خشع ونسك · وكنت أسمعه يقول فى دعائه فى السحر - وكان لنا جاراً بالكوفة - : اللهم أسألك إنابة لا رجعة فيها ولا حور يا مصلح الصالحين وهادى المضلين وراحم المذنبين !

* * *

٨٥ - (توبة ذى النون المصرى) (١)

أنبأنا الشيخ أبو الفرج ، أنا محمد بن عبد الله بن حبيب ، أنا على بن عبد الله ابن أبى صادق ، ثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن باكويه ، قال : سمعت الحسن ابن علوية ، قال : سمعت يوسف بن الحسين يقول :

لما استأنستُ بذى النون المصرّى قلت : أيها الشيخ ! ما كان بدءُ شأنك ؟ قال : كنت شابًا صاحب لهو ولعب · ثم تبتُ وتركت ذلك ، وخرجت حاجًا إلى بيت الله الحرام ومعى بُضيعة · فركبت فى المركب مع تجار من مصر ، وركب معنا شابٌ صبيح كأن وجهه يشرق · فلما توّسطنا فَقَدَ صاحب المركب كيسًا فيه مال · فأمر بحبس المركب ، ففتّش من فيه وأتعبهم · فلما وصلوا إلى الشاب ليفتشوه ، وثب وثبةً من المركب حتى جلس علي أمواج البحر ، وقام له الموج على مثال سرير ، ونحن ننظر إليه من المركب · وقال : يا مولاى ! إنّ هؤلاء اتهمـــونى ؛ وإنى أقسم يا حبيب قلبى ، أن تأمر كلّ دابة فى هذا المكان أن تخرج رأسها وفى أفواهها جوهر ·

قال ذو النون : فما تمّ كلامه حتى رأينا دواب البحر أمام المركب قد أخرجت رؤوسها ،وفى فم كل واحدة منها جوهرة تتلألأ وتلمع · ثم وثب الشاب من الموج إلى البحر وجعل يتبـــختر على متن الماء ويقـــول : ﴿ إياكَ نَعْبُدُ وَإِيَاكَ نَسْتَعينُ ﴾

---

(١) هو : ثوبان بن إبراهيم الإخميمى المصرى أبو الفياض ، أو أبو الفيض المشهور بذى النون المصرى · أحد المشايخ المشهورين · وقد ترجم له ابن خلكان فى الوفيات · وهو معدود فى جملة من روى الموطأ عن مالك وسئل عن سبب توبته فذكر : أنه رأى قبرة عمياء نزلت من وكرها فانشقت لها الأرض عن سكرجبتين من ذهب وفضة فى إحداهما سمسم وفى الأخرى ماء · فأكلت من هذه وشربت من هذه · توفى رحمة الله سنة ٢٤٥ هـ · بالجيزة · وراجع البداية والنهاية (١٠ / ٩٠٨) ·

(الفاتحة: ٥) ! حتى غاب عن بصرى . فهذا الذى حملنى على السياحة . وذكرت قول النبى ﷺ : « لا يزال فى هذه الأمة ثلاثون ، قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن ؛ كلما مات واحد أبدل الله مكانه واحداً » [١] .

* * *

٨٧ - (توبة سكران)

قال ابن باكويه : وحدثنا بكران بن أحمد قال : سمعت يوسف بن الحسين يقول : كنت مع ذى النون المصرىّ على شاطىء غدير فنظرت إلى عقرب أعظم ما يكون على شطّ الغدير واقفة فإذا بضفدع قد خرجت من الغدير ، فركبَتْها العقرب

(١) الحديث ضعيف : رواه أحمد فى المسند (٥ / ٣٢٢) : فيه الحسن بن ذكوان . ضعفَّه ابن معين وأبو حاتم وقال النسائى : ليس بالقوى . قال ابن عدى : يروى أحاديث يروى لا يرويها غيره . قال ابن معين : قدرى ذكره ابن حيان فى الثقات وراجع ترجمته فى الميزان (٢ / ١٢ - ١٣) برقم (١٨٤٣) وفى التهذيب (٢ / ٢٧٦) قال الإمام أحمد : أحاديثه أباطيل . وقال فى التمييز تبعًا للأصل له طرق عن أنس مرفوعًا بألفاظ مختلفة كلها ضعيفة . وأقول لكنه يتقوى بتعدد طرقه الكثيرة ؛ منها ما فى الحلية عبد ابن عمر « خيار امتى فى كل قرن. . . » ، وروى الخلال بنحوه كما فى شرح المواهب للزرقانى ، وما رواه الطبرانى فى الأوسط من حديث على بسند ضعيف : فيه : عمرو بن واقد ضعفه الجمهور بلفظ « لا تسبوا أهل الشام . . . » .

قلت فطرقه كلها ضعيفة . الأولى : رواها الخلال فى الكرامات وفى مسند الفردوس من حديث أنس . وضعفه الألبانى وراجع ضعيف الجامع برقم (٢٢٦٥) ، وفى الضعيفة برقم (٢٤٩٨) . الثانية : ما رواه أحمد فى المسند من حديث على . وضعفه الألبانى وراجع ضعيف الجامع برقم (٢٢٦٦) وفى الضعيفة برقم (٢٩٩٣) .

الثالثة : ما رواه الطبرانى فى الكبير من حديث عبادة بن الصامت . ضعفه الألبانى وراجع ضعيف الجامع برقم (٢٢٦٧) وفى الضعيفة برقم (٩٣٦) . الرابعة : ما رواه الطبرانى من حديث عون بن مالك . وضعفه الألبانى وراجع ضعيف الجامع برقم (٢٢٦٨) وفى الصحيحة برَقم (٩٣٦) ، الخامسة : رواه أحمد فى المسند من حديث عبادة ضعفه الألبانى وراجع ضعيف الألبانى وراجع ضعيف الجامع برقم (٢٢٧٠) وفى الضعيفة (٩٣٦) . السادسة : ما رواه الحاكم فى « الكنى » من حديث عطاء مرسل ضعفه الألبانى وراجع ضعيف الجامع برقم (٢٢٧٠) وفى الضعيفة (١٤٧٦) . وأنظر كشف الخفا (١ / ٢٤ - ٢٥ - ٢٦ - ٢٧) برقم (٣٥) .

فجعلت الضفدع تسبح حتى عبرت . فقال ذو النون : إن هذه العقرب لشأنًا ، فامض بنا ، فجعلنا نقفوا أثرها ؛ فإذا رجل نائم سكران ، وإذا حية قد جاءت فَصَعَدَت من ناحية سرّته إلى صدره وهى تطلب أُذُنَهُ ، فاستحكمت العقرب من الحية فضربتْها : فانقلبت وانفسخت . ورجعت العقرب إلى الغدير ، فجاءت الضفدع فركبتها فعبرت ، فحرك ذو النون الرجل النائم ، ففتح عينيه ؛ فقال : يا فتى ! انظر مما نجَّاك الله : هذه العقرب جاءت فقتلت هذه الحية التى أرادتك . ثم أنشأ ذو النون يقول :

يا غافلاً والجليلُ يَحــرُسُهُ ... مِنْ كلِّ سُوءٍ يدِبُّ فى الظُّلَمِ

كيفَ تَنَامُ العُيُونُ عن ملك ... تأتِيهِ مِنْهُ فَوَائِدُ النِّعَــــمِ

فنهض الشاب وقال : إلهى ! هذا فعلك بمن عصاك ، فكيف رفقك بمنْ يطيعك؟ ثم ولىَّ ؛ فقلت : إلى أين؟قال:إلى البادية ؛ والله لا عدتُ إلى المُدُن أبدًا !

* * *

٨٨ -(توبة المرتعش) (١)

أنبأنا أبو علىّ ضياء بن أبى القاسم ، أنا القاضى أبو بكر محمد بن عبد الباقى، أنا هناد بن إبراهيم ، قال : سمعت أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت جدى يقول :

كان المرتعش دُهقان نيسابورَ يذكر بدء أمره أنه كان جالسًا على باب داره . قال: فإذا أنا بشاب عليه مرقعة وعلى رأسه خرقة . فأشار إلىَّ متعرضًا إشارة لطيفة . فقلت فى نفسى : شابَ جلدٌ صحيح الجسم ؛ ولم أردّ عليه جوابه . فصاح الشاب صيحة هالتنى وقال : أعوذ بالله مما خطر فى سرك ! قال المرتعش : فغُشى علىَّ ؛ فخرجت جارية لنا ورأتْنى ، واَجتمع حولى خلق . فما أفقت إلا بعد حين . فلما أفقت لم أرَ الشاب ، فتحسرت على ما كان منى . فرأيت أمير المؤمنين على بن أبى طالب ﷺ فى المنام ، وهو يقول : إن الله - عز وجل - لا يجيب سؤالَ مانع

---

(١) هو : عبد الله بن محمد ، أبو محمد النيسابورى . وذكره الخطيب : أبو محمد ، جعفر المرتعش ، أحد مشايخ الصوفية ، كان من ذوى الأموال فتخلى منها وصحب وصحب الجنيد وأبا حفص وأبا عثمان وأقام ببغداد حتى صار شيخ الصوفية . توفى سنة ٣٢٨ هـ . وراجع البداية والنهاية (١١ / ٢٤٨) .

سائلهُ . قال المرتعش : فانتبهت وفرقت ما نالت يدى ؛ وخرجت فسمعت وفاة والدى وأخى بعد خمس عشرة سنة ؛ وما رجعت إلى نيسابور بعد ذلك . وصار الشاب يتبعنى أحيانًا ، فما فارقنى ولا تفارقنا إلى اللقاء .

* * *

٨٩ – (توبة عبد الرحمن القس)

أخبرنا أبو بكر أحمد بن المقرَّب بن الحسين الكرخى ، أنا طراد بن محمد الزينبى ، أنا أبو الحسين بن بشران ، أنا أبو على بن صفوان ، أنا عبد الله بن محمد، حدثنى أبو زيد النُّمّيرى قال : حدثنى خلاد بن يزيد [1] قال : سمعت شيوخنا من أهل مكة – منهم سليمان – يَذْكُرون :

أن القَسَّ كان عند أهل مكة من أحسنهم عبادةً، وأظهرهم تبتلاً ، وأنه مرّ يومًا بسلاَّمة جارية كانت لرجل من قريش ، فسمع غِناءها . فوقف يستمع ؛ فرآه مولاها فقال : هل لك أن تدخل فتسمع ؟ فتأبَّى عليه ، فلم يزل به حتى تسمح وقال : أقعدنى فى موضع لا أراها ولا ترانى . قال : أفعلُ . فدخل ، فتغنّت ، فأعجبتْه . فقال مولاها : هل لك أن أحوّلها إليك ؟ فتأبى ، ثم تسمح . فلم يزل يسمع غناءها حتى شُغفَ [2] بها وشُغفَتْ به ؛ وعلم ذلك أهل مكة . فقالت له يومًا : أنا والله أُحبُّكَ . قال : وأنا واللهَ أُحبُّك . قالت : وأحب أن أضع فمى على فمك . قال : وأنا والله . قالت : أُحبُّ أن ألصق صدرى بصدرك ، وبطنى ببطنك . قال : وأنا والله . قالت : فما يمنعك ؟ فوالله إنّ الموضع لخال . قال : إنى سمعتُ الله تعالى يقول : ﴿ الأخِلاَّءُ يَوْمئذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلا المُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف : ٦٧) ؛ وأنا أكره أن تكون خلة ما بينى وبينك تؤول بنا إلى عداوة يوم القيامة . قالت : يا هذا ! أتحسب أنَّ ربى وربك لا يقبلنا إذا تبنا إليه ؟ قال : بلى ! ولكن لا آمن أن أفاجأ . ثمّ نهض وعيناه تذرفان ، فلم يرجع بعدُ ، وعاد إلى ما كان عليه من النسك .

* * *

---

(١) هو : خلاد بن يزيد الباهلى الأرقط فبصرى . له عن الثورى ، وهشام ابن الغاز، وعنه عمر بن شبة وجماعة . قال ابن حبان فى الثقات : توفى سنة ٢٢٠ هـ . وراجع الميزان (٢ / ١٨٠) برقم (٢٥٢٩) .

(٢) شغف : أحب وولع به فهو مشغوف . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٣٤٥) .

٩٠ - (توبة ابى الحارث الأولاسى)

وروى أبو سعيد قال : حكى بعضُ الزهاد قال : قال لى أبو الحارث الأوْلاسىّ: تدرى كيف كان بدء أمر توبتى ؟ فقلت : لا فقال : كنت شابًا صبيحًا وضيئًا · فبينا أنا فى غفلتى رأيت عليلاً مطروحًا على قارعة الطريق · فدنوت منه ، فقلت : هل تشتهى شيئًا ؟ قال : نعم ، رمانٌ · فجئتُه برمان · فلما وضعته بين يديه رفع بصره إلىَّ وقال : تاب اللهُ عليكَ · فما أمسيتُ حتى تغير قلبى عن كل ما كنت فيه من اللهو ؛ ولزمنى خوف الموت ، فخرجتُ عن جميع ما أملك · وخرجت أريد الحج ، فكنت أسير بالليل وأختفى بالنهار مخافة الفتنة · فبين أنا أسير بالليل إذا بقوم على الطريق يشربون ، فلما رأونى ذهلوا ، وأجلسونى وعرضوا علىَّ الطعام والشراب · فقلت : أحتاج إلى البول · فأرسلوا معى غلامًا ليدلنى على الخلاء · فلما تباعدتُ عنهم قلت للغلام : انصرف ، فإنى أستحى منك · فانصرف ، ووقعتُ فى غابة ، فإذا أنا بِسبُع ؛ فقلت : اللهم إنك تعلم ما تركتُ ومن ماذا خرجتُ ، فاصرف عنى شر هذا السَّبُع · فولى السَّبعُ ، ورجعتُ إلى الطريق فوصلت إلى مكَّة، ولقيتُ بها من انتفعت بهم ، منهم إبراهيم بن سعد العلوىّ ·

* * *

٩١ - (توبة ابى الفضل محمد بن ناصر السلامى عن اعتقاد المبتدعة) (١)

قرأتُ على الشيخ أبى عبد الله مظفر بن أبى نصر البوّاب وابنه أبى محمد عبد الله بن مظفر ببغداد ، قلت لهما : حدثكما الإمام الحافظ أبو الفضل محمد بن ناصر ابن محمد بن علىّ بن عمر السلامىّ ، قال :

كنتُ أسمع الفقهاء من أصحاب الشافعىّ فى« النِّظاميَّة » (٢) يقولون - يعنى -:

---

(١) هو : محمد بن ناصر بن محمد بن على الحافظ ، أبو الفضل البغداد : ولد ليلة النصف من شعبان ٤٦٧ هـ ، وسمع الكثير ، وتفرد بمشايخ ، وكان حافظًا ضابطًا مكثرًا من السنة · وقد تخرج به جماعة منهم أبو الفرج بنِ الجوزى ، سمع بقراءته مسند أحمد وغيره من كتب الكبار ، وكان يثنى عليه كثيرًا · ولقد جرح فيه ابن السمعان ورد ابن الجوزى تجريحه · توفى سنة ٥٥٠ هـ · ليلة الثلاثاء ودفن بباب حرب رحمه-الله تعالى · وراجع البداية والنهاية (١٢ / ٧٤٦) ·

(٢) وهى اسم مدرسة مشهورة ببغداد · وكان الشيخ أبو إسحاق الشيرازى مدرسها ببغداد ولد سنة ثلاث وقيل : ست وتسعين وثلاثمائة · وراجع البداية والنهاية (١٢/ ٦١٠)·

القرآن معنى قائم بالذات ، والحروف والأصوات عبارات ودَلالات على الكلام القديم القائم بالذات . فحصل فى قلبى شىء من ذلك حتى صِرْتُ أقول بقولهم موافقةً . وكنتُ إذا صليتُ أدعو الله تعالى أن يوفقنى لأحب المذاهب والاعتقادات إليه . فبقيتُ على ذلك مدة طويلة أقول: اللهمّ وفقنى لأحب المذاهب إليك وأقربها عندك ، فلما كان فى أوّل ليلة من رجب سنة أربع وتسعين وأربعمائة رأيت فى المنام كأنى قد جئت إلى مسجد الشيخ أبى منصور محمّد بن أحمد المقرئ الخيَّاط فى مسجد ابن جردة والناس على باب المسجد مجتمعون ، وهم يقولون : إن النبى ﷺ عند الشيخ أبى منصور . فدخلتُ المسجد وقصدتُ إلى الزاوية التى كان يجلس فيها الشيخ أبو منصور ، فرأيتُ الشيخ أبا منصور قد خرج من زاويته وجلس بين يدى شخص ، فما رأيت شخصًا أحسنَ منه على نعتِ النبى ﷺ الذى وُصف لنا ؛ وعليه ثياب ما رأيتُ أشدَّ بياضًا منها ، وعلى رأسه عَمامة بيضاء ، والشيخ أبو منصور مُقْبل عليه بوجهه . فدخلت فسلمت ، فرُدَّ علىّ السلام ولم أتحقق من الرادُّ علىّ لَدهشتى برؤية النبى ﷺ ، وجلستُ بين أيديهما . فالتفتَ إلىّ رسول الله ﷺ من غير أن أسأله عن شىء أو أستفتحه بكلام أصلاً ، وقال لى : عليك بمذهب هذا الشيخ ، عليك بمذهب هذا الشيخ ، عليك بمذهب هذا الشيخ ، ثلاثًا .

قال الحافظ أبو الفضل ؛ وأنا أقسم بالله ثلاثًا ، وأشهد بالله ثلاثًا لقد قال لى رسول الله ﷺ ثلاثًا ، ويشير فى كل مرّة بيده اليمنى إلي الشيخ أبى منصور . قال: فانتبهتُ وأعضائى ترعد ، فناديتُ والدتى رابعة بنت الشيخ أبى حكيم الخَبْرى وحكيت لها ما رأيتُ . فقالت : يا بنى ! هذا منامُ وحى ، فاعتمد عليه . فلما أصبحتُ بكرّتُ إلى الصلاة خلف الشيخ أبى منصور . فلما صلّينا الصبح قصصتُ عليه المنام ، فدمعت عيناه وخشع قلبه . وقال لى : يا بنىَّ ! مذهب الشافعى حسن ؛ فتكون على مذهب الشافعى [1] فى الفروع ، وعلى مذهب

---

(١) هو : محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصى . القرشى المطلبى . وأمه أزدية : وقد رأت حين حملت به كأن المشترى خرج من فرجها حتى انقض بمصر . ولد سنة ١٥٠ هـ . وقرأ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وحفظ الموطأ وهو ابن عشر . وأخذ الفقه عن مسلم بن خالد عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس وابن الزبير وغيرهما . وسُمى ببغداد : ناصر السنة . توفى بمصر يوم الخميس وقيل يوم الجمعة سنة ٢٠٤ هـ وعن أربع وخمسين عامًا -- رحمة الله . وراجع البداية والنهاية (١٠ / ٧٨١ - ٧٨٢ - ٧٨٣ - ٧٨٤ - ٧٨٥) .

أحمد [1] وأصحاب الحديث في الأصول . فقلت له : أيْ سيدي ! ما أريد أن أكون لونين ! وأنا أُشهِدُ الله وملائكته وأنبياءه ، وأُشهدكَ عليَّ أني منذ اليوم لا أعتقد ولا أدين الله ولا أعتمد إلاّ على مذهب أحمد في الأصول والفروع . فقبل الشيخ أبو منصور رأسي ، وقال : وفقك الله ، فقبلت يده .

وقال لي الشيخ أبو منصور : أنا كنتُ في ابتداء أمري شافعيًا ، وكنت أتفقه على القاضي الإمام أبي الطيب طاهر بن عبد الله الطبري [2] وأسمع الخلاف عليه . فحضرت يومًا عند الشيخ أبي الحسن عليّ بن عمر القزويني الزاهد الصالح لأقرأ عليه القرآن ، فابتدأتُ أقرأ عليه القرآن ، فقطع عليَّ القراءة مرة أو مرّتين . ثم قال : قالوا وقلنا ، وقلنا وقالوا ! فلا نحن نرجع إليهم ولا هم يرجعون إلى قولنا ؛ ورجعنا إلى عاداتنا ؛ فأيّ فائدة في هذا ؟ ثم كرر عليَّ هذا الكلام . فقلت في نفسي : والله ما عنى الشيخ بهذا أحدًا غيري . فتركت الاشتغال بالخلاف ، وقرأت « مختصر أبي القاسم الخرقي » [3] على رجل كان يقرئ القرآن .

---

(1) هو : أحمد بن حنبل بن هلال الشيباني المروزي ثم البغدادي ، ولد سنة ١٦٤ هـ . وهو من الأئمة الأعلام وكان يحفظ ألف ألف حديث أي : مليون حديث ، وتعرض لمحنة خلق القرآن وصمد . وهو إمام أهل لسنة وقامع البدعة بلا نزاع . له المسند أعظم مسند في التاريخ . عدد آحاديثه (٤٠,٠٠٠) بالمكرر وحوالي (٣٠,٠٠٠) بغير المكرر . ولقد جمعه من سبقه ألف حديث وخمسين ألفًا ... ورجح الذهبي أن هذا الكلام من قوله . توفي سنة ٢٤١ هـ . وله ترجمة عظيمة في البداية والنهاية (١٠ / ٨٧٩ - ٨٨٠ - ٩٠١)

(2) هو : طاهر بن عبد الله بن طاهر بن عمر . أبو الطيب الطبري ، الفقيه ، شيخ الشافعية . ولد بآمل طبرستان سنة ٣٤٨ هـ . سمع الحديث بجرجان من ابن الغطريفي . توفي سنة ٤٥٠ هـ . عن مائه سنة وستين . وراجع البداية والنهاية (١٢ / ٥٥٤)

(3) هو : عمر بن الحسين بن عبد الله أبي القاسم الخير . مؤلف هذا المصنف . قال ابن كثير : صاحب المختصر في الفقه على مذهب الإمام أحمد . وقد شرحه القاضي أبو يعلى ابن الغراء والشيخ : موفق الدين ابن قدامة المقدسي . وحرمت مصنفاته بالعراق . قال ابن بطة : مات الخرقي بدمشق سنة ٣٣٤ هـ وزرت قبره -- رحمه الله . راجع البداية والنهاية (١١ / ٢٧٥ - ٢٧٦) .

قال الحافظ (١) : ورأيتُ بعد ذلك ما زادنى يقينًا ، وعلمتُ أن ذلك تثبيت من الله لى وتعليم لأعرف حقَّ نعمة الله علىّ وأشكره ، إذ أنقذنى من اعتقاد البدعة إلى اعتقاد السُّنَّة ، والله المسؤولُ الخاتمةَ بالموت على الإسلام والسُّنَّة ٠

* * *

٩٢ - (توبة ابى الحسن الهرقانى عن مذهب المتكلمين)

قال الحافظ أبو الفضل : وحدثنى الشيخ الصالح أبو الحسن على بن المختار بن على الهرقانى ، قال : كان لى رفيق يُعرَف بمحمد بن خُنيس ، يقرأ على أبى عبد الله القيروانىّ المتكلم شيئًا من الكلام من كتاب ابن الباقلانى ٠ فوافقته فى ذلك ٠ فرأيتُ ليلة فى منامى كأن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام على سطح رباط الشيخ أبى سعد الصوفى وهو جالس وحوله حلقة دائرة ٠ فقلت لبعضهم : ما هذا الجمع ؟ فقال لى : هذا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ! ما تسلم عليه ؟ فجئت ففضضتُ الحلقة ووقفت تلقاء وجهه ، وقلت : السلام عليك يا مولاى أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ! فقال لى : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، ورأيته وهو جالس مواز لرؤوس القيام ، فبدأنى وقال : تريد أن تعتقد ؟ قلت : نعم يا مولاى ! فقال : عليك باعتقاد أحمد ٠ فقلت : السمع والطاعة ٠ فلما جاءنى رفيقى الذى كنت أسمع معه الكلام ، ومعه أصحاب له ٠ قالوا : تعالَ حتى نمضى إلى أبى عبد الله نقرأ عليه ٠ قلت : اليوم لى شغل ٠ ثم إنى اجتمعت بالشيخ أبى منصور فى مسجده ، فقصصتُ عليه هذه الرؤيا ؛ فسرَّ بها وقال : ادنُ منى ٠ فدنوتُ منه ، فقبل بين عينى وقال : أنت مراد ٠ ودعا بأصحابه وقال : اقصص عليهم الرؤيا ، فقصصت عليهم الرؤيا ، فقالوا : يجب عليه الشكر ، فقال

---

(١)وهذه مرتبة من مراتب المهتمين بعلم الحديث : ذكر المناوى لأهل الحديث مراتب :

الأولى : الطالب : وهو المبتدئ - الثانية : المحـدث : وهو من يتحمل الحديث ويعتنى به ٠

الثالثة : الحافظ : وهو من حفظ مائة ألف حديث متنًا وسندًا ٠ الرابعة : الحجة : وهو من أحاط بثلاثمائة ألف حديث ٠ الخامسة : الحاكم : وهو من أحاط علمه جميع الأحاديث المروية متنًا وإسنادًا وجرحًا وتعديلاً وتاريخا ٠ السادسة : أمير المؤمنين فى الحديث أعلى المراتب ٠ وأنظر « قواعد أصول الحديث » (ص ٢٤) للدكتور : هاشم ٠

الشيخ : أنا أفديه ، والشكر عليَّ ، وأخرج ذهبًا فاشترى به خبزًا وتمرًا ، ففرّق على كل خاتم القرآن رغيفين ورطل تمر ، ومن كان يحفظ البعض أعطاه رغيفًا ونصف رطل تمر . قال : وقطعت المضيّ إلى القيرواني ، ثم اعتقدت من يومئذ اعتقاد أحمد بن حنبل وأصحاب الحديث ، وأنا أدين الله تعالى به إلى يوم القيامة .

* * *

أخبار جماعة من التوابين

٩٣ - (توبة منازل بن لاحق)

أنبأنا الشيخ أبو الحسن أحمد بن حمزة لسلمّي فى جماعة قالوا : أنا أبو على الحسن بن أحمد المقرئ الأصبهانيّ ، أنا أبو نعيم الحافظ قال : ثنا محمد بن حميد ، قال : ثنا عبد الله بن سعيد الرَّقيّ ، قال : ثنا يزيد بن محمد بن سنان عن أبيه عن جدّه قال : حدثنى الحسن بن علىّ رضي الله عنهما [1] قال :

بينا أنا أطوف مع أبى حول البيت فى ليلة ظلماء ، وقد رقدت العيون ، وهدأت الأصواتُ ، إذ سمع أبى هاتفًا بصوت حزين شجى [2] ، وهو يقول :

يَا مَنْ يُجِيبُ دُعا المُضْطَّر فى الظلمِ
يا كاشفَ الضُّرِّ والبَلوى مع السقم
قد نامَ وَفْدكَ حَوْلَ البَيْت وانتبهوا
وأنتَ عَيْنُكَ يا قيومُ لمْ تَنَمِ
هبْ لى بجودكَ فضل العفو عن جُرُمى
يا من إليه أشار الخلقُ فى الحرم
إنْ كانَ عفْوكَ لا يُدركه ذو سرف
فمن يجُودُ على العاصين بالكرم

---

(١) وهذا هو الصحيح وأما من يغالى فى أهل البيت . فنجد بعض الشيعة يقولون : على كرم الله وجهه . وهذا أمر باطل لأن هذه اللفظة تعطيه مزية عن الصحابة وعند أهل السنة والجماعة أن أبو بكر أفضل من عمر وعمر وأبو بكر أفضل من على فلا يصح ذلك .

(٢) الشجى : من شجاه الهم ونحوه . و- : الحزن وراجع المعجم الوجيز (ص / ٣٣٦) .

قال : فقال أبى : يا بنى ! أما تسمع صوت النادب لذنبه المستقبل لربه ؟ الحقْهُ فلعلّ أن تأتينى به . فخرجت أسعى حول البيت أطلبه ، فلم أجده حتى انتهيت إلى المقام ، وإذا هو قائم يصلى ، فقلت : أجبْ ابن عمّ رسول الله ﷺ ، فأوجز فى صلاته واتبعنى ، فأتيتُ أبى ، فقلت : هذا الرجل يا أبت ! فقال له أبى : ممن الرجل ؟ قال : من العرب . قال : وما اسمك ؟ قال : مُنازل بن لاحق . قال : وما شأنك وما قصتك ؟ قال : وما قصة من أسلمته ذنوبه وأوبقته عيوبه فهو مرتطم[1] فى بحر الخطايا . فقال له أبى : علىّ ذلك ، فاشرح لى خبرك .

قال : كنتُ شابًا على اللهو والطرب لا أفيق عنه ، وكان لى والد يعظنى كثيرًا ويقول : يا بنى ! احذر هفوات الشباب وعثراته ، فإن لله سطوات ونقمات ما هى من الظالمين ببعيد . وكان إذا ألحّ علىّ بالموعظة ألححت عليه بالضرب ، فلما كان يوم من الأيام ألح علىّ بالموعظة ، فأوجعتهُ ضربًا ، فحلف بالله مجتهدًا ليأتينّ بيت الله الحرام فيتعلّقَ بأستار الكعبة ويدعو علىَّ ، فخرج حتى انتهى إلى البيت ، فتعلق بأستار الكعبة ، وأنشأ يقول :

يا من إليه أتى الحجاجُ قدْ قطعوا
عرض المهامة [2] من قربٍ ومن بعُدُ
إنى أتيتك يا من لا يخيِّبُ منْ
يدْعوه مبتْهلاً بالواحد الصَّمد
هذا منازل لا يرتدُّ عنْ عققى
فخذْ بحقّى يا رحمْان منْ ولدى
وشلُّ منهْ بحوْلٍ منك جانبهُ
يا منْ تقدَّس لم يولد ولم يَلد

قال : فوالله ما استتّم كلامه حتى نزل بى ما ترى ، ثم كشف عن شقه الأيمن فإذا هو يابس . قال : فأبت ورجعت ؛ ولم أزل أترّضاه وأخضع له وأسأله العفو

(١) ارتطم : تردّى فى الوحل و - : فى الشىء : وقع وارتبك : و- : عليه الأمر : سُدّت عليه مذاهبُهُ فلم يجدْ منه مَخلصًا . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٢٦٨) .

(٢) المهمة : المفازة البعيدة والجمع . مَهامة . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٥٩٣) .

عنى ، إلى أن أجابنى أن يدعو لى فى المكان الذى دعا علىَّ . قال : فحملته على ناقة عشراء [1] وخرجت أقفو أثره ، حتى إذا صرنا بوادى الأراك [2] طار طائر من شجرة ، فنفرت الناقة ، فرمت به بين أحجار ، فرضخت رأسه [3] فمات ، فدفنته هناك وأقبلت آيسًا ، وأعظم ما بى ما ألقاه من التعبير أنى لا أعرفَ إلا بالمأخوذ بعقوق والديه . فقال له أبى : أبشر فقد أتاك الغوث ، فصلى ركعتين ، ثم أمره فكشف عن شقّه بيده ، ودعا له مرات يرددهنَّ ؛ فعاد صحيحًا كما كان ، وقال له أبى : لولا أنه قد كان سبقت إليك من أبيك فى الدعاء لك بحيث دعا عليك لما دعوت لك . قال الحسن : وكان أبى يقول لنا . احذروا دعاء الوالدين ! فإن فى دعائهما النَّماء [4] والانجبار والاستئصال والبوار .

* * *

٩٤ - (توبة امرأة من دومة الجندل عن عمل السحر)

قرأت على أبى المعالى عبد الله بن عبد الرحمن السُّلمى ، أخبركم هبة الله بن أحمد بن محمد الأكفانى ، قال : أنبأنا أبو الفتح عبد الجبار بن عبد الله بن إبراهيم ابن برزة ، قال : أنبأنا أبو الحسن علىّ بن محمد بن عمر الفقيه ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن أبى حاتم ، قال : ثنا الربيع بن سليمان ثنا عبد الله بن وهب ، ثنا ابن أبى الزناد حدثنى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة زوج النبى ﷺ ، أنها قالت :

قدمتَ امرأة من « دومة الجندل » تبتغى رسول الله ﷺ بعد موته ، حداثة ذلك ، تسأله عن شىء دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به . قالت عائشة لعروة: يا ابن أختى ! فرأيتها تبكى حتى إنى لأرحمها ؛ تقول : إنى أخاف أن أكون قد

---

(١) عشرت : النَّاقة : صارت عُشراء و - : الش : جَعَلَهَ عَشَرة أجزاء : وراجع لمعجم الوجيز (ص / ٤١٩) .

(٢) وهو وادى قريب من مكة . والأرَاك : شجر المسواك : نبات شجيرى كثير الفروع لدن العود ، متقابل الأوراق ، له ثمار حُمرٌ دكن توكل يُنبت فى البلاد الحارة ، ويوجد فى صحراء مصر الجنوبية الشرقية . والمفرد : أراكة . وراجع المعجم الوجيز (ص / ١٣) .

(٣) رضخ : به الأرض - رضخًا ضربة بها و- : الشىء اليابس تصنَّهُ وُكسَرةُ . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٢٦٧) .

(٤) نما : الشىء : زاد وكثر . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٦٣٦) .

هلكتُ ، كان لى زوج ، فغاب عنى ، فدخلتْ عليَّ عجوز فشكوت ذلك إليها ، فقالت : إن فعلت ما آمرك به تجعليه يأتيك · فلمـــا أتانا الليل جاءتنى بكلبين أسودين ، فركبتُ أحدهما وركبت الآخر ، ولـم يكن كشيء حتى وقفنا « ببابل » · فإذا برجلين معلقين بأرجلهما ، فقالا : ما جاء بك ؟ فقلت : أتعلـم السِّحْر · فقالا : إنما نحن فتنة ، فلا تكفرى وارجعى ، فأبيتُ وقلتُ : لا · قالا : فاذهبى إلى ذلك التنور فبولى فيه ، فذهبت ففزعت فلم أفعل ، فرجعت إليهما · فقالا : أفعلتِ ؟ فقلت : نعم ، فقالا : هل رأيت شيئًا ؟ قلت : لم أر شيئًا ، فقالا ، لم تفعلىَ ! ارجعى إلى بلدك ولا تكفرى ، فأبيت ، فقالا : اذهبى إلى ذلك التنور فبولى فيه ، ثم إنى ذهبت فاقشعر جلدى وخفت؛ ثم رجعت اليهما، فقلت: قد فعلت : فقالا : ما رأيت ؟ فقلت : لم أر شيئًا ، فقالا : كذبتِ ، لم تفعلى ؛ فارجعى إلى بلدك ولا تكفرى ، فإنك على رأس أمرك فذهبت فبلت فيه ، فرأيت فارسًا متقنعًا بحديد خرج منى فذهب فى السماء وغاب عنى حتى ما أراه· وجئتهما فقلت : قد فعلت ، فقالا : ما رأيت ؟ قلت رأيتُ فارسًا متقنعًا بحديد خرج منى فذهب فى السماء حتى ما أراه · فقالا : صدقت ! ذلك إيمانك خرج منك ؛ اذهبى · فقلت للمرأة : والله ما أعلم شيئًا ، وما قالا لى شيئًا · فقالت : بلى ! لن تريدى شيئًا إلا كان ؛ خذى هذا القمح فابذرى · فبذرت ، فقلت: أطلعى ، فأطلعت ، فقلت : الحقى ، فلحقت · ثم قلت : افركى ففركت ، فقلت : ايبسى ، فيبست · ثم قلت : اطحنى ، فطحنت ، ثم قلت : اخبزى فخبزت · فلما رأيت أنى لا أريد شيئًا إلا كان سُقِط فى يدى وندمت ، والله يا أمّ المؤمنين ، ما فعلت شيئًا قط ولا أفعله أبدًا ، فَسألت أصحاب رسول الله ﷺ ، حداثة وفاة رسول لله ﷺ ، وهم متوافرون ، فما درَوا ما يقولون لها ، وكلهم هاب وخاف أن يفتيها بما لا يعلمه ؛ إلا أنه قد قال لها ابن عباس ، أو بعض من كان عنده : لو كان أبواك حيين أو أحدهما ! قال ابن أبى الزناد [1] : وكان هشام يقول : إنهم كانوا أهل ورع وخشية من الله ، وبُعَداء من

(١) وهو : عبد الله بن ذكوان ، أبو الزناد الإمام · وثقة ابن معين ، وأحمد وغيرهما · وقال أبو حاتم : ثقة حجة صاحب سنة · قال ربيعة فيه : ليس بثقة ولا رضى ، ورد الذهبى قول ربيعة فى الميزن قال يحيى ابن معين : قال مالك : كان أبو الزناد كاتب هؤلاء · يعنى بنى أمية · وكان لا يرضاه - يعنى ذلك · وراجع الميزان (٣ / ١٣٢ - ١٣٣ - ١٣٤) برقم (٤٣٠١) وفى التهذيب (٥ / ٢٠٣) ·

التكلف والجرأة على الله ثم يقول هشام : ولو جاءتنا مثلها لوجدت نوكى أهل حمق وتكلف بغير علم [1] .

* * *

٩٥ - (توبة شاب عن اللهو واللعب)

أخبرنا الإمام أبو الحسن البطائحى قال : أنبأنا أبو طالب اليوسفى ، أنا الحسن بن على التميمى ، قال : أنبأنا أبو بكر بن مالك ، قال : ثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنى هارون بن عبد الله ، ثنا ثابت البُنانى [2] ، قال :

كان صلة بن أشيم يخرج إلى الجبان فيتعبد فيها . فكان يمر على شباب يلهون ويلعبون . قال : فيقول لهم : أخبرونى عن قوم أرادوا سفراً فجاروا النهارَ عن الطريق وناموا الليل ، متى يقطعون سفرهم ؟ قال : فكان كذلك يمر بهم ويعظهم قال: فمر بهم ذات يوم ، فقال لهم هذه المقالة . فقال شابٌ منهم : يا قوم ! إنه والله ما يعنى بهذا غيرنا ، نحن بالنهار نلهو وبالليل ننام ، ثم اتبع صلة ، فلم يزل يختلف معه إلى الجبان ويتعبد معه حتى مات ، رحمهما الله .

* * *

٩٦ - (توبة شاب عن الانهماك فى الدنيا)

أنبأنا الشيخ أبو الفرج [3] قال : ثنا أبو بكر الصوفى ، قال : أنبأنا على بن عبد الله ، قال : أنبأنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن باكويه : قال : ثنا إبراهيم بن محمد الفقيه المالكى ، قال : ثنا يوسف بن أحمد الواعظ قال : ثنا العباس بن محمد

---

(١)هذا أثر غريب : واستغربه وإستعجبه ابن كثير رحمه الله . أنظر التفسير (١ / ١٤١ - ١٤٢) وقال : ورواه بن أبى حاتم ، وهذا إسناد جيد إلى عائشة رضي الله عنها . ورواه الطبرى فى التفسير .

(٢) ثابت بن أسلم البُنانى : ثقة بلا مدافعة ، كبير القدر . تناكر ابن عدى بذكره فى الكامل ، وحديثه عن ابن عمر مخرج فى مسلم . قال ابن المدينى : له نحو من مائتين وخمسين حديثًا . وثقة أحمد والنسائى قال شعبة : كان يقرأ القرآن فى كل يوم وليلة . قال الذهبى : وثابت ثابت كاسمه . توفى سنة ١٢٧ هـ وله ست وثمانون سنة . وراجع الميزان (١ / ٣٦٢ - ٣٦٣) برقم (١٣٥٥) وفى التهذيب (٢ / ٣) .

(٣) وهو أبو الفرج ابن الجوزى . وسبقت ترجمته .

المطهرى ، قال : ثنا الحسن بن أبى مريم العسـكرىّ ، حدثنى جعفر بن سليمان، قال :

مررت أنا ومالك بن دينار بالبصرة [1] ، فبينا نحن ندور فيها مررنا بقصرٍ يعمَّر . وإذا شابٌ جالس ما رأيت أحسن وجهًا منه ، وإذا هو يأمر ببناء القصر ، ويقول : افعلوا ، واصنعوا . فقال لى مالك : ما ترى إلى هذا الشاب وإلى حسن وجهه وحرصه على هذا البناء ؟ ما أحوجنى إلى أن سأل ربى أن يخلصه ، فلعله يجعله من شباب الجنة ! يا جعفر ! ادخل بنا إليه . قال جعفر . فدخلنا فسلمنا ، فرد السلام ولم يعرف مالكًا . فلما عرَّفوه إياه قام إليه ، فقال : حاجة ؟ قال : كم نويت أن تنفق على هذا القصر ؟ قال : مائة ألف درهم . قال : ألا تعطينى هذا المال فأضعه فى حقه ، وأضمن لك على الله تعالى قصرًا خيرًا من هذا القصر ، بوالدانه وخدمه، وقبابُه وخيمه من ياقوتة حمراء ، مرصّع بالجواهر ، ترابه الزعفران ، وملاطه المسك [2] ؛ أفيح [3] من قصرك هذا ، لا يخرب ، لا تمسه يدان ولم يبنه بنَّاء، قال له الجليل : كن فكان ؟ قال : أجلنى الليلة وبكر علىّ غدوة . قال جعفر : فبات مالك وهو يفكر فى الشابّ ، فلما كان فى وقت السَّحر دعا وأكثر من الدعاء . فلما أصبحنا غدونا ، فإذا بالشابّ جالس ، فلما عاين مالكًا هشّ إليه ، ثم قال : ما تقول فى ما قلت بالأمس ؟ قال : تفعل ؟ قال : نعم . فأحضر البدر ودعا بدواة وقرطاس ، ثم كتب :

بسم الله الرحمن الرحيم [4] ، هذا ما ضمن مالك بن دينار لفلان بن فلان :

---

(١) سبقت ترجمته سابقًا .

(٢) الملاط : ما يُطلى به الحائط من طين ونحـوه : - : طين يجعل بين كل لبنتين أو آجرتين أو حجرين فى البنـاء . أما الأملط : من ليس فى جسـمه شعر . وراجع الوجيز (ص / ٥٨٩) وجاء ذكر هذا فى حديث الترمذى (٤ / ٢٥٣٤) وقال : ليس اسناده بذاك القوى ، وليس هو عندى بمتصل ا هـ .

(٣) الأفيح : الواسع . وفَاحَ : انتشر . ومنه الفيحاء : الواسعة و- : لقب دمشق ومدن أخرى . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٤٨٥) .

(٤) ويسن ذكر البسملة قبل كل شيء . وأما حديث « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بذكر الله وببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع » ضعيف : رواه أبو داود (٥ / ٤٨٤٠) وابن ماجة (١ / ١٨٩٤) والعينى فى العمدة (١ / ١١) وأحمد (٢ / ٣٥٩) . وحسنه وصححه ابن الصلاح . وضعفه شيخنا الألبانى . وراجع ضعيف الجامع برقم (٤٢١٧) وفى ضعيف ابن ماجة (٤١٥ / ١٨٩٤) .

إنى ضمنت لك على الله قصراً بدل قصرك بصفته كما وصفت والزيادة على الله ؛ واشتريت لك بهذا المال قصراً فى الجنة أفيح من ظل ظليل بقرب العزيز الجليل . ثم طوى الكتاب ودفعه إلى الشاب وحملنا المال فما أمسى مالك وقد بقى عنده مقدار قوت ليلة . فما أتى على الشاب أربعون ليلة ، حتى صلى مالك ذات يوم لغداة ، فلما انفتل ، فإذا بالكتاب فى المحراب موضع ، فأخذه مالك فنشره ، فإذا فى ظهره مكتوب بلا مداد :

هذه براءة من الله العزيز الحكيم لمالك بن دينار : إنا وفّينا الشاب القصر الذى ضمنتَ له وزيادة سبعين ضعفًا . قال : فبقى مالك متعجبًا ، وأخذ الكتاب ، فقمنا فذهبنا إلى منزل الشاب ، فأقبلنا ، فإذا الباب مسود والبكاء فى الدار ، فقلنا : ما فعل الشاب ؟ قالوا : مات بالأمس. فأحضرنا الغاسل ، فقلنا : أنت غسلته ؟ قال : نعم . قال مالك : فحدثنا كيف صنعت ؟ قال : قال لى قبل الموت : إذا أنا مت وكفنتنى اجعل هذا الكتاب بين كفنى وبدنى . فجعلت الكتاب بين كفنه وبدنه ، ودفنته معه ، فأخرج مالك الكتاب؛ فقال الغاسل : هذا الكتاب بعينه والذى قبضه ، لقد جعلته بين كفنه وبدنه بيدى . قال : فكثر البكاء ؛ فقام شاب ، فقال : يا مالك! خذ منى مائتى ألف درهم واضمن لى مثل هذا ، قال : هيهات ! كان ما كان، وفات ما فات ؛ والله يحكم ما يريد : فكلما ذكر مالك الشابَّ بكى ودعا له .

* * *

٩٧ - (توبة جندى صاحب قصر عن الغناء والملاهى)

قال ابن باكويه : حدثنا عبد الواحد بن بكر ، ثنا محمد بن داود الدينورى ، قال : سمعت أبا إسحاق الهرويّ يقول :

كنت مع ابن الخيوطى بالبصرة ، فأخذ بيدى ، وقـــال : قم حتى نخرج إلى « الأبلة » (١) . فلما قربنا إلي « الأبلة » ونحن نمشى على شاطىء « الأبلة » فى الليل والقمر طالع ، مررنا بقصر لجندىّ فيه جارية تضرب بالعود ، وفى جانب القصر فى ظل القمر فقير بخرقتين . فسمع الفقيرُ الجارية وهى تقول :

كلَّ يومٍ تتلــــوَّنْ   غيرُ هذا بِكَ أجمَلْ

---

(١) اسم مدينة بالعراق .

فصاح الفقير وقال : أعيديه ! فهذا حالى مع الله تعالى . قال : فنظر صاحب الجارية إلى الفقير ، فقال لها : اتركى العود وأقبلى عليه فإنه صوفىّ . فأخذتْ تقول، والفقير يقول : هذا حالى مع الله ؛ والجارية تردد ، إلي أن صاح الفقير صيحة وخر مغشيًا عليه ، فحرّكناه ، فإذا هو ميت . فلما سمع صاحب القصر بموته نزل فأدخله إلى القصر ، واعتممنا وقلنا : هذا يكفنه من غير وجهه ، فصعد الجندى وكسر كل ما كان بين يديه ، فقلنا : ما بعد هذا إلا خير ، ومضينا إلى « الأبلة » فبتنا وأعلمنا الناس . فلما أصبحنا رجعنا إلى القصر ، وإذا الناس مقبلون من كل وجه إلى الجنازة كأنما نودى فى « البصرة » ، حتى خرج القضاة والعدول وغيرهم ، وإذا الجندىّ يمشى خلف الجنازة حافيًا حاسرًا حتى دفن ، فلما همّ الناس بالانصراف قال الجندى للقاضى والشهود : اشهدوا أن كل جارية لى حرة لوجه الله تعالى ، وكل ضياعى وعقارى حبيس فى سبيل الله ، ولى فى صندوق أربعة آلاف دينار ، وهى فى سبيل الله . ثم نزع الثوب الذى كان عليه فرمى به وبقى فى سراويله ، فقال القاضى : عندى مئزران من وجههما ، تقبلهما ؟ فقال : شأنك ، فأخذهما فاتزر بواحد ، واتشح بالآخر ، وهام على وجهه . فكان بكاء الناس عليه أكثر منه على الميت .

* * *

٩٨ - (توبة رجل من أعوان السلطان عن الفواحش)

وحكى عن مالك بن دينار ، قال كان لى جار يتعاطى الفواحش ، فأتى إلىّ الجيران يشكون منه . فأحضرناه وقلنا له : إنّ الجيران يشكونك ، فسبيلك أن تخرج من المحلة . فقال : أنا فى منزلى ، لا أخرج قلنا : تبيع دارك ! قال : لا أبيع ملكى. قلنا : نشكوك إلى السلطان . قال : أنا من أعوانه . قلنا : ندعو الله عليك. قال : الله أرحم بى منكم . قال : فلما أمسينا قمتُ وصليتُ ودعوتُ عليه، فهتف بى هاتف : لا تدعُ عليه فإنه من أولياء الله تعالى ، فجئت إلى باب داره ودققت الباب ، فخرج ، فظن أنى جئت لأخرجه من المحلة ، فتكلم كالمعتذر ، فقلت : ما جئت لهذا ، ولكن رأيت كذا وكذا ، فوقع عليه البكاء وقال : إنى تبت بعد ما كان هذا ، ثم خرج من البلد فلم أرَهُ بعد ذلك .

واتفق أنى خرجت إلى الحج ، فرأيت فى المسجد الحرام حلقة فتقدمتُ إليهم ، فرأيته مطروحًا عليلاً ، فلم ألبث أن قالوا مات الشاب رحمه الله .

* * *

٩٩ - (توبة فتى من الأزدكان عن التأنث والتخنث) (١)

اخبرنا أبو طالب المبارك بن علىّ الصيرفىّ ، أنا أبو غالب شجاع بن فارس الذهلّى ، أنا أبو بكر الخياط ، قال : أنا أحمد بن محمد بن دوست ، قالَ : أنبأنا الحسين بن صفوان ، قال : أنبأنا أحمد بن محمد ،قال : أنبأنا أبو بكر بن أبى الدنيا قال : وحدثت عن محمد بن الحسين عن يحيى بن راشد ، ثنا رجاء بن ميسور المجاشعىّ ، قال :

كنا فى مجلس صالح المرى وهو يتكلم . فقال لفتى بين يديه اقرأ يا فتى ! فقرأ الفتى : ﴿ وَأَنذِرْهُم يَوْمَ الآزِفَة إذ القُلوب لدى الحناجر كاظمينَ ما للظالمينَ منْ حميم ولا شفيع يطاعُ ﴾ (غافر : ١٨) . فقطع صالح عليه القراءة وقال : كيف يكون لظالم حميم أو شفيع ، والمطالب له ربّ العالمين ؟ إنك والله لو رأيت الظالمين وأهل المعاصى يساقون فى السلاسل والأنكال إلى الجحيم ، حفاة عراة ، مسودة وجوههم، مزرقة عيونهم ، ذائبة أجسادهم ، ينادون : يا ويلنا يا ثبورنا ! ماذا نزل بنا ؟ ماذا حلّ بنا ؟ أين يذهب بنا ؟ ماذا يراد منا ؟ والملائكة تسوقهم بمقامع النيران ، فمرةً يجرون على وجوههم ويسحبون عليها منكبِّين ، ومن بين صارخ طائر القلب مبهوت- إنك والله لو رأيتهم على ذلك لرأيت منظراً لا يقوم له بصرك ، ولا يثبت له قلبك، ولا تستقرّ لفظاعة هوله على قرارِ قدمُك ! ثم نحب وصاح : يا سوء منظراه ! يا سوء منقلباه ! وبكى ، وبكى الناس . فقام فتى من الأزدكان ، به تأنيث ، فقال : أكلّ هذا فى القيامة يا أبا بشر ؟ قال : نعم والله يا ابن أخى ، وما هو أكثر ! لقد بلغنى أنهم يصرخون فى النار حتى تنقطع أصواتهم ، فما يبقى منهم إلا كهيئة الأنين من المدنَف (٢) فصاح الفتى : إنا لله ! واغفلتاه عن نفسى أيام الحياة ، واأسفا على

---

(١) المخنث : الجمع : المخنثين : وهو من يشبه خلقه النساء فى حركاته أوكلماته - فإنهم نقلة أسرار البيوت ولذلك أمر الرسول ﷺ بإخراجهم من حديث ابن عباس « لعن النبى ﷺ المخنثين من الرجال .. وقال أخرجوهم من بيوتكم » رواه البخارى (١٠/ ٣٣٣) كتاب اللباس (٧٧) باب (٦٢) «ح» (٥٨٨٦) واللعن : أى الطرد والإبعاد من رحمة الله .

(٢) دَنفَ : المريض : أى إشتد مرضُه وأشرف على الموت فهو دَنِفٌ . والجمع : أدناف . وراجعَ المعجم الوجيز (ص / ٢٣٥) .

تفريطى فى طاعتك يا سيداه ! واأسفا على تضييعى عمرى فى دار الدنيا ! ثم بكى ، واستقبل القبلة ، فقال : اللهم ! إنى استقبلك فى يومى هذا بتوبة لا يخالطها رياء لغيرك ؛ اللهمّ ! فاقبلنى على ما كان فىّ ، واعف عما تقدّم من فعلى ، وأقلنى عثرتى ، وارحمنى ومن حضرنى ، وتفضل علينا بجودك وكرمك ؛ يا أرحم الراحمين ! لك ألقيت معاقد الآثام من عنقى ، وإليك أنبت بجميع جوارحى صادقًا لذلك قلبى ، فالويل لى إن لم تقبلنى ! ثم غُلب فسقط مغشيًا عليه ، فحُمل من بين القوم صريعًا ، فمكث صالح وإخوته يعودونه أيامًا ، ثم مات - والحمد لله - فحضره خلق كثير يبكون عليه ويدعون له ، فكان صالح كثيرًا ما يذكره فى مجلسه فيقول : بأبى قتيل القرآن ، وبأبى قتيل المواعظ والأحزان ! قالَ : فرآه رجل فى منامه ، قال : ما صنعتَ ؟ قال : عمتنى بركة مجلس صالح فدخلتُ فى سعة رحمة الله التى وسعت كل شىء .

* * *

١٠٠ - (توبة امرأة [١] وهى تطوف حول الكعبة)

أخبرنا محمد بن عبد الباقى ، قال : أنبأنا على بن محمد الخطيب الأنبارى ، قال : أنبأنا أبو الحسين بن بشران ، قال : أنبأنا الحسين بن صفوان ، قال : أنبأنا ابن أبى الدنيا ، ثنا سعيد بن سليمان الواسطىّ ، عن محمد بن يزيد بن خُنيسْ قال : قال وهيب بن الورد :

بينما امرأة فى الطواف ذات يوم وهى تقول : يا ربّ ! ذهبت اللذات ، وبقيت التبعات ؛ يا ربّ ! سبحانك ، وعزتك إنك أرحم الراحمين ؛ يا ربّ ! ما لكَ عقوبة إلا النار ؛ فقالت صاحبة لها كانت معها : أُخيَّة ! دخلت بيت ربك اليوم ؟ فقالت : والله ما أرى هاتين القدمين أهلاً للطواف حول بيت ربى ، فكيف أراهما أهلاً أطأ بهما بيت ربى وقد علمت حيث مشتَا وأين مشتَا ؟

* * *

(١) المرأة : الأنثى وهى مؤنثة . وفى القرآن الكريم : « وقال نسوة ... » قال النسفى قال تعالى « قال نسوة » ولم يقل « قالت نسوة » : لأن النسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثها غير حقيقى ولذا لم يقل قالت وفيه لغتان كسر النون وضمها . وراجع تفسير النسفى (٢ / ١٦٨) .

١٠١ - (توبة رجل عما جنت يداه)

أخبرنا أبو الفضل مسعود بن عبيد الله بن النادر ، قال : أنا أبو سعد أحمد بن محمد البغدادى ، قال : أنبأنا أبو العباس أحمد بن محمد الظهرانىّ وعبد الوهاب بن مندة قالا : أنبأنا أبو محمّد الحسن بن محمد بن يوه قال : أنبأنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن عمر البُنانى ، قال أنبأنا عبد الله بن محمد قال : كتب إلىّ أبو عبد الله الباهلى : قال : أنبأنا عبد الله بن محمد عن إبراهيم بن الحارث ، قال :

كان رجل كثير البكاء ؛ فقيل له فى ذلك ، فقال : أبكانى تذكرى ما جنيت على نفسى حين لم أستحى ممن شاهدنى وهو يملك عقوبتى ، فأخَّرنى إلى يوم العقوبة الدائمة وأجلنى إلى يوم الحسرة الباقية ؛ والله لو خيرت : أيما أحبّ إليك ، تحاسَب ثم يؤمر بك إلى الجنة ، أو يقال لك : كن ترابًا ؟ - لاخترت أن أكون ترابًا .

* * *

١٠٢ - (توبة ملهى أهل المدينة عن اللهو على يد والدته)

ومن « الملتقط » : قال صالح بن عمر : وحدثنى أبى ، قال : كان بالمدينة امرأة متعبدة ولها ولد يلهو ، وهو ملهى أهل المدينة . وكانت تعظُه وتقول : يا بُنى ! اذكر مصارع الغافلين قبلك ، وعواقب البطَّالين قبلك ، اذكر نزول الموت . فيقول إذا ألحت عليه :

كُفّى عن التَّعـذَال واللوْم　　واستيقظى من سِنَة النَّـــوم
إنى وَإنْ تابعتُ فى لـذَّتى　　قلبى وعَاصيْتُك فَى لومـــى
أرْجو منْ افضــالِه توبَةً　　تنقلُ من قومٍ إلى قـــومِ

فلم يزل كذلك حتى قدم أبو عامر البنانى واعظ أهل الحجار ، ووافق قدُومه رمضان ، فسأله إخوانه أن يجلس لهم فى مسجد رسول الله ﷺ . فأجابهم ، وجلس ليلة الجمعة بعد انقضاء التراويح ، واجتمع الناس ، وجاء الفتى فجلس مع القوم ، فلم يزل أبو عامر يعظ وينذر ويبشر ، إلى أن ماتت القلوب فرقًا ، واشتاقت النفوس إلى الجنة ، فوقعت الموعظة فى قلب الغلام فتغيّر لونه . ثم نهض إلى أمه . فبكى عندها طويلاً ، ثم قال :

زَمَمتُ للتَّوْبة أجمــالى　　ورُحْتُ قدْ طاوعت عذَّالى
وأبتُ والتوبةُ قدْ فتحتْ　　مِن كلّ عُضو لى أقفَــالى

لما حَدَا الحادى بقلبى إلى طاعـــــةِ ربى فَكَّ أغلالى
أجبـــتُهُ لبَّيكَ من موقظٍ نبَّهَ بالتَّذكارِ أغفـــــــالى
يا أُمَّ هل يقبلُنى سيـدى على الذى قد كانَ من حالى ؟
واسْوءَتا إن رَدَّنى خائبًا ربى ولم يرض بإقبالـــــى !

ثم شمرّ فى العبادة وجدّ ، وكان لا يفطر إلا بعد التراويح [(١)] ، ولا ينام إلا بعد طلوع الشمس · فقرّبت إليه أمه ليلةً إفطاره ، فامتنع وقال : أجد ألم الحمى ، فأظنّ أن الأجل قد أزف · ثم فزع إلى محرابه ولسانُه لا يفتر من الذّكر · فبقى أربعة أيام على تلك الحال · ثم استقبل القبلة يومًا ، وقال : إلهى عصيتك قويًا ، وأطعتُك ضعيفًا ، وأسخطتك جلدًا وخدمتك نحيفًا ، فليت شعرى هل قبلتنى ؟ ثم سقط مغشيًا عليه ، فانشجّ وجهه ، فقامت إليه أمه ، فقالت : يا ثمرة فؤادى ، وقرّة عينى! رُدّ جوابى · فأفاق فقال : يا أمّاه ! هذا اليوم الذى كنت تحذرينى ، وهذا الوقت الذى كنت تخوفينى ؛ فيا أسفى على الأيام الخوالى ! يا أماه ! إنى خائف على نفسى أن يطول فى النار حبسى ؛ بالله عليك يا أماه ، قومى فضعى رجلك على حدّى حتى أذوق طعم الذُّل لعله يرحمنى ، ففعلتْ وهو يقول : هذا جزاء من أساء، ثم مات رحمه الله ·

قالت أمّه : فرأيتُه فى المنام ليلة الجمعة وكأنه القمر ، فقلت : يا ولدى ! ما فعل الله بك ؟ فقال : خيرًا ، رفع درجتى · قلت : فما كنت تقول قبل موتك ؟ قال : هتف بى هاتف : أحب الرحمن ! فأجبتُ قلتُ : فما فعل أبو عامر ؟ فقال : هيهاتَ ! أين نحن من أبى عامر ؟

---

(١) ومن المعلوم أننا قد نُهينا أن نواصل الصيام أى الوصال : فعندما قال رجل من المسلمين : إنك تواصل يا رسول الله : فقال « وأيكم مثلى إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى » رواه البخارى (٤ / ٢٠٢) ومسلم (٧ / ٢١٢) ومالك (١٢٩) قال : يحتمل له معنيين أحدهما : إنى أعان على الصيام ، فيكون بمنزلة الطعام والشراب لكم · ويحتمل أن يكون قد يؤتى بطعام وشراب يطعمهما فيكون كرامة له · ولكن جاز الوصال إلى السحر لقوله ﷺ « لا تواصلوا فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحَر » رواه البخارى (٤ / ٢٠٨) قال البغوى : الوصال فى الصوم من خصائص ما أبيح لرسول الله ﷺ ، وهو محظور على الأمة عند عامة أهل العلم · وفيه مشروعية الوصال إلى السحر وهو قول أحمد ·

حَلَّ أبو عَامرٍ فى قُبَّـــة وَطَّدَها ذُو العرش للنـاس
بينَ جَوار كالدُّمى خُــرَّدٍ يسقينهُ بالكاس والطَّــاس
يقلنَ بالترخيم خذها فقد هُنيتهَا يا واعـــظَ النَّاس

* * *

١٠٣ - (توبة دينار العيار عن المعاصي على يد والدته)

وروى أنّ رجلاً كان يُعرف بـ « دينار العيّار » ، كانت له والدة تعظه ولا يتعظ، فمرّ فى بعض الأيام بمقبرة كثيرة العظام ، فأخذ منها عظمًا نخرًا فانفتّ فى يده ، ففكّر فى نفسه ، وقال لنفسه : ويحك ! كأنى بك غدًا قد صار عظمك هكذا رُفاتًا والجسم ترابًا ، وأنا اليوم أقدم على المعاصى ، فندم وعزم على التوبة ، ورفع رأسه إلى السماء وقال : إلهى ! إليك ألقيتُ مقاليد أمرى ، فاقبلنى وارحمنى . ثم مضى نحو أمه متغير اللون ، منكسر القلب ، فقال : يا أماه ! ما يصنع بالعبد الآبق إذا أخذه سيده ؟ فقالت : يخشّن ملبسه ومطعمه ويغلّ يده وقدمه . فقال : أريد جبَّة من صوف وأقراصًا من شعير ، وتفعلين بى كما يُفعل بالآبق ، لعلّ مولاى يرى ذُلىَّ فيرحمنى . ففعَلتْ ما طلب . فكان إذا جَنَّه الليل أخذ فى البكاء والعويل ، ويقول لنفسه : ويحكَ يا دينار ! ألك قوّة على النار ؟ كيف تعرّضت لغضب الجبار ؟ وكذلك إلى الصباح ، فقالت له أمّه فى بعض الليالى : ارفق بنفسك ، فقال : دعينى أتعب قليلاً لعلى أستريح طويلاً ؛ يا أمى ! إن لى موقفًا طويلاً بين يدى ربّ جليل ، ولا أدرى أيُؤمر بى إلى الظلّ الظليل ، أو إلى شر مقيل ؛ إنى أخاف عناءً لا راحة بعده، وتوبيخًا لا عفو معه ، قالت : فاسترح قليلاً ، فقال : الراحة أطلب ؟ أتضمنين لى الخلاص ؟ قالت : فمن يضمنه لى ؟ قال : فدعينى وما أنا عليه ؛ كأنكِ يا أماه غدًا بالخلائق يساقون إلى الجنّة وأنا أُساق إلى النار ! فمرت به فى بعض الليالى فى قراءته ﴿ فَوَرَبِّكَ لنَسْألَنَّهُم أجمعين . عَمَّا كانوا يعملونَ ﴾ (الحجر : ٩٢ ، ٩٣) . ففكر فيها ، وبكى وجعل يضطرب كالحية حتى خر مغشيًا ، فجاءت أمه إليه ونادته ، فلم يجبها ، فقالت : قُرَّةَ عينى ! أين الملتقى ؟ فقال بصوت ضعيف : إن لم تجدينى فى عرصة القيامة فاسألى مالكًا عنى . ثم شهق شهقة مات فيها . فجهزته وغسلته ، وخرجت تنادى : أيها الناس ! هلمّوا إلى الصلاة على قتيل النار ! فجاء الناس ؛ فلم يُرَ أكثر جمعًا ولا أغزر دمعًا من ذلك اليوم .

١٠٤ - (توبة رجل عن حب مغنية شغلته عن الله)

وقال على بن الحسين : كان لنا جار من المتعبِّدين قد برز فى الاجتهاد ، فصلى حتى تورّمت قدماه وبكى حتى مرضت عيناه ، فاجتمع إليه أهله وجيرانه فسألوه أن يتزوّج ، فاشترى جارية وكانت تغنى وهو لا يعلم ، فبينا هو ذات يوم فى محرابه يصلى ، رفعت الجارية صوتها بالغناء ، فطار لبّه ، فرام ما كان عليه من العبادة فلم يطق ، فأقبلت الجارية عليه ، فقالت : يا مولاى ! لقد أبليتَ شبابك وَرَفَضْت لذات الدنيا أيام حياتك ؛ فلو تمتعت بى ! فمال إلى قولها واشتغل باللذات عمَّا كان فيه من التعبّد . فبلغ ذلك أخًا له كان يوافقه على العبادة ؛ فكتب إليه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من الناصح الشفيق ، والطّبيب الرفيق ، إلي مَنْ سُلبَ حلاوة الذِّكر ، والتلذذ بالقرآن ، والخشوع والأحزان ، بلغنى أنك اشتريت جاريةً بِعتَ بها من الآخرة حظّك ؛ فإن كنت بعت الجزيل بالقليل والقرآن بالقيان ، فإنى محذِّرك هادم اللذات ومنغص الشهوات وموتمَ الأولاد ؛ فكأنه قد جاء على غرة فأبكم منك اللسان، وهدم منك الأركان ، وقرّب منك الأكفان ، واحتوشك الأهل والجيران ؛ وأحذّرك من الصيحة إذا جَثت (١) الأمم لهولْ ملك جبّار ؛ فاحذر يا أخى ما يحلّ بك من ملك غضبان . ثم طوى الكتاب وأنفذه إليه . فوافاه الكتاب وهو فى مجلس سروره ، فغصّ بريقه وأذهله ذلك . فنهض مبادراً من مجلس سروره وكسر آنيته وهجر جاريته ، وآلى أنْ لا يطعم الطعام ولا يتوسّد المنام .

قال الذى وعظه : فلمَّا مات رأيتُه فى المنام بعد ثلاث ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : قدمنا على ربّ كريم أباحنا الجنة . وقال :

اللهُ عوضنى ذُو العرش جارية
حوراء تسْقيَنى طورًا وتهنّينى
تقولُ لى اشربْ بما قدْ كُنْتَ تأمُلُنى
وقرَّ عينًا مع الولدان والعين

(١) جثا : جلس على رُكبتيه - : أو قام على أطراف أصابعه فهو جاث . والجمع : جُثِىٌّ ، وجثىٌّ . وفى القرآن الكريم « ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيًا » . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٩٢) .

يا منْ تخلّى عن الدُّنيا وأزعجهُ
عن الخطايا وعيدٌ في الطَّواسين (١)

* * *

١٠٥ - توبة شاب وامرأته على يد سرى السقطى)

وعن سرى السقطى (٢) ، قال : كنت يومًا أتكلم بجامع المدينة ، فوقف عليّ شابّ ، حسنُ الشباب ، فاخر الثياب ، ومعه أصحابه ، فسمعنى أقول فى وعظى : عجبًا لضعيف يعصى قويًا ! فتغير لونه وانصرف . فلما كان من الغد جلستُ فى مجلسى ، وإذا بالفتى قد أقبل ، فسلم ، وصلى ركعتين ، وقال : يا سريّ ! سمعتُك بالأمس تقول : عجبًا لضعيف يعصى قويًا ! فما معناه ؟ فقلتُ : لا أقوى من الله ، ولا أضعف من العبد وهو يعصيه ، فنهض ، فخرج ؛ ثم أقبل من الغد وعليه ثوبان أبيضان ، وليس معه أحد ، فقال : يا سرى ! كيف الطريق إلى الله ؟ فقلتُ : إن أردتَ العبادة فعليك بصيام النهار وقيام الليل ؛ وإن أردت فاترك كلّ شيء سواه تصل إليه ، وليس إلا المساجد والخراب والمقابر ، فقام وهو يقول : والله لا سلكتُ إلا أصعب الطرق ، وولىّ خارجًا . فلما كان بعد أيام أقبل إليّ غلمان كثير ، فقالوا : ما فعل أحمد بن يزيد الكاتب ؟ فقلت : لا أعرفه ؛ إلا أنّ رجلاً جاءنى ، من صفته كذا وكذا ، فجرى لى معه كذا وكذا ، ولا أعلم حاله ، فقالوا : نقسم عليك بالله متى عرفت حاله فعرِّفنا ، ودلّونى على داره . فبقيتُ سنة لا أعرف له خبرًا ، فبينا أنا ذات ليلة بعد عشاء الآخرة جالسًا فى بيتى ، إذا بطارق يطرق الباب ، فأذنت له بالدخول ، فإذا بالفتى عليه قطعة من كساءٍ فى وسطه ،وأخرى على عاتقه،

---

(١) يشير إلى السور التى تبدأ طس - طسم .

(٢) هو : سرى بن المغلس السقطى أبو الحسن البغدادى . تلميذ معروف الكرخى وكانت له دكان . قال الجنيد :

ما رأيت أعبد من سرى السقطى . أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤى مضطجعًا إلا فى علة الموت ومن شعره أثناء مرضه .

كيف أشكو إلى طبيبى ما بى   والذى أصابنى من طبيبى

توفى سنة ٢٥٣ هـ . وراجع البداية والنهاية (١١ / ١٨ - ١٩ - ٢٠) ط . دار الغد العربى .

ومعه زنْبيل فيه نوى · فقبّل بين عينيّ ، وقال لى : يا سريّ ! أعتقك الله من النار كما أعتقتنى من رقّ الدنيا · فأومأتُ إلى صاحبى أن امضِ إلى أهله فأخبرهم· فمضى وإذا بزوجته قد جاءت ومعها ولده وغلمانه · فدخلت وألقت ولده فى حجره وعليه حليّ وحُلل ، وقالت له : يا سيدى ! أرملتنى وأنت حيّ ، وأيتمتَ ولدك وأنت حيّ· قال سريّ : فنظر إليّ وقال : يا سريّ ! ما هذا وفاء ، ثم أقبل عليها ، فقال: والله إنكِ لثمرةُ فؤادى وحبيبةُ قلبى ، وإنّ هذا ولدى لأعز الخلق عليّ ، غير أنّ هذا سريّ أخبَرنى أنّ من أراد الله قطع كلّ ما سواه · ثم نزع ما على الصبى ، فقال : ضعى هذا فى الأكباد الجائعة والأجساد العارية ، وخرق قطعة من كسائه فلفّ فيها الصبي · فقالت المرأة : لا أرى ولدى فى هذه الحال ! وانتزعتْه منه ؛ فحين رآها قد اشتغلتْ به ، نهض وقال : ضيّعتم عليّ ليلتى ، بينى وبينكم الله ، وولّى خارجًا ، وضجّت الدّار بالبكاء ؛ فقالت : إن عدتَ سمعت له خبراً فأعلمنى ، فقلت : نعم· فلما كان بعد أيام أتت عجوز ، فقالت : يا سريّ ! بالشونيزية غلام يسألك الحضور ، فمضيت فإذا به مطروح فى تربة ، تحت رأسه ، لبِنَةَ · فسلمت عليه ، ففتح عينيه وقال : يا سريّ ! ترى تُغفَر تلك الجنايات ؟ فقلت : نعم · قال : يُغْفَر لمثلى ؟ قلت: نعم · قال : أنا غريق ! قلت : هو منجي الغَرْقى · فقال : عليّ مظالم ، فقلت : فى الخبر « أنّه يوتى بالتائب يوم القيامة ، معه خصومه ، فيُقال لهم : خلوا عنه فإنّ الله تعالى يعوّضكم » فقال : يا سريّ ! معى دراهم من لقط النوى ، إذا أنا مت فاشترِ لى ما أحتاج إليه وكفّنّى ، ولا تُعلم أهلى لئلا يغيرّوا كفنى بحرام · قال سريّ : فجلست عنده قليلاً ، ففتح عينيه ، فقال : ﴿ لِمثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ العامِلونَ ﴾ (الصافات : ٦١) ثمّ مات · فأخذتُ الدراهم ، وجئتُ فاشتريت ما يحتاج إليه ، وسرتُ نحوه ؛ فإذا الناس يهرعون ، فقلت : ما الخبر ؟ فقيل : مات وليّ من أولياء الله نريد أن نصليَ عليه · فجئت فغسلته ودفنّاه · فلمّا كان بعد مدّة نفذ أهله يستعلمون خبره ، فأخبرتُهم بموته ، فأقبلت امرأته باكية فأخبرتها بحاله ، فسألتنى أن أريها قبره · فقلت : أخاف أن تغيّروا أكفانه ، قالت : لا والله ! فأريتها القبر ، فبكت ، وأمرت بإحضار شاهدين ، فأحضرتْهما ، وأعتقَت جواريها وأوقفت عقارها وتصدّقت بمالها ، ولزمت قبره حتى ماتت ·

* * *

١٠٦ - (توبة امرأة بارعة الجمال أرادت ان تفتن الربيع بن خيثم)

أنبأنا محمد بن عبد الباقي قال : أنبأنا جعفر بن أحمد قال : أنا أحمد ابن عليّ، قال : أنا محمد بن عبد الله الدّقاق قال : أنا الحسين بن صفوان ، قال : أنا عبد الله بن محمد ، حدثنى الحسين بن عبد الرحمن ، قال : أنبأنا أبو القاسم محرز الجلاب قال : حدثنى سعدان ، قال :

أمر قوم امرأة ذات جمال بارع أن تتعرّض للربيع بن خيثم لعلها تفتنه ، وجعلوا لها ، إن فعلت ذلك ، ألف درهم ، فلبست أحسن ما قدرت عليه من الثياب ، وتطيبت بأطيب ما قدرت عليه ، ثم تعرضت له حين خرج من مسجده . فنظرت إليها، فراعه أمرها . فأقبلت عليه وهى سافرة ؛ فقال لها الربيع : كيف بك لو قد نزلت الحمى بجسمكِ فغيَّرت ما أرى من لونكِ وبهجتك ؟ أم كيف بك لو قد نزل بك ملك الموت فقطع منكِ حبل الوتين [1] ؟ أم كيف بكِ لو سألك منكر ونكير ؟ فصرخت صرخةً فسقطت مغشيًا عليها ، فوالله لقد أفاقت ، وبلغت من عبادة ربها ما أنها كانت يومَ ماتت كأنها جِذْع محترق .

* * *

١٠٧ - (توبة جار لأحمد بن حنبل)

حدثنا الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن على[2] أنا الحافظ أبو الفضل بن ناصر، أنا أبو طالب اليوسفيّ ، أنا أبو إسحاق البرمكيّ ، أنا أبو عبد الله بن بطّة [3]

---

(١) الوتين : الشّريان الرئيسى الذى يغذى جسم الإنسان بالدم النقىّ الخارج من القلب . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٦٥٩) .

(٢) وهو ابن الجوزى سبقت ترجمته أكثر من مرة .

(٣) هو عبيد الله بن محمد بن حمران أبو عبد الله العكبرى المعروف بابن بطة ، أحد علماء الحنابلة ، سمع الحديث من البغوى وأبى بكر النيسابورى وابن صاعد ، وقد تصدى الخطيب البغدادى للكلام فى ابن بطة والطعن عليه ، ثم روى ابن الجوزى بسنده عن ابن بطة أنه سمع المعجم من البغوى . ففى حديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم » روى بسند : عن ابن بطة عن البغوى عن أبى مصعب عن مالك عن الزهرى عن أنس مرفوعًا . وقال الخطيب : وهذا باطل من حديث مالك . والحمل فيه على ابن بطة . ورد ابن الجوزى =

قال : حدثنى أبو بكر الآجرى قال : سمعت ابن أبى الطيّب يقول : حدثنا جعفر الصائغ، قال :

كان فى جيران أبى عبد الله أحمد بن محمّد بن حنبل رجل ممن يمارس المعاصى والقاذورات ، فجاء يومًا إلى مجلس أحمد يسلم عليه ، فكأنَّ أحمد لم يردَّ عليه ردًا تامًا وانقبض منه · فقال له : يا أبا عبد الله ! لِمَ تنقبض منى ؟ فإنى قد انتقلت عمّا كنت تعهدنى برؤيا رأيتُها · قال : وأىّ شىء رأيت ؟ قال : رأيت النبى ﷺ فى النوم كأنّه على علوّ من الأرض وناس كثير أسفل جلوسٌ · قال : فيقوم رجل رجل منهم إليه ، فيقول : ادعُ لى ! فيدعو له ، حتى لم يبقَ من القوم غيرى · قال : فأردت أن أقوم فاستحيت من قبيح ما كنت عليه · قال لى : يا فلان ! لِمَ لا تقوم إلىّ فتسألنى أدعو لك ؟ قال : قلت : يا رسول الله ! يقطعنى الحياء لقبيح ما أنا عليه، فقال : إن كان يقطعكَ الحياءَ فقمْ فسلنى أدعُ لك ، فإنك لا تسبّ أحدًا من أصحابى · قال : فقمت فدعا لى فانتبهت وقد بغَّض الله إلىّ ما كنت عليه · قال : فقال لنا أبو عبد الله : يا جعفر ! يا فلان ! حدّثوا بهذا واحفظوه فإنه ينفع ·

* * *

١٠٨ - (توبة أبى عمر بن علوان عن نظره إلى امرأة)

أنبأنا الإمام العلاَّمة أبو اليمن زيد بن الحسن الكندىّ أخبر عبد الرحمن بن محمد القزّاز ، أنا أحمد بن علىّ بن ثابت قال : حدثنى محمد بن الحسن الساحلى ، أنا عمّار بن عبد الله الصوفىّ قال : سمعت محمد بن حمّاد الرحبى يقول : سمعت أبا عمرو بن علوان يقول :

خرجت يومًا فى حاجة فرأيت جنازةً فتبعتُها لأصلى عليها · ووقفت فى جملة الناس حتّى تُدفن · فوقعت عينى على امرأة مسفرة ، من غير تعمد ، فلمحت

= وحديث « طلب العلم ·· » رواه ابن ماجة فى السنن (١ / ٨١) باب فضل العلماء ·· (١٧) «ح» (٢٢٤) · فى الزوائد : اسناده ضعيف · لضعف حفص بن سليمان · وضعفه النووى · وقال تلميذه جمال الدين المزّى : هذا الحديث روى من طرق تبلغ رتبة الحسن · وحسنهُ كذلك السيوطى وقال : له أكثر من خمسين طريقًا · وصححه الألبانى وراجع صحيح الجامع برقمى (٣٩١٣) و (٣٩١٤) وفى صحيح الترغيب (٧٠) · وأنظر البداية والنهاية فى الترجمة (١١ / ٤١١ - ٤١٢) ·

بالنظر[1] واسترحعت واستغفرتُ الله تعالى وعدتُ إلى منزلى . فقالت لى عجوز : يا سيّدى ! مالى أرى وجهك أسود ؟ فأخذتُ المرآة فنظرتُ ، فإذا وجهى أسود . فرجعت إلى سرى أنظر من أين دُهيت [2] ، فذكرتُ النظرة . فانفردتُ فى موضع أستغفر الله تعالى وأسأله الإقالة أربعين يومًا . فخطر فى قلبى أن زُرْ شيخك الجنيد . فانحدرتُ إلى بغداد . فلما جئت الحُجْرة التى هو فيها طرقت الباب ، فقال : ادخل، يا أبا عمرو ! تُذْنِبُ بالرَّحْبة ويُستغفر لك ببغداد .

* * *

١٠٩ - (توبة فتى شاب وجارية جميلة أحب كل منهما الأخر)

أخبرنا أبو الحسين عبد الحقّ بن عبد الخالق بن أحمد بن عبد القادر بن يوسف، أنا أبو الحسين علىّ بن محمّد بن العلاَّف ، أنا أبو القاسم عبد الملك بن محمّد بن بشران الواعظ ، ثنا أبو العبّاس أحمد بن إبراهيم بن علىّ الكندّى ، أنا أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل السامرىّ ، أنا أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد عن ابن أبى كامل ، عن اسحاق بن إبراهيم ، عن رجاء بن عمر النخعىّ ، قال :

كان بالكوفة فتى جميلُ الوجه ، شديدُ التعبُّد والاجتهاد ، وكان أحدَ الزهَّاد ، فنزل فى جوار قوم من النخع ، فنظر إلى جارية منهم جميلة ، فهويها وهام بها عقله، ونزل بها مثل الذى نزل به . فأرسل يخطبها من أبيها ، فأخبره أبوها أنها مسماة لابن عمّ لها . واشتدّ عليهما ما يقاسيان من ألم الهوى ، فأرسلت إليه الجارية: قد بلغنى شدة محبتّك لى ، وقد اشتد بلائى بك لذلك ، مع وجدى بك . فإن شئت زرتك وإن شئت سهلت لك أن تأتينى إلى منزلى . فقال للرسول : لا واحدة من هاتين الخصلتين ؛﴿ إنى أخـــــاف إنْ عصيت ربى عذابَ يوم عظيم ﴾ (الزمر: ١٣) ، أخاف نارًا لا يخبو سعيرها ولا يخمد لهبها فلما انصرفَ الرسول

---

(١) لَمَحَ : البصر : امتدَّ إلى الشىء . - : إليه : أبصَرهُ بنظر خفيف . و - : الشىء ببصره : صوبه إليه فهو لامِحٌ ولَمَّاح . واللمحة : الفطرة العجلى . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٥٦٤) .

(٢) دَهَاهُ : دهيًا : أصابه بداهية . ويقال : ما دهاك : ما أصابك . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٢٣٦ - ٢٣٧) .

إليها فأبلغها ما قال ، قالت وأراه مع هذا زاهدًا يخاف الله تعالى ؟! والله ما أحدٌ أحق بهذا من أحد ؛ وإنَّ العِبَاد فيه لَمُشتركونَ (١) ثم انخلعت من الدنيا ، وألقت علائقها خلف ظهرها ، ولبست المسوح ، وجعلتْ تعبد ، وهي مع ذلك تذوب وتنحل حبًّا للفتى وأسفًا عليه ، حتى ماتت شوقًا إليه . فكان الفتى يأتي قبرها . فرآها في منامه وكأنّها في أحسن منظر ، فقال : كيف أنتِ ، وما لقيت بعدي ؟ فقالت :

نعْمَ المَحبَّةُ يا حبيبي حُبكما
حُبٌ يقُودُ إلى خيْرٍ وإحسانِ

فقال على ذلك : إلى ما صرتِ ؟ فقالت :

إلى نعيمٍ وعيْشٍ لا زوال له
في جَنَّةِ الخلد ملكٌ ليس بالفَاني

فقال لها : اذكريني هناك فإني لست أنساكِ . فقالت : ولا أنا والله أنساكَ ، ولقد سألتك ربي ، مولاي ومولاك ، فأعانني على ذلك بالاجتهاد . ثم ولّتْ مدبرة، فقلت لها : متى أراكِ ؟ قالت : ستأتينا عن قريب ، فلم يعش الفتى بعد الرؤيا إلاّ سبع ليال حتى مات ، رحمهما الله .

* * *

١١٠ - (توبة رجل عن الشراب والعود بسماع آيات من القرآن)

أنبأنا الشيخ أبو الفرج ، أنا الحافظ أبو الفضل بن ناصر ، أنا محمد ابنْ أبي نصر الحميديّ ، قال : أنا محمد بن سلامة القضاعيّ ، قال : أنا محمد بن أحمد

---

(١) وهذا هو ما أمر به الشرع فيجب أن نتصدى لهؤلاء المنحرفين من النساء أو الرجال بدين الله القويم . ويقول ﷺ « لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له » الحديث صحيح : رواه الطبراني وصححه الألباني وراجع صحيح الجامع برقم (٥٠٤٥) وفي الصحيحة برقم (٢٢٦) .

وأقل هذه الأمور المصافحة فلا تجوز لغير المحـــارم التي نراها قد شاعت في البلاد والعباد . ومن حديث عائشة « ولا والله ما مست يده ﷺ امرأة قط في المبايعة ... » رواه البخاري (٨ / ٤٨٩١) ، ومسـلم (٣/ ١٤٨٩ (١٨٦٦) وأبو داود (٣ / ٢٩٤١) والترمذي (٩ / ٣٣٦١) وابن ماجة (٢ / ٢٨٧٥) وغيرهم .

الكاتب قال : أنا أبو مسلم ، قال : أنا محمد بن الحسين بن دريد قال : أخبرنا الحسن بن خضر ، أخبرنى رجل من أهل بغداد عن أبى هاشم المذكِّر ، قال :

أردتُ البصرة ، فجئت إلى سفينة أكتريها ، وفيها رجل ومعه جارية ، فقال الرجل : ليس هاهنا موضع . فسألته الجارية أن يحملنى فحملنى . فلما سرنا دعا الرجل بالغداء فوُضع ، فقال : أنزلوا ذلك المسكين ليتغدىّ فأنزِلتُ على أنى مسكين. فلما تغدّينا ، قال : يا جارية ! هاتى شرابك . فشرب وأمرها أن تسقينى ، فقلتُ : رحمك الله ! إن للضيف حقًّا ، فتركنى ؛ فلما دبّ فيه النبيذ ، قال : يا جارية ! هاتى العود وهاتى ما عندك . فأخذت العود وغنت تقول :

وَكُنَّا كغُصْنى بانة ليسَ واحدٌ
يزولُ على الخُلاَّن عن رأى واحِدِ
تبدَّلَ بى خِلاً فخَاللتُ غيرَهُ
وَخَلَّيتُهُ لما أرادَ تَباعُدى
فَلوْ أن كفّى لم تردْنى أبَنْتُها
ولم يصْطَحبْها بعدَ ذلكَ ساعدِى
ألا قَبَح الرَّحمنُ كلَّ مُمَاذق
يكُونُ أخًا فى الخَفضِ لا فى الشدائد

ثم التفت إلىّ فقال : أتحسن مثل هذا ؟ فقلت : أحسنُ خيراً منه . فقرأتُ : ﴿ إذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ، وَإذا النجُومُ انكدَرَتْ ، وإذَا الجبالُ سُيِّرَتْ ﴾ . (التكوير : ١ - ٣) فجعل الشيخ يبكى ، فلما انتهيتُ إلى قوله : ﴿ وإذَا الصُّحُفُ نُشرَتْ ﴾ (التكوير : ١٠) قال الشيخ : يا جارية ! اذهبى ! فأنت حرة لوجه الله تعالى . وألقى ما معه من الشراب فى الماء وكسر العود . ثم دنا إلىّ فاعتنقنى وقال : يا أخى! أترى الله يقبل توبتى ؟ فقلت : ﴿ إنَّ اللهُ يحِبُّ التَّوابينَ ويُحبُّ المتطهرينَ ﴾ (البقرة : ٢٢٢) .

قال : فواخيتُه بعد ذلك أربعين سنة حتى مات قبلى . فرأيتُه فى المنام ، فقلت له : إلى من صرتَ ؟ قال : إلى الجنة . قلت : بم صرت إلى الجنة ؟ قال : بقراءتك علىّ : ﴿ وَإذا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ (التكوير : ١٠) .

١١١ - (توبة شيخ مهلبى وجاريته عن الشراب والضرب بالعود)

أخبرنا الإمام الحافظ أبو موسى محمد بن أبى بكر بن أبى عيسى المدينى [١] إجارة ، قال : أنا أبو الفتح عبد الرزاق بن محمد الشرابىّ ، قال : أنا سعيد بن محمد بن سعيد الولّى ، أنا على بن أحمد الواقدىّ ، أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى ، قال : أخبرنى أبو محمد عبد الرحمن بن محمد الغازى ، قال : أخبرنى أبو محمد عبد الله بن محمد الأصبهانى ثنا الحسن بن محمد البلخى ، ثنا أحمد بن الليث ، ثنا عمر بن محمد ، ثنا أبو عياش الخولانى قال : حدثنى صالح بن عبد الله الخزاز ، حدثنى إسماعيل بن عبد الله الخزاعى ، قال :

قدم رجل من المهالبة من البصرة أيام البرامكة فى حوائج له ، فلما فرغ منها انحدر إلى البصرة ومعه غلام له وجارية . فلما صار فى دجلة إذا بفتى على ساحل دجلة ، عليه جبة صوف وبيده عكازة ومزود ، قال : فسأل الملاحَ أن يحمله إلى البصرة ويأخذ منه الكراء . قال : فأشرف الشيخ المهلبى ؛ فلما رآه رق له ، فقال للملاح : قرب واحمله معك على الظلال ، فحمله . فلما كان فى وقت الغداء دعا الشيخ بالسفرة ، وقال للملاح : قل للفتى ينزل إلينا ، فأبى عليه ؛ فلم يزل يطلب إليه حتى نزل . فأكلوا ، حتى إذا فرغوا ذهب الفتى ليقوم ، فمنعه الشيخ حتى توضؤوا ؛ ثم دعا بزكرة فيها شراب ، فشرب قدحًا ، ثم سقى الجارية ، ثم عرض على الفتى . فأبى وقال : أحب أن تعفينى . قال : قد أعفيناك ، اجلس معنا ، وسقى الجارية ، وقال : هاتى ما عندك ، فأخرجت عودًا لها فى كيس ، فهيأته وأصلحته ، ثم أخذت فغنت : فقال : يا فتى ! تحسن مثل هذا ؟ قال : أحسن ما هو أحسن من هذا . فافتتح الفتى : ﴿ بسمِ الله الرحمن الرحيم ﴾ ؛ ﴿ قل متاعُ الدُّنيا

---

(١) هو : محمد بن عمر بن محمد الأصبهانى الحافظ الموسوى المدينى . الحافظ : أبو موسى المدينىَ . أحد حفاظ الدنيا الرحالين الجوالين له مصنفات عديدة وشرح أحاديث كثيرة توفى (٥٨١ هـ) . وهناك ابن المدينى الآخر : على بن عبد الله بن جعفر السعدى مولاهم الحسن البصرى. كان أحد حفاظ الحديث وأكثر الناس معرفة فى العلل . راجع ترجمة الأول : فى البداية والنهاية (١٢ / ٨٥٠) . وانظر ترجمة الآخر : تاريخ بغداد (١١ / ٤٥٨) وطبقات الحفاظ (ص ١٨٧) وتذكرة الحفاظ (٢ / ٤٢٨) والعبر (١ / ٤١٨) والرسالة (١٢٧) .

قليلٌ والآخرة خيرٌ لمن اتقى ولا تُظلمونَ فتيلاً . أين ما تكونوا يدرككُم الموت ولَو كنتُم فى بروج مشيَّدة ﴾ . (النساء : ٧٧ ، ٧٨) وكان الفتى حسن الصوت . قال: فرجّ الشيخ بالقدح فى الماء ، وقال : أشهد أن هذا أحسن مما سمعت ! فهل غير هذا؟ قال : نعم ، ﴿ وقُل الحقُّ من ربكُم فمن شاء فليُؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثُوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشَّراب وساءت مرتفقا ﴾ (الكهف : ٢٩) قال : فوقعت من قلب الشيخ موقعًا . قال : فأمر بالزكرة فرمى بها وأخذ العود فكسره . ثم قال : يا فتى ! هل هاهنا فرج ؟ قال : نعم ،﴿ قل يا عبادىَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ (الزمر : ٥٣) قال : فصاح الشيخ صيحة خرّ مغشيًا عليه . فنظروا فإذا الشيخ قد ذاق الموت ، وقد قاربوا « البصرة » . قال : فضج القوم بالصُّراخ واجتمع الناس - وكان رجلاً من المهالبة معروفًا - فحمل إلى منزله ، فما رأيت جنازة كانت أكثر جمعًا منها . قال : فبلغنى أنّ الجارية المغنية تدرّعت الشَّعر ، وفوق الشعر جبّة صوف ، وجعلت تقوم الليل وتصوم النهار . فمكثت بعده أربعين ليلة . ثم مرت بهذه الآية فى بعض الليالى : ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقًا﴾ (الكهف : ٢٩) قال : فأصبحوا ، فأصابوها ميّتة .

* * *

١١٢ - (توبة اعرابى لسماع آية من القرآن)

قال الثعلبى (١) : وحدثنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن بن جعفر المذكِّر ، ثنا الحاكم أبو محمد يحيى بن منصور ، ثنا أبو رجاء محمد بن أحمد القاضى، ثنا أبو الفضل العباس بن أبى الفرج الرياشى قال: سمعت الأصمعى يقول :

أقبلتُ ذات يوم من المسجد الجامع بالبصرة . فبينا أنا فى بعض سِككها ، إذ

---

(١) وهو : أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعالبى ، ويقال : الثعلبى : أيضًا وهو لقب. وليس بنسبة ، النيسابورى المفسر المشهور . له التفسير الكبير ، وله « كتاب العرائس فى قصص الأنبياء » وفيه كثير من الإسرائيليات التى لا تقبل ولا دليل لها . توفى رحمه الله سبع وعشرين وأربعمائة . وراجع البداية والنهاية (١٢ / ٤٠٥) ط . دار الغد العربى .

طلع أعرابى جلفٌ جاف على قَعود له متقلّد سيفه وبيده قوس ، فدنا وسلم وقال لى: ممن الرجل ؟ قلت : من بنى الأصمع ، قال : أنت الأصمعى ؟ قلت : نعم . قال : ومن أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يُتلى فيه كلام الرحمن . قال : وللرحمن كلام يتلوه الآدميون ! قلت : نعم . قال : اتلُ علىّ شيئًا منه . فقلتُ له: انزل عن قَعودك . فنزل ؛ وابتدأ بسورة الذاريات . فلما انتهيت إلى قوله تعالى : ﴿وفى السماء رزقكم وما توعدون﴾ (الذاريات : ٢٢) ، قال : يا أصمعى ! هذا كلام الرحمن ؟ قلت : إى والذى بعث محمدً بالحق إنه لكلامه أنزله على نبيه محمد ﷺ ! فقال لى : حسبك ! ثم قام إلى ناقته فنحرها وقطعها بجلدها ، وقال: أعنّى على تفريقها . ففرقناها على من أقبل وأدبر . ثم عمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وجعلهما تحت الرَّحل . وولى مُدبرًا نحو البادية وهو يقول : « وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾ (الذاريات : ٢٢) . فأقبلتُ على نفسى باللوم ، وقلت : لم تنتبه لما انتبه له الأعرابى، فلما حججت مع الرشيد دخلت مكة ، فبينا أنا أطوف بالكعبة ، إذ هتف بى هاتف بصوت دقيق . فالتفتُّ فإذا أنا بالأعرابى نحيلاً مصفارًا فسلم علىّ وأخذ بيدى وأجلسنى من وراء المقام ، وقال لى : اتل كلام الرحمن ؛ فأخذت فى سورة (الذاريات) . فلما انتهيت إلى قوله تعالى : ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾ (الذاريات : ٢٢) ، صاح الأعرابى : وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقًا . ثم قال : وهل غير هذا ؟ قلت : نعم ، يقول الله عز وجلّ ﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ (الذاريات : ٢٣) . فصاح الأعرابى وقال: يا سبحان الله ! من الذى أغضب الجليل حتى حلف ؟! ألم يصدّقوه حتى ألجؤوه إلى اليمن ؟ قالها ثلاثًا ، وخرجت فيها روحه .

* * *

١١٣ - (توبة امير من امراء الأعراب بسبب الصوم)

وحكى عن ابن سمعون قال : سمعت الشبلى (١) يقول : كنتُ فى قافلة

(١)يقول العلامة ابن كثير هو : دلق ابن جعفر : ويُقال : دلف بن جحدر ، واختلفوا فى اسمه وهو أحد مشايخ الصوفية . وهو من قرية يُقال لها ، شبلة من بلاد اشدوسية من خراسان ، وولد بسامرًا ، كانت توبته على يدى خير النساج سمعه يعظ فوقع فى قلبه ، قال الجنيد : الشبلى تاج هؤلاء ، ولقد كان ممن إشتبه عليه أمر الحلاج . توفى ليلة الجمعة سنة ٣٣٤ هـ وله من العمر سبع وثمانون سنة ودفن فى الخيزران ببغداد . وراجع البداية والنهاية (١١ / ٢٧٧ - ٢٧٨) .

بالشام، فخرج الأعراب فأخذوها وجعلوا يعرضونها على أميرهم . فخرج جِراب فيه سكَّر ولوز ، فأكلوا منه والأمير لا يأكل ، فقلت له : لم لا تأكل ؟ فقال : أنا صائم. فقلتُ : تقطع الطريق ، وتأخذ الأموال ، وتقتل النفس ، وأنت صائم ؟ فقال : يا شيخ ! أجعلُ للصلح موضعًا . فلما كان بعد حين رأيتُه يطوف حول البيت وهو محرم كالشَّنِّ البالى . فقلت : أنت ذاك الرجل ؟ فقال : ذاك الصوم بلغ بى هذا المقام .

* * *

١١٤ - (توبة لبيب العابد عن قتل الحيات)

وذكر القاضى أبو على التنوخي ، قال : كان ينزل بباب الشام من الجانب الغربى ببغداد رجل مشهور بالزهد والعبادة يُقال له : لبيب العابد . وكان الناس ينتابونه . فحدثنى لبيب ، قال :.كنت مملوكًا روميًا لبعض الجند ، فربانى وعلمنى العمل بالسلاح ، فصرت رجلاً ، ومات مولاى بعد أن أعتقنى ، فتوصلتُ إلى أن جعلتُ رزقه لى ،وتزوجت امرأته . وقد علم الله تعالى أنى لم أرد بذلك إلا صيانتها وأقمت معها مدة . فاتفق أنى رأيت يومًا حية داخلة إلى جحرها .

فأمسكت ذَنَبها لأقتلها ، فوثبت علىّ فنهشت يدى فشَلَّت ، ومضى زمن طويل على هذا فشلت يدى الأخرى بغير سبب أعرفه ، ثم جَفَّتْ رجلاى ، ثم عميتُ ثم خَرِسْتُ . فكنت على هذا الحال سنةً كاملةً ؛ لم يبق لى جارحة صحيحة إلا سمعى أسمع به ما أكره ؛ وأنا طريح على ظهرى لا أقدر على كلام ولا إيماء ولا حركة ؛ أُسقى وأنا ريَّان ، وأترك وأنا عطشان ، وأطعم وأنا شبعان ، وأمنع وأنا جائع . فلما كان بعد سنة دخلت امرأة على زوجتي ، فقالت : كيف أبو على لبيب ؟ فقالت لها زوجى : لا حىّ فيرجى ولا ميّت فيُسلى ، فأقلقنى ذلك وآلم قلبى ألمًا شديدًا ، فبكَيْت وضججت إلى الله تعالى فى سرى ودعوت ، وكنت فى جميع تلك العلل لا أجد ألمًا فى نفسى (١) فلما كان فى بقية ذلك اليوم ضرب على جسدى ضَرَبانًا شديدًا

(١)ومن المعلوم ان الإبتلاء يزيل السيئة وخبث الأعمال ، وبعضنا يظن الظن السوء فى المبتلي وهذا باطل حديث يقول ﷺ «إن الله إذا أحب قومًا إبتلاهم ..»الحديث صحيح: رواه أحمد وصححه الألبانى وراجع صحيح الجامع برقم(١٧٠٦)وفى الصحيحة برقم(١٤٦) . وأيوب عليه السلام خير دليل على ذلك فيقول تعالى « واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربَّه أنى =

كاد يتلفنى ، ولم يزل على ذلك إلي أن دخل الليل وانتصف ، أو جار فسكن الألم قليلاً ، فنمت ، فما أحسست إلا وقد انتبهت وقت السحر وإحدى يدىّ على صدرى، وقد كانت طول السنة مطروحة على الفراش لا تنشال ، أو تُشال . فحركتُها فتحرّكت ، ففرحت فرحًا شديدًا ، وقوى طمعى فى تفضل الله بالعافية ، فحركت الأخرى فتحركت ، فقبضت إحدىٰ رجلى فانقبضت ، فرددتها فرجعت ؛ وفعلت بالأخرى مثل ذلك ، فرُمت الانقلاب ، فانقلبت وجلست ؛ ورمت القيام فقمت ، ونزلت عن السرير الذى كنت مطروحًا عليه ، وكان فى بيت من الدار ، فمشيت ألتمس الحائط فى الظلمة إلي أن وقعت يدى على الباب ، وأنا لا أطمع فى بصرى . فخرجت إلى صحن الدار ، فرأيت السماء والكواكب تزهر ، فكدت أموت فرحًا ، وانطلق لسانى بأن قلت : يا قديم الإحسان ! لك الحمد . ثم صحت بزوجتى ، فقالت : أبو على ؟ فقلت : الساعةَ صرت أبا على ! اسرجى ! فأسرجت ؛ فقلت : جيئينى بمقراض ، فجاءت به ، فقصصت شاربًا كان لى على زىّ الجند : فقالت لى زوجتى : ما تصنع ؟ الآن يعيبك رفقاؤك ! فقلت : بعد هذا لا أخدم أحدًا غير ربى . فانقطعت إلى الله - عزّ وجلّ - وخرجت من الدار ولزمت عبادة ربى . قال : وكانت هذه الكلمة : « يا قديم الإحسان لك الحمد » ، قد صارت عادته يقولها فى حشو كلامه . وكان يُقال : إنه مجاب الدعوة .

* * *

١١٥ - (توبة المعتصم ورجوعه عن قتل تميم بن جميل)

قال : ووجدتُ فى بعض الكتب : قال أحمد بن أبى دُوَاد ما رأيت رجلاً قط أشرف على الموت ؛ فما شغله ولا أذهله عما يريد حتى بلغَّه وخلصه الله - عز وجل- إلا تميم بن جميل ، فإنى رأيتُه بين يدى المعتصم وقد بُسط له النِّطع وانتُضى

= مسَّنى الشيطان بنصب وَعَذاب » وليس هذا بمعنى المس : أى دخول الجنى الجسد فهذا يُستحال على الأنبياء . ويقول ابن كثير عن فتنة سليمان : فإن المشهور عن مجاهد وغير واحد من الأئمة أن ذلك الجنى لم يسلط على نساء سليمان بل عصمهن الله عز وجل منه تشريفًا وتكريمًا ا هـ . فإذا كان بالنسبة إلى نساء الأنبياء فما بالك بالأنبياء . وفى بعض القصص : يقولون إن أيوب حينما ألقى فى المزابل ظهر على جسده الدود . قلنا : أن الأشياء المنفرة لا تجوز فى حق الأنبياء وهذه عقيدة أهل السنة . أنظر تفسير ابن كثير (٤ / ٤٨) .

له السيف وكان رجلاً جسيمًا وسيمًا (١) فأحب المعتصم أن يستنطقه لينظر أين منظره من مخبره ، فقال له : تكلّم ! فقال : أما إذ أذن أمير المؤمنين ، فالحمد لله ﴿ الذى أحسنَ كل شىء خلقه وبدأ خلقَ الإنسان من طينٍ . ثم جعلَ نسلَهُ منْ سُلالة منْ ماء مهين ﴾ (السجدة : ٧ ، ٨) يا أمير المؤمنين ! جبر الله بك صدع الدين ، ولَّم بكَ شعث المسلمين ، إن الذنوب تخرس الألسنة وتخلع الأفئدة ؛ وايم الله ! لقد عَظُمت الجريرة وانقطعت الحجة ، وساء الظنّ ، ولم يبقَ إلا عفوك أو انتقامك ثم أنشأ يقول:

أرى الموتَ بين السَّيف والنِّطع كامنًا
يلاحظنى منْ حيثُ ما أتلفتُ
وَأكبَرُ ظنى أنكَ اليومُ قاتلى
وأىُّ امرئٍ مِمَّا قضى اللهُ يفلتُ
وَأىُّ امرىءٍ يُدْلى بعذر وحجَّة
وَسَيفُ المنايا بينَ عينيه مُصْلَتُ
وما جزَعى من أن أموتَ فإنَّنى
لأعْلَم أنَّ الموت شىءٌ مُؤقَّتُ

---

(١) ويجب أن يكون موقف العالم أمام أى حاكم كالجبل الأشم الذى لا يخشى فى الله لومة لائم ، ويدور مع الحق آنادار وكان ابن تيمية يقول : ماذا يريد أعدائى منى فسجنى خلوة مع الله ، مطردى من بلدى سياحة فى أرض الله ، وقتلى شهادة فى سبيل الله » وفى الحديث «واعلم أن الأمة لو إجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعـــوك إلا بشـــىء قد كتبهُ اللهُ لك . . .» الحديث صحيح : رواه أحمد (١ / ٢٩٣) والترمذى (٤ / ٢٥١٦) وأبو يعلى (٤ / ٢٥٥٦) والبيهقى (١٦٥) وصححه الألبانى . وراجع صحيح الجامع (٧٩٥٧) وفى المشكاة (٥٣٠٢) وجاء بلفظ آخر « إحفظ الله تجده أمامك تعرَّف إلى الله فى الرخاء . . . » رواه الطبرانى (١١ / ١٢٤٣) والبيهقى (٧٣) والحاكم وصححه وخالفه الذهبى بقوله : عيسى ابن محمد القرشى ليس بمعتمد (٣ / ٥٤٢) وصححه الرباح والدقاق وقالا : إسناده صحيح . وراجع الرياض برقم (٦٢) (ص ٤٨) .

ولكنَّ خلفى صِبْيَةٌ قدْ تركتُهمْ
وأكْبادُهمْ من حرِّها تَتَفتَّتُ

فإن عشت عاشوا سالمين بغبطة
أذُودُ العدى عنهم وإن متَّ موِّتُوا

كأنى أراهم حين أُنعى إليهمُ
وقد لطموا تلك الخدود وصوَّتوا

قال : فاستعبر المعتصم ، ثم قال : يا تميم ! قد عفوتُ عن الهفوة ، ووهبتُك للصِّبية . ثم أمر به ففكّ حديده وخلع عليه وعُقد له على سقى الفرات .

* * *

١١٦ - (توبة لص من اللصوص عن التعرض للناس)

أنبأنا الإمام أبو طاهر أحمد بن محمد السِّلَفى ، أنا أبو الحسين بن الطيورى ، أنا أبو القاسم عبد العزيز بن علىّ بن أحمد بن الفضل ، أنا أبو الحسن علىّ بن عبد الله بن الحسين بن جهضم ، ثنا حبيب ، ثنا الفضل بن أحمد ، ثنا محمد بن مرزوق قال : حدثنى أبى قال : حدثتنى أمة الملك بنت هشام بن حسان ، قالت :

خرج عطاء الأزرق إلى الجبان [1] يصلى بالليل ، فعرض له لص ؛ فقال : اللهمّ اكفنيه . قال : فجفت يداه ورجلاه . قال : فجعل يبكى ويصيح : والله لا أعود أبدًا ! قال : فدعا الله له فأطلق . قال : فاتّبعه اللص ، فقال له : أسألك بالله من أنت ؟ قال : أنا عطاء ، فلما أصبح ، سأل : تعرفون رجلاً صالحًا يخرج بالليل إلى الجبَّان يصلي ؟ قالوا : نعم ، عطاء السُّلمىّ . قال : فذهب إلى عطاء السُّلمى إلى الخربة فدخل عليه ، وقال : إنى جئتك تائبًا من قصّتى كذا وكذا ، فادعُ الله لى، قال : فرفع عطاء السّلمىّ يديه إلى السماء ، وجعل يبكى ويقول : ويحك ، ليس أنا! ذاك عطاء الأزرق .

* * *

---

(١) الجبَّانةُ : المقبرة . والجمع : جبابين . وقلنا أن الصلاة عند المقابر بدعة عظيمة ولقد تكلمنا عليها آنفًا ، وراجع المعجم الوجيز (ص / ٩٢) .

١١٧ - (توبة يوسف بن أسباط على يد شاب كان يعمل نباشًا)

أخبرنا عبد الله بن عبد الرحمن السلمى ، أنا أبو القاسم الحسينى ، أنا رشأ بن نظيف ، أنا الحسن بن إسماعيل ، أنا أبو بكر أحمد بن مروان ، ثنا عمرو بن حفص الشيبانيّ ، ثنا ابن خُبَيق ، ثنا أبى ، قال :

صحب يوسف بن أسباط فتى من أهل الجزيرة ؛ فلم يكلمه إلاّ بعد عشر سنين، وكان يوسف يرى من جزعه وفزعه وعبادته آناءَ الليل والنهار ، فقال له يوسف : ما كان عملك ؟ فإنى لا أراك تهدأ من البكاء . فقال له : كنت نبّاشًا . فقال له يوسف : فأىّ شىء كنت ترى إذا وصلت إلى اللحد [1] ؟ قال : كنت أرى أكثرهم قد حوّلوا وجوههم عن القبلة إلاّ قليلا . قال يوسف : إلا قليلا ! فاختلط يوسف على المكان ، وذهب عقله حتى كان يحتاج أن يُداوى .

قال ابن خبيق : قال أبى : دعونا سليمان الطبيب ليداوىَ يوسف ؛ وكان يرجع إليه عقله أحيانًا فيقول : إلا قليلا ! فلم يزل به حتى داواه وصحّ ، فلما فرغ وأراد أن يخرج سليمان الطبيب ، قال يوسف : أى شىء تعطونه ؟ قلنا : لا يريد منك شيئًا . قال : سبحان الله ! جئتم بطبيب الملوك ، ولا أعطيه شيئًا ؟ قلنا : أعطه دينارًا . فقال : خذ هذا فادفعه إليه ، وأعلمه أنى لا أملك غيره لئلا يتوهم أنى أقلّ مروءة من الملوك ، فدفع إليه صرّة فيها خمسة عشر دينارًا . قال : فأخذتُها فدفعتها إليه ، وجعل يوسف يعمل الخوص بيده حتى مات .

قال أحمد بن مروان : ثنا محمد بن أحمد ، ثنا ابن خُبيق ، ثنا الهيثم ابن جميل قال : حدّثنى حبيب قال : قال يوسف بن أسباط :

ورثت عن أبى ضياعًا بخمسمائة ألف بالكوفة . فجرى بينى وبين عمومتى كلام، فشاورت الحسن بن صالح ، فقال لى : ما أرى لك أن تخاصمهم ؛ إنها من أرض الخراج ، فتركتها لله - عز وجل - وأنا محتاج إلى فلس ، أو كما قال .

* * *

---

(١) تكلمنا آنفًا وقلنا أن هناك فرق بين اللحد والشق : اللحد : بفتح اللام والضم وسكون الحاء : هو الشق فى عرض القبر جانب القبلة . والشق : هو الضريح ، وهو الشق فى وسط القبر . وعضدنا ذلك بالأدلة .

١١٨ - (توبة نباشى عن نبش القبور)[١]

أنبأنا عبد الرحمن بن على الإمام ، قال : أنا إبراهيم بن دينار الفقيه ، أنا إسماعيل بن محمد بن ملة ، أنا عبد العزيز بن أحمد ، أنا عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيّان ، ثنا إبراهيم بن محمد بن الحسين ثنا[٢] أبو موسى الطرسوسى ، ثنا هارون بن زياد المصيصىّ ، ثنا أبو إسحاق الفزارى ، قال :

كان رجل يكثر الجلوس إلينا ونصفُ وجهه مغطى ، فقلت له : إنك تكثر الجلوس إلينا ونصف وجهك مغطى ، أطلعنى على هذا ؟ فقال : تعطينى الأمان ؟ قلت : نعم . قال : كنتُ نباشًا فدُفنت امرأة ، فأتيتُ قبرها ، فنبشت حتى وصلت إلى اللَّبِن . ثم رفعتُ اللَّبِن ، فضربت بيدى إلى الرِّداء ؛ ثم ضربت بيدى إلى اللفافة فمددتها . فجعلت تمدها هى ؛ فقلت : أتراها تغلبنى ؟ فجثيتُ على ركبتى ؛ فمددتُ ، فرفعتْ يدها فلطمتْنى ، وكشف وجهه فإذا أثر خمس أصابع في وجهه ، فقلت له : ثمّ مَه ؟ قال : ثم رددتُ عليها لفافتها وإزارها ، ثم رددتُ التراب ؛ وجعلتُ على نفسى أن لا أنبش ما عشتُ . قال : فكتبت بذلك إلى الأوزاعى[٣] . فكتب إلىّ الأوزاعى : ويحك ! سله عمن مات من أهل التوحيد ووجهه إلى القبلة،

---

(١) النباش : من يُفتش القبور عن الموتى ليسرق أكفانهم . نبش : استثاره ليستخرج ما فيه . ويُقال : نبش الحديث ، وعن الحديث : فتش عنه واستخرجه ، وراجع المعـــجم الوجيز (ص / ٦٠٠) .

(٢) ثنا : إختصار - حدثنا . ويستخدم لها إختصار آخر - نا - أو - دثنا . وهذا معلوم عند علماء الحديث حيث يُستخدم فى فن الحديث بعض الرموز . مثل : ق - : عند قال، أنا - أو - أرنا - أو - أبنا - : يرمز بهم عن أخبرنا . وغير ذلك .

(٣) وهو : عبد الرحمن بن عمرو بن محمد ، أبو عمرو الأوزاعى . والأوزاع : بطن من حميد ، وهو من أنفُسهم ، وقال محمد بن سعد : لم يكن من أنفسهم . قال مالك : كان الأوزاعى إمامًا يقتدى به . وتناظر الأوزاعى والثورى فى مسجد الخيف فى مسألة رفع اليدين فى الركوع والرفع منه . قال هقل بن زياد : أفتى الأوزاعى فى سبعين ألف مسألة بـ « حدثنا - أخبرنا » وقال ابن القطان : اجتمع عندى الأوزاعى والثورى وأبو حنيفة فقلت : أيهم أرجح : قال : الأوزاعى . واختلف فى سنة وفاته . ١٥٧ هـ ورجحه ابن كثير . أنظر البداية والنهاية (١٠ / ٦١١ - ٦١٢ - ٦١٣ - ٦١٤ - ٦١٥ - ٦١٦ - ٦١٧) وفى الميزان (٣ / ٢٩٤ برقم (٤٩٢٩) للذهبى . ط . دار الفكر . بيروت .

أحُوِّل وجهه أم ترك وجهه إلى القبلة ؟ قال : فجاءنى الكتاب ؛ فقلت له : أخبرنى عمن مات من أهل الإسلام ، أتُرك وجهه على ما كان ، أم ماذا ؟ فقال : أكثر ذلك حوِّل وجهه عن القبلة . فكتبتُ بذلك إلى الأوزاعى . فكتب إلىّ : إنا لله وإنا إليه راجعون ! - ثلاث مرّات - : أما من حول وجهه عن القبلة فإنه مات على غير السُّنَّة .

* * *

١١٩ - (توبة شاب مسرف على نفسه على يد إبراهيم بن أدهم)

وروى أن رجلاً جاء إلى إبراهيم بن أدهم ، فقال له : يا أبا إسحاق ! إنى مسرف على نفسى ، فاعرض علىّ ما يكون لها زاجرًا ومستنقذًا لقلبى . قال : إن قبلتَ خمس خصال وقدرت عليها لم تضرك معصية ، ولم توبقك لذّة . قال : هات يا أبا اسحاق !

قال : أما الأولى ، فإذا أردتَ أن تعصَى الله عزَّ وجل فلا تأكل رزقه . قال : فمن أين آكل وكلّ ما فى الأرض من رزقه ؟ قال له : يا هذا ! أفيحسن أن تأكل رزقه وتعصيَه ؟ قال : لا ؛ هات الثانية !

قال : وإذا أردت أن تعصيَه فلا تسكن شيئًا من بلاده . قال الرجل : هذه أعظم من الأولى ! يا هذا ! إذا كان المشرق والمغرب وما بينهما له ، فأين أسكن ؟ قال : يا هذا ! أفيحسنُ أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه ؟ قال : لا ؛ هات الثالثة!

قال : إذا أردت أن تعصيه ، وأنت تحت رزقه وفى بلاده ، فانظر موضعًا لا يراك فيه مبارزًا له فاعصه فيه . قال : يا إبراهيم ! كيف هذا وهو مطّلع على ما فى السرائر ؟ قال : يا هذا ! أفيحسن أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه وهو يراك ويرى ما تجاهره به ؟! قال : لا ؛ هات الرابعة !

قال : إذا جاءك ملَك الموت ليقبض روحك فقل له : أخِّرنى حتى أتوب توبة نصوحًا وأعمل لله عملاً صالحًا . قال : لا يقبل منى ! قال : يا هذا ! فأنت إذا لم تقدر أن تدفع عنك الموت لتتوب ، وتعلم أنه إذا جاء لم يكن له تأخير ، فكيف ترجو وجه الخلاص ؟ قال : هات الخامسة !

قال : إذا جاءتك الزبانية يوم القيامة ليأخذوك إلى النار فلا تذهب معهم . قال: لا يدَعوننى ولا يقبلون منى . قال : فكيف ترجو النجاة إذًا ؟ قال له : يا إبراهيم ! حسبى حسبى ! أنا أستغفر الله وأتوب إليه . ولزمه فى العبادة حتى فرق الموت بينهما .

* * *

١٢٠ - (توبة صاحب مقثأة على يد شاب دمشقى)

أنبأنا الحافظ أبو طاهر السِّلفىّ إجازةً ، أنا أبو الحسين بن الطيورىّ ، أنا مسعود بن ناصر السجستانى ، أنا أبو حازم عمر بن أحمد العدوى أنا على بن عبد الله بن جهضم ، أنا أبو الطيب محمد بن جعفر ، ثنا يحيى بن الحسن الرازى ، ثنا معروف الكرخى قال :

رأيت فى البادية شابًا حسن الوجه له ذؤابتان [١] حسنتان ، وعلى رأسه رداء قصب ، وعليه قميص كتان ، وفى رجليه نعل طاق ، قال معروف : فتعجبت منه فى مثل ذلك المكان ، ومن زيه . فقلت : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ! فقال : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا عمّ ! فقلت : الفتى من أين ؟ قال : من مدينة دمشق . قلت : متى خرجت منها ؟ قال : ضحوة النهار . قال معروف : فتعجبت، وكان بينه وبين الموضع الذى رأيته فيه مراحل كثيرة . فقلت له : وأين المقصد ؟ قال: مكة . فعلمت أنه محمول ، فودعته ومضى ، ولم أره حتى مضت ثلاث سنين. فلما كان ذاتَ يوم وأنا جالس فى منزلى أتفكر فى أمره وما كان منه ، إذا بإنسان يدقّ الباب ، فخرجت إليه ، فإذا بصاحبى فسلمت عليه وقلت : مرحبًا وأهلاً! فأدخلته المنزل فرأيته منقطعًا والهًا تالفًا ، عليه زُرْ مانقة [٢] ، حافيًا حاسرًا . فقلت : هيه ! أيش [٣] الخبر ؟ قال : يا أستاذ ! لاطفنى حتى أدخلنى الشبكة فرمانى؛ فمرةً يلاطفنى ، ومرة يهددنى ، ويجيعنى مرّة ، ويكرمنى أخرى ، فليته أوقفنى على بعض أسرار أوليائه ، ثمّ ليفعل بى ما يشاء !

---

(١) الذؤابة : شعر مقدم الرأس . ومن كل شىء أعلاه . والجمع . ذوائب . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٢٤٢ .

(٢) الزُّرمانقة : أى جُبَّة من صوف .

(٣) أيش : أى شىء . يقال : أيش هذا ؟ وراجع المعجم الوجيز (ص / ٣١) .

قال معروف : فأبكاني كلامه ، فقلت له : فحدّثني ببعض ما جرى عليك منذ فارقتني . قال : هيهاتَ أن أبدَيه وهو يريد أن يخفيه ! ولكن بديًّا ما فعل بى فى طريقى إليك يا مولاى وسيّدى ، ثم استفرغه البكاء . فقلت : وما فعل بك ؟ قال : جوّعنى ثلاثين يومًا ؛ ثم دخلت إلى قرية فيها مقثأة[1] ، وقد نُبذ منها المدوَّد وطرح ، فقعدت آكل منه . فبصُرَ بى صاحب المقثأة ، فأقبل إلىّ يضرب ظهرى وبطنى ، ويقول : يا لصّ ! ما خرَّب مقثأتى غيرك ! منذُ كمْ أنا أرصدك حتى وقعت عليك ! فبينا هو يضربنى إذ أقبل فارس نحوه مسرعًا ، وقلب السوط فى رأسه ، وقال : تعمد إلى ولىّ من أولياء الله تعالى تقول له : يا لصّ ؟ فأخذ صاحب المقثأة بيدى فذهب بى إلى منزله ، فما بقى من الكرامة شيئًا إلا عمله بى ؛ واستحلنى وجعل مقثأته لله ولأصحاب معروف ، فقلت له : صف لى معروفاً ، فوصفك لى ، فعرفتك بما كنت شاهدتُه من صفتك .

قال معروف : فما استتمّ كلامه حتى دقّ صاحب المقثأة الباب ودخل ، وكان موسرًا ، فأخرج جميع ماله ، وأنفقه على الفقراء ، وصحب الشابّ سنة ، وخرجا إلى الحج ، فماتا فى « الرَّبذَة » رحمة الله عليهما .

* * *

١٢١ - (توبة عاص فى جوف الليل وموته لسماع آية من القرآن فيها ذكر النار)

أخبرنا محمد ، أنا حمد ، ثنا إبراهيم بن عبد الله قال : حدثنى محمد بن إسحاق الثقفى ، حدثنى أحمـــد بن موسى الأنصارى ، عن منصور بن عمّار ، قال : حججتُ حجةً ، فنزلتُ سكّة من سكك الكوفة . فخرجت فى ليلة مظلمة ، فإذا بصارخ يصرخ فى جوف الليل وهو يقول : إلهى ! وعزّتك وجلالك ما أردت بمعصيتى مخالفتك ، وقد عصيتك إذ عصيتك وما أنا بنكالك جاهل [2] ، ولكنْ

---

(١) المقثأة : موضعُ القثاء يُزرع فيه وينبت . والقثاء : اسم جنس لما يُسمى بمصر : الخيار ، والعجور والمفقوس . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٤٩٠) .

(٢) النَّكال : العقاب والنازلة . والنَّكلُ : القبر . والجمع . أنكال . وفى القرآن الكريم « إنّ لدينا أنكالاً وجحيمًا » وراجع المعجم الوجيز (ص / ٦٣٤) .

خطيئةٌ عرضتْ لى أعاننى عليها شقائى وغرَّنى سترك المرخى علىّ ، وقد عصيتك بجهدى وخالفتك بجهلى ، ولك الحُجّة علىّ ؛ فالآن من عذابك من يستنقذنى ؟ وبحبل من أتصل إذا قطعتَ حبلك منى ؟ واشباباه ! واشباباه ! قال : فلمَّا فرغ من قوله تلوتُ آية من كتاب الله : ﴿ ناراً وَقُودُها النَّاسُ والحجارَةُ عليها ملائكَةٌ غلاظٌ شدَادٌ ﴾ (التحريم : ٦) ... الآية . فسمعتُ حركةً شديدة ، ثمّ لم أسمع بعدها حسًّا ، فمضَيتُ . فلما كان من الغد رجعتُ فى مدرجتى [١] و إذا بجنازة قد وضعت ، وإذا بعجوز كبيرة ، فسألتها عن أمر الميت ، ولم تكن عرفتنى ، فقالت : هذا رجل لا جزاه الله إلا جزاءه ! مر بابنى البارحة ، وهو قائم يصلى ، فتلا آية من كتاب الله ؛ فلما سمعها ابنى تفطَّرت مرارته فوقع ميتًا .

* * *

١٢٢ - (توبة امرأة عن الغناء والعود وتوبة مولاها على يدها)

وجدت فى كتاب عن سرىّ السقطى أنه قال : ضاقت علىَّ نفسى يومًا ، فقلت فى نفسى : أخرج إلى المارستان [٢] ، وأنظر إلى المجانين فيه ، وأعتبر بأحوالهم . فخرجت إلى بعض المارستانات ، وإذا بامرأة مغلولة [٣] يدها إلى عنقها وعليها ثياب حسان وروائح عطرة ، وهى تنشد :

أُعيذُكَ أن تغُلَّ يــــدى　　بغير جريمــــــة سبَقت
تَغُلُّ يدى إلى عُنقى　　وَمَا خانتْ ولا ســـــرقت
وَبَيْنَ جَوانحى كبــــدٌ　　أُحسُّ بها قد احترقتْ
وحقّكَ يا مَدى أمَلى　　يمينًا برَّةً صَـــــدَقت
فلو قطَّعتهـــــا قِطَعًا　　وحقّك عنـــك لا نطقت

---

(١) المدْرَجَة : الطريق . ويقال هذا الأمر مُدْرَجة لذاك : يُتوصَّل به إليه . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٢٤٤) .

(٢) المارستان : المصحة أو المستشفى ، وراجع المعجم الوجيز (ص ٥٧٨) .

(٣) غَلَّ : فلان : خان فى المغنم وغيره . وفى القرآن الكريم « ومن يغلل يأت بما غَلَّ يوم القيامة » و - فلانًا غلاً : وضع فى يده أو عُنُقه الغُلَّ وفى القرآن « خذوه فغلوه » ، وراجع المعجم الوجيز (ص / ٤٥٣) .

فقلت لصاحب المارستان : ما هذه ؟ فقال : مملوكة خُبِل عقلها فحبست لتصلح . فلما سمعت كلامه أنشدت :

معشرَ الناسِ مَا جُنِنْتُ ولكنْ
أنا سكرانةٌ وقلبى صاح
لِمْ غَلَلتُم يدى ولم آت ذَنبًا
غير هتكى فى حُبِّه وافتضَاحى
أنا مفتونةٌ بحبٍّ حبيب
لستُ أبغى عن بابه من براح
فصلاحى الذى زعمتم فسادى
وفسادى الذى زعمتُم صلاحى
ما على من أحب مولى الموَالى
وارتضاهُ لنفسه مِنْ جُناح

قال سرىّ : فسمعت كلامًا أبكاني . فلما رأتْ دموعى قالت : يا سرىّ ! هذه دموعك على الصِّفَة ، فكيف لو عرفَته حقّ المعرفة ؟ فقلت : هذا أعجب ! من أين عرَفتنى ؟ قالت : ما جهلت منذ عرفت أن أهل الدَّرجات يعرف بعضهم بعضًا ، فقلت : يا جارية أراكِ تذكرين المحبة ، فلمن تُحبين ؟ قالت : لمن تعرَّف إلينا بآلائه ، وتحبَّب إلينا بنعمائه ، وجاد علينا بجزيل عطائه ؛ فهو قريب ، إلى القلوب مجيب ؛ تسمى بأسمائه الحسنى ، وأمرنا أن ندعوه بها ؛ فهو حكيم كريم ، قريب مجيب . قال : فقلت لها : فِيم حُبِست ؟ فقالت : قومى عابوا علىَّ ما سمعت منهم . فقلت لصاحب المارستان : أطلقها . ففعل ؛ فقلت : اذهبى حيث شئت . فقالت : إنَّ حبيب قلبى قد ملَّكنى لبعض مماليكه ، فإن رضى مالكى ، وإلا صبرت واحتسبت . فقلت : هذه والله أعقل منى ! فجاء مالكها ومعه ناس كثير ، فقال لصاحب المارستان : وأين بدعة ؟ فقال : دخل عليها سرى فأطلقها . فلما رآنى عظمنى ؛ فقلت : هى والله أولى بالتعظيم منى ! فما الذى تنكر منها؟ فقال : كثرة فكرتها ، وسرعة عبرتها[1] وزفرتها وحنينها ؛ فهى باكية راغبة ، لا تأكل مع من يأكل ، ولا تشرب مع

(١) العَبْرَةُ : الدمعة والجمع : عِبرٌ ، وعبرات . العِبرَةُ : الاتعاظ والاعتبار بما مضى . - العجب والجمع : عِبر . وراجع المعجم الوجيز (ص / ٤٠٤) .

من يشرب ؛ وهى بضاعتى اشتريتها بكل مالى - بعشرين ألف درهم - وأمَّلت أن أربح فيها مثل ثمنها · فقلت : وما كانت صنعتها ؟ قال : مطربة · قلت : ومنذكم كان بها هذا الداء ؟ فقال : منذ سنة · قلت : ما كان بدؤه ؟ قال : كان العود فى حجرها وهى تغنى وتقول :

وَحقِّكَ لا نقَضْتُ الدهر عَهدًا
وَلا كدَّرْتُ بعد الصفوِ وُدًّا
مَلأت جوانِحى والقلبَ وَجْدًا
فكيف أقرُّ أوْ أسلو وأهدَا
فيَا منْ ليسَ لى مولى سِوَاهُ
تُراكَ تركَتَنى فى النَّاسِ عبْدَا

قال : فكسرت العود وقامت وبكت · فاتهمتها بمحبَّة إنسان · فكشفتُ عن ذلك فلم أجد له أثرًا · قال : فقلت لها : هكذا كان ؟ فقالت :

خاطبنى الوعُظ من جَنانى وكانَ وعظى على لسانى
قرَّبنى منهُ بعدَ بُعْـــــد وخصَّنى الله واصطفَانى
أجبتُ لَّما دُعِيتُ طـــوعًا ملبيًّا للذى دَعـــــانى
وخِفْتُ مما جَنيتُ قِــدْمًا فوقعَ الحُب بالأمَـــانِ

قال : فقلت له : عليّ الثمن وأزيدك · قال : فصاح : وافقراه ! من أين لك ثمن هذه ؟ فقلت : لا تعجلْ عليّ ، تكون فى المارستان حتى آتى بثمنها ، ثم مضيت وعينى تدمع وقلبى يخشع · وبِتُّ ولم أطعم غمضًا ، ووالله ما عندى درهم من ثمنها · · وبقيت طول ليلتى أتضرع إلى الله تعالى وأقول : يا رب ! إنك تعلم سرىّ وجهرى ، وقد اتكلت على فضلك وعوّلت عليك فلا تفضحنى · فبينما أنا عند السحر إذا بقارع يقرع الباب · فقلت : مَن بالباب ؟ فقال : حبيب من الأحباب ، أتى فى سبب من الأسباب ، من الملك الوهاب · ففتحت الباب ، فإذا برجل معه خادم وشمعة · فقال : يا أستاذ ! أتأذن لى بالدخول ؟ فقلت : ادخل ! من أنت ؟ قال : أنا أحمد بن المثنى ، قد أعطانى مالك الدار فأكثر ؛ كنت الليلة نائمًا فهتف بى

هاتف فى المنام : احمل خمس بدرات [1] إلى سرىّ يعطيها لمولى بدعة يفكّها من الأسر ومن رق العبودية الساعة ؛ فلنا بها عناية . فجئت مبادراً بهذا المال ، فاصنع به ما شئت . قال : فخررتُ لله ساجداً وارتقبت الصبح . فلما تعالى ضوء النهار أخذت بيد أحمد ومضيت به إلى المارستان . فإذا الموكَّل به يلتفت يمينًا وشمالاً . فلما رآنى قال : مرحبًا ! ادخل ! فإنّ لها عند الله عناية ؛ هتف بى البارحةَ هاتف ، وهو يقول :

إنهـــــا منَّا ببـــال　　　ليسَ تخلو مِنْ نـــوال
قَرُبت ثُمَّ تسـمَّت　　　وعلت فى كلِّ حـــال

فحفظتُ هذا القول وكرّرته إلى أن أتيتم . فدخلت عليها وهى تقول :

قدْ تصبَّـــرْتُ إلى أنْ　　　عِيلَ فى حبِّك صبـــرى
ضاقَ من غُلِّى وقيـدى　　　وامتهانى فيك صـــدْرى
ليس يخفى عنك أمـرى　　　يا منَى قلبى وذُخـــرى
أنت لى تعتـــقُ رقى　　　وتفكُ اليوم أســـرى

قال : وأقبل مولاها يبكى ويخشع ، فقلت له : قد جئناك بما ورثت وربح خمسة آلاف . فقال : لا والله ! فقلت : بربح عشرة آلاف فقال : لا . فقلت : بربح المثل . فقال : لو أعطيتنى الدنيا ما قبلت ! وهى حرّة لوجه الله تعالى . فقلت له : ما القصة ؟ فقال : يا أستاذ ! وبُخْتُ البارحةَ ، أشهدك أنى خارج من جميع مالى وهارب إلى الله تعالى ؛ اللهم كُنْ لى بالسعة كفيلاً وبالرزق جميلاً . فالتفتُّ إلى ابن المثنى إليه ؛ أشهدك أنى قد تصدقت بجميع مالى لوجه الله تعالى . فقلت : ما أعظم بركة بدعةَ على الجميع ! فقامت بدعة ، فنزعت ما كان عليها ، ولبست مدرعة من الشعر ، وخرجت وهى تقول :

هـــربت منهُ إليه　　　بكَيت منهُ عليـــه
وحـــقِّه فهو مولىً　　　لا زلتُ بين يـــديه
حتى أنال وأحظـى　　　بما رَجوتُ لـــديه

---

(١) البَدْرَةُ : كيس فيه مقدار من المالُ يتعامل به ، ويُقدَّم فى العطايا . ويختلف باختلاف العهود . والجمع : بِدَرٌ وراجع المعجم الوجيز (ص / ٤٠) .

قال سرّى : فأقمت بعد ذلك مدّة حتى مات مولاها . فبينا أنا أطوف بالكعبة وإذا أنا بصوت محزون من كبد مقروحة ، وهو يقول :

قد تشَهَّرتُ بحـــبِّكْ كيفَ لى منـــك بقُربك
كيف بى يا نفسُ إن وا خذكِ اللهُ بذنبـــــكْ
لم يُقاســـى أحدٌ يا نفس كربًا مثـــل كربِكْ
فسلـــى ربَّكِ يأتيـــك الرضى من عند ربكْ

قال : فتبعت الصوت فإذا امرأة كالخيال . فلما رأتنى قالت : السلام عليك يا سرىّ ! فقلت : وعليك السلام ! من أنت ؟ فقالت : لا إله إلا الله ! وقع التناكر بعد المعرفة ! أنا بدعة . فقلت : ما الذى أفادك الحقّ بعد انفرادك عن الخلق ؟ فقالت : أفادنى كل المنى . وأنشدت :

يا من رأى وحشتى فآنسنى
بالقرب من قربة فأنعشنى
هربتُ من مسكنى إلى سكنى
نعم ومن موطنى إلى وطنى
يا سكنى لا خلوْتُ من سكنى
دهرى ويا عدّتى على الزّمن
أوحشنى ما فقدت منه فقدْ
عاد بإحسانه فآنسنى
وعدت أيضًا وعاد منعطفًا
كذلك مذْ كانَ منه عوّدَنى

ثم قالت : لا حاجة لى بالبقاء ، فخذنى إليك ! قال : فحركتها فإذا هى ميّتة - رحمة الله عليها .

* * *

ذكر خبر جماعة ممن أسلم

١٢٣ - (توبة أبى اسماعيل النصرانى واسلامه) (١)

أنبأتنا شهدة بنت أحمد بن الفرج الابرىّ قالت : أنا جعفر بن أحمد السرّاج ، ثنا جعفر الخلدى ، ثنا أحمد بن مسروق ، ثنا محمد بن الحسين ثنا عبد الله بن الفرج العابد ، قال :

كان بالموصل رجل نصرانى يكنى أبا إسماعيل . قال : فمر ذات ليلة برجل وهو يتهجد على سطحه ، وهو يقرأ : ﴿ وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرهًا وإليه يُرجعون ﴾ (آل عمران : ٨٣) قال : فصرخ أبو إسماعيل صرخة غشى عليه ، فلم يزل على حاله تلك حتى أصبح ؛ فلما أصبح أسلم ، ثم أتى فتحًا الموصلى فاستأذنه فى صحبته ؛ فكان يصحبه ويخدمه . قال : فبكى أبو اسماعيل حتى ذهبت إحدى عينيه وعشى من الأخرى . فقلت له يومًا : حدِّثنى ببعض أمر « فتح » . قال : فبكى ، ثم قال : أخبرك عنه ، كان ،والله كهيئة الروحانيين ، معلّق القلب بما هناك ، ليست له فى الدنيا راحة . قلت : علىّ ذاك . قال : شهدت العيد معه ذات يوم ، ورجع بعد ما تفرق الناس ، ورجعت معه . فنظر إلى الدخان يفور من نواحى المدينة ، ثم بكى ، ثم قال : قد قرَّب الناس قربانهم ، فليت شعرى ما فعلتَ فى قربانى عندك أيها المحبوب ؟ ثم سقط مغشيًا عليه . فجئت بماءٍ فمسحت به وجهه فما أفاق ، حتى دخل بعض أزقَّة المدينة ، فرفع رأسه إلى السماء ، ثمّ قال : قد علمتَ طول غمى وحزنى وترددادى فى أزقَّة الدنيا ، فحتّى متى تحبسنى أيها المحبوب ؟ ثم سقط مغشيًا عليه . فجئت بماءٍ فمسحته على وجهه ، فأفاق ، فما عاش بعد ذلك إلا إيامًا حتى مات - رحمه الله .

---

(١) قُلتُ : والصحيح لفظ النصارى وليس المسيحيين ، لأن كلمة مسيحى تدل على كونهُ متبع المسيح عليه السلام وهذا باطل ولكن الذين يعيشون بيننا الآن فهم نصارى ولذلك يقول تعالى « قُل لن ترضى عنك اليهود ولا النصارى ... » وكل آيات القرآن بلفظ النصارى. ومن السنة النبوية . قوله ﷺ فأبواه يُهودانهِ أو يُنصرانهِ أو يمجسانه ... » ففى اللفظ النبوى : يُنصرانه . والحديث صحيح: رواه البخارى (٣ / ٢١٩) كتاب الجنائز(٢٣) «ح » (١٣٥٨) و (١٣٥٩) و (٤٧٧٥) و (٦٥٩٩) ، ومسلم (٤ / ٢٠٤٧) «ح» (٢٢ / ٢٦٥٨) . والله تعالى أعلم .

١٢٤ - (توبة شاب نصراني واسلامه)

أنبأنا الحافظ أبو طاهر السلفي ، أنا أبو الحسين بن الطيوريّ أنا عبد العزيز بن عليّ ، أنا عليّ بن عبد الله الصوفي ، ثنا محمد بن داود قال : حدثني حامد الأسود صاحب إبراهيم الخواص ، قال :

كان إبراهيم ، إذا أراد سفرًا ، لم يحدِّث به أحدًا ولم يذكره ؛ وإنما يأخذ ركوته [1] ويمشي · فبينا نحن معه في مسجده تناول ركوته ومشى · فاتبعته ، فلم يكلمني ، حتى وافينا الكوفة · فأقام بها يومه وليلته ، ثم خرج نحو القادسية ، فلما وافاها ، قال لي : يا حامد ! إلى أين ؟ قلت : يا سيدي ! خرجت بخروجك · قال: أنا أريد مكة إن شاء الله ! قلت : وأنا إن شاء الله أريد مكّة ، فمشينا يومنا وليلتنا · فلما كان بعد أيام إذا شاب قد انضم إلينا في بعض الطريق · فمشى يومًا وليلة لا يسجد لله - عزّ وجلّ - سجدة · فعرّفت إبراهيم ، وقلت : إنّ هذا الغلام لا يصلي · فجلس ، وقال له : يا غلام ! مالك لا تصلي ، والصلاة أوجب عليك من الحجّ · فقال : يا شيخ ! ما عليّ صلاة · قال : ألست برجل مسلم ؟ قال : لا· قال : أيّ شيء أنت ؟ قال : نصرانيّ ، ولكن إشارتي في النصرانية إلى التوكّل ؛ وادّعتْ نفسي أنّها قد أحكمت حال التوكل فلم أصدّقها فيما ادّعت ، حتى أخرجتُها إلى هذه الفلاة [2] التي ليس فيها موجود غير المعبود ، أثير ساكني وأمتحن خاطري ·

فقام إبراهيم ومشى ، وقال : دعهُ يكون معك · فلم يزل يسايرنا إلى أن وافينا « بطن مَرّ » فقام إبراهيم ونزع خُلْقانه وطهّرها بالماء ، ثمّ جلس وقال له : ما اسمك ؟ قال : عبد المسيح · فقال : يا عبد المسيح ! هذا دهليز مكة ، وقد حرم الله على أمثالك الدخول إليه وقرأ ﴿ إنما المشركونَ نجسٌ فلا يقربوا المسجد الحرامَ بعدَ عَامِهم هذا ﴾ (التوبة : ٢٨) والذى أردتَ أن تستكشف من نفسك فقد بان لك ، فاحذر أن تدخل مكّة ! فإن رأيناك بمكة أنكرنا عليك · قال حامد : فتركناه ودخلنا

---

(١) الركوة : إناء صغير من جلد يُشرب فيه الماء و - : الدلو الصغير · والجمع : رِكاء· أما : الركية · البئر لم تطو · وراجع المعجم الوجيز (ص / ٢٧٧) ·

(٢) الفلاة : الأرض الواسعة المُقفرة · والجمع · فَلاً ، وفَلوَات · وراجع المعجم الوجيز (ص / ٤٨١) ·

مكّة ، وخرجنا إلى الموقف . فبينا نحن جلوس بعرفات إذا هو قد أقبل وعليه ثوبان وهو مُحرم ، يتصفّح الوجوه حتى وقف علينا ، فأكب على إبراهيم يقبل رأسه . فقال له : ما وراءك يا عبد المسيح ؟ فقال : هيهاتَ ! أنا اليوم عبدُ مَنِ المسيح عبده ! فقال له إبراهيم : حدّثني حديثك . فقال : جلستُ مكانى حتى أقبلت قافلة الحاج ، فقمتُ وتنكّرت فى زىّ المسلمين كأنى محرم . فساعة وقعت عينى على الكعبة اضمحلّ عندى كل دين سوى الإسلام ، فأسلمت واغتسلتُ وأحرمتُ . وها أنا أطلبك يومى ، فالتفت إلينا إبراهيم وقال : يا حامد ! انظر إلى بركة الصدق فى النصرانية كيف هداه إلى الإسلام وصحبنا حتّى مات بين الفقراء - رحمه الله .

* * *

١٢٥ - (توبة عابد صنم واسلامه)

وحُكى عن عبد الواحد بن زيد ، قال : كنت فى مركب ، فطرحتنا الريح إلى جزيرة ، وإذا فيها رجل يعبد صنمًا . فقلنا له : يا رجل ! مَنْ تعبد ؟ فأومأ إلى الصنم . فقلنا : إنّ معنا فى المركب من يسوّى مثل هذا ، وليس هذا إله يُعبد . قال: فأنتم لمن تعبدون ؟ قلنا : الله . قال : وما الله ؟ قلنا : الذى فى السماء عرشُه، وفى الأرض سلطانه ، وفى الأحياء والأموات قضاؤه . فقال : كيف علمتم به ؟ قلنا : وجّه إلينا هذا الملك رسولاً كريمًا فأخبر بذلك . قال : فما فَعَل الرسول ؟ قلنا : أدّى الرسالة ثم قبضه الله . قال : فما ترك عندكم علامة ؟ قلنا : بلى ، ترك عندنا كتاب الملك . فقال : أرونى كتاب الملك ، فينبغى أن تكون كتب الملوك حسانًا .

فأتيناه بالمصحف ، فقال : ما أعرف هذا . فقرأنا عليه سورة من القرآن ، فلم نزل نقرأ ويبكى حتى ختمنا السورة . فقال : ينبغى لصاحب هذا الكلام أن لا يعصى! ثمّ أسلم ، وحملناه معنا وعلّمناه شرائع الإسلام وسورًا من القرآن . وكنا حين جنّنا الليل وصلينا العشاء وأخذنا مضاجعنا ، قال لنا : يا قوم ! هذا الإله الذى دللتموني عليه ، إذا جنّه الليل ينام ؟ قلنا : لا ، يا عبد الله ! هو عظيم قيّوم لا ينام . قال : بئس العبيد أنتم ، تنامون ومولاكم لا ينام ؟ فأعجبنا كلامه . فلمّا قدمنا « عبّادان » قلت لأصحابى : هذا قريب عهد بالإسلام . فجمعنا له دراهم وأعطيناه . فقال : ما هذا ؟ قلنا : تنفقها . فقال : لا إله إلاّ الله ! دللتمونى على طريقٍ ما

سلكتموها ؛ أنا كنت فى جزائر البحر أعبد صنمًا من دونه ولم يضيِّعنى ، يضيّعنى وأنا أعرفه ؟! لما كان بعد أيام قيل لى : إنه فى الموت . فأتيته ، فقلتُ له : هل من حاجة فقال : قضى حوائجى من جاء بكم إلى جزيرتى . قال عبد الواحد : فحملتنى عينى ، فنمت عنده . فرأيت مقابر « عبّادان » روضة وفيها قبة ، وفى القبة سرير عليه جارية لم يَر أحسن منها . فقالت : سألتك بالله إلا ما عجّلتَ به ، فقد اشتدّ شوقى إليه . فانتبهتُ ، وإذا به قد فارق الدنيا . فقمت إليه فغسلته وكفّنته وواريته . فلما جنّ الليل نمتُ ، فرأيته فى القبّة مع الجارية ، وهو يقرأ : ﴿ وَالملائكَةُ يَدْخلونَ عَلَيْهِمْ من كل بابٍ . سَلامٌ عَلَيكم بما صَبَرْتُمْ فَنِعْم عُقْبى الدَّارِ ﴾

(الرعد : ٢٣ ، ٢٤) .

* * *

١٢٦ - (توبة مجوسى واسلامه وأهل داره)

وقرأت فى « الملتقط » أن بعض العلويين كان نازلاً بـ « بلخ » وله امرأة عَلويَّة ولها بنات قد أصابهم الفقر . ومات الرجل ، فخرجت المرأة بالبنات إلى « سمرقند » خوفًا من شماتة الأعداء . فاتفق خروجها فى شدّة البرد ، فلما دخلوا البلد أدخلتهم مسجدًا ومضت تحتال لهم فى القوت ، فمرّت بجمعين ؛ جمعٍ على رجل مسلم وهو شيخ البلد ، وجمع علي مجوسى هو ضامن البلد ، فبدأت بالمسلم ، فشرحت له حالها ، وقالت : أريد قوت الليلة ، فقال : أقيمى عندى البينة أنك علوية ، فقالت: ما فى البلد من يعرفنى ، فأعرض عنها ، فمضت إلى المجوسى ، فأخبرته بالخبر وحدثته ما جرى لها مع المسلم ، فبعث معها أهل داره إلى المسجد ، فجاؤوا بأولادها إلى داره ، فألبسهم الحلل الفاخرة . فلما انتصف الليل رأى ذلك المسلم فى منامه كأنّ القيامة قد قامت ، واللواء على رأس محمد ﷺ ، وإذا قصر من الزمرّد الأخضر . فقال له : يا رسول الله ! لمن هذا القصر ؟ فقال : لرجل مسلم موحِّد ، فقال : يا رسول الله ! فأنا مسلم موحد . فقال : أقمْ عندى البينة بأنك مسلم موحد، فبقى الرجل متحيرًا . فقال له : لمَّا قصدتْكَ العلَوية قلتَ لها : أقيمى عندى البنية ؛ فهكذا أنتَ أقِمْ عندى البينة . فانتبه يبكى ويلطم . وخرج يطوف البلد على المرأة حتى عرف أين هى ، فأرسل إلى المجوسىّ فأتاه ، فقال له : أين العلوّية ؟

قال: عندى ، قال : أريدها · قال : ما إلى هذا من سبيل · قال : خذ منى ألف دينار وسلمهم إلىّ · قال : ما أفعل ! قد استضافونى ولحقنى من بركاتهم · قال : لابدّ منهم ! قال : الذى تطلبه أنا أحقّ به ، والقصر الذى رأيتَه لى خُلق ! أتُدلّ علىّ بإسلامك ؟ واللهِ ما نمتُ ولا أهل دارى حتى أسلمنا على يد العلوية · ورأيتَ مثل منامك الذى رأيت ؛ وقـــال لى رسول الله ﷺ : العلّوية عندك وبناتها ؟ قلتُ : نعم · قال : القصر لك ولأهل دارك ، وأنت وأهل دارك من أهل الجنة ؛ خلقك الله مؤمنًا فى الأزل ·

* * *

١٢٧ - (توبة يهودى محسن واسلامه)

وروى عن ختن أبى عمران اللؤلؤىّ ، وكان رجلاً صالحًا يخدم الفقراء وبيته بيت ضيافة ، أنه نزل به قوم ، فمضى إلى الحاكم يطلب لهم شيئًا ، فلم يُعطِه ، فمضى إلى يهودىّ ، فبعث إلى داره ما يحتاج إليه · فلما نام الحاكم رأى كأنه عَلى باب قصر من لؤلؤة حمراء ، فهم أن يدخله ، فمنع منه وقيل له : إنّ هذا كان لك فدُفع إلي فلان اليهودى ، فلمّا أصبح الحاكم مضى إلى ختن أبى عمران ، فسأله عن القصة فأخبره ، فاستحضر الحاكم اليهودىّ وقال : لك قصر فى الجنة ، تبيعه بعشرة آلاف درهم ؟ فقال : لا ، فزاده ، فأبى ؛ وسأله عن القصة ، فقصّ عليه الرؤيا ، فقال اليهودىّ لختن (١) أبى عمران : اعرضْ علىّ الإسلام ! فأسلمْ ·

* * *

١٢٨ - (توبة مجوسى كريم واسلامه مع أولاده ورهطه)

وعن أبي حفص النيسابورىّ أنه قال لأصحابه يومًا فى وقت الربيع : تعالوا نخرج إلى التنزّه ، فخرجوا ؛ فمروا بمحلّة ، فإذا شجرة كُمَّثرى قد أثمرت فى دار ، فوقف ينظر إليها ، فخرج من تلك الدار رجل مجوسىّ شيخ كبير ، فقال له : يا مقدَّم الأخيار ! هل تكون ضيفًا لمقدَّم الأشرار ؟ فدخل أبو حفص مع أصحابه ،

---

(١) الخَتَنُ : كل من كان من قبل المراة كأبيها ، وأخيها ، وكذلك زوج البنت أو الأخت · والجمع : أختان وراجع المعجم الوجيز (ص / ١٨٦) ·

وكان معهم من قُرّاء القرآن . فأخرج المجوسيّ كيسًا فيه دراهم ، وقال : أعلم أنكم تتنزّهون ممّا تصل أيدينا إليه من الطعام ، فمُر من يشترى لكم شيئًا من السوق ، ففعلوا ، فلما أراد أبو حفص أن يخرج قال له المجوسيّ : لا يمكنك أن تخرج إلا وأنا معك ! فأسلم ، وأسلم من أولاده ورهطه بضعة عشر نفسًا .

* * *

١٢٩ - (توبة مجوسى بغدادى واسلامه مع ابنه وابنته وكثير من أصحابه)

وجدتُ فى كتاب « الجوهرىّ » ، قال : حدّث ابن أبى الدنيا أن رجلاً نام ، فرأى المصطفى ﷺ وهو يقول له : امضِ إلى المجوسىّ الذى فى بغداد ، وقل له: قد أجيبت الدعوة ، فلما أصبحتُ قلتُ : كيف أمضى إلى مجوسىّ ؟! فنمتُ الليلة الثانية ، فرأيت مثل ذلك . ثمّ رأيت مثل ذلك فى الليلة الثالثة ، فلما أصبحت تحمّلت إلى بغداد ، وأتيت المجوسىّ ، فوجدته فى نعمة عريضة ودنيا واسعة . قال: فدخلت إليه وسلمت عليه وجلست . فقال : ألك حاجة ؟ فقلت : نعم . قال : تكلم . قلت : فى خلوة . فانصرف الناس وبقى أصحابه ؛ فقلت : وهؤلاء ، فصرفهم ، وقال : قلْ . قلت : أنا رسولُ رسول الله ﷺ إليك ، وهو يقول لك: قد أُجيبت الدعوة . فقال : أتعرفنى ؟ قلت : نعم . قال : فإنى أنكر الإسلام، وأنكر رسالة محمد عليه السلام . قلت : كذلك قلت : وهو أرسلنى إليك، قال : أرسلك إلىّ ؟ قلت : نعم . قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله .

ثم دعا أصحابه وقال : قد كنت فى ضلال وقد رجعت إلى الحق ؛ فمن أسلم فما فى يديه له ، ومن لم يسلم فلينزع مما لى عنده ، فأسلم القوم إلا قليلاً . ثم دعا ابنه ، فقال : يا بنىّ ! إنى كنت فى ضلال وقد أسلمت ؛ فما أنت صانع ؟ قال : يا أبتِ ! أُسلم . فأسلم . ثم دعا ابنته ، وقال : يا بنية ! قد أسلمتُ وأسلم أخوكِ ، فإن أنت أسلمت فرّقت بينكما . فقالت : يا أبت ! والله لقد كنت كارهة لاجتماعى به ، وأسلمتُ . فقال لى : أتدرى الدعوة التى أُجيبت ؟ قلت : لا . قال : لمّا زوجت ابنتى بولدى وصنعت له طعامًا ودعوتُ الناس كلّهم ، فأجابوا لما خولنى الله

من الدنيا . فلما أكل الناس تعبت " فقلت للخادم : افرش لى حصيرًا فى أعلى الدار أنام شيئًا . فطلعت ؛ وكان بجوارنا قوم أشراف فقراء . فسمعت صبيّة وهى تقول لأمها : يا أماه ! قد آذانا هذا المجوسىّ برائحة طعامه . قال : فنزلتُ وحملتُ لهم طعامًا كثيرًا ، ودنانير كثيرة ؛ وكسوة لكل من فى الدار . فقالت الواحدة : حشركَ الله مع جدّى ! وقال الباقون : آمين ! فتلك الدعوة التى أُجيبت .

* * *

١٣٠ - (توبة طبيب نصرانى محسن وإسلامه) (١)

ورُوى أنَ بعض مشايخ الصوفية خرج على أصحابه ، وكانوا أربعين رجلاً وقد أقاموا ثلاثة أيام لم يفتح لهم بطعام ، فقال لهم : يا قوم ! إن الله قد أباح التسبّب للعباد ؛ فقال تعالى : ﴿ فامشُوا فى مناكبها وكلوا من رِزقه ﴾ (تبارك : ١٥) ؛ فانظروا من يخرج منها فليأتِنا بشىء ، قال : فخرج فقير فمشى فى جانبى بغداد ، فلم يجد من يسأله فى شىء ، فأخذه الجوع والتعب ، فجلس على دكان طبيب نصرانى والناس عليه خلق عظيم يصف لهم الدواء . فقال له النصرانى : ما بك ؟ فلم يرَ أن يشكو إلى نصرانى حاله ، بل مديده إليه ، فمسّ يده . فقال النصرانى عند ذلك : هذه علة أنا أعرف دواءها ؛ يا غلام ! امض إلى السوق وائتنى برطل خبز ورطل شواء ورطل حلواء . فقال الفقير : فهذه العلة بأربعين رجلاً . فقال : يا غلام ! ائتنى بأربعين مثل ذلك . فأتى الغلام بذلك . فسلّمه النصرانى إلى الفقير ، وقال : خذه لمن ذكرتَ . فأخذه معه الحمال ومضى معه إلى الدُّوَيرة . وقام النصرانى يختبر صدق الفقير . فلما أتى الدُّوَيرة وقف خارجًا منها خلف طاق ، حتى

---

(١)ملحوظة يجب وضعها فى الإعتبار : وهى أن بعض علماء العقيدة قالوا لا يصح إطلاق لفظ الطبيب على الله وهذا وهم لحديث رسول الله ﷺ « الله الطبيب ، بل أنت رجل رفيق ، طبيبها الذى خلقها » والحديث : صحيح : رواه أحمد (٢ / ٢٢٦ - ٢٢٧ و ٣٢٧) و (٤ / ١٦٣) وأبو داود (٢ / ١٩٥) وابن منده فى المعرفة » (١ / ١٦) ، وقال الألبانى: إسناد صحيح على شرط مسلم . وفى صحيح الجامع (١ / ٣١١) برقم (١٤٨١) وفى الصحيحة (٤ / ٥١ - ٥٢) برقم (١٥٣٧) وفى المشكاة برقم (٣٤٧١) .

دخل الفقير فوضع الطعام ، واجتمع الشيخ والفقراء · وقدموا الطعام ، فأمسك الشيخ عن الطعام ، وقال : يا فقير ! ما قصة هذا الطعام ؟ فحكى له القصة بكمالها · فقال الشيخ : أترضَون أن تأكلوا طعام نصرانيّ وصلكم به دون مكافأة ؟ قالوا : ما مكافأته ؟ قال : تدعون الله له قبل أكل طعامه بالنجاة من النار ، فَدَعواْ له وهو يسمع · فلما رأى النصرانيّ إمساكهم عن الطعام مع حاجتهم إليه ، وسمع ما قال الشيخ ، قرع الباب ، ففتح له ودخل ، وقطع الزُّنّار ، وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله ·

* * *

تم بعون الله تعالى وتوفيقه - كتاب التوابين

للإمام موفق الدين بن قدامة المقدسى رحمه الله

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *

من هدى القرآن الكريم فى التوبة

لقد أمرنا الله تعالى بالتوبة فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحًا ﴾ أى توبة صادقة جازمة تمحو ما قبلها من السيئات ، وتلم شعث التائب وتجمعه وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات .

ووعد القبول عليها فقال : ﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ﴾ .

وفتح باب الرجاء فقال : ﴿ قل يا عبادىَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

وأمرنا أن نلتمس النجاة على عجل : وأن نبادر إلى التوبة قبل دنو الأجل فقال :

﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليمًا حكيمًا . وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابًا أليمًا ﴾ .

وندبنا إلى المبادرة إلى فعل الخيرات والمسارعة إلى نيل القربات فقال :
﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلى الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾ .

* * *

من هدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في التوبة

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة » رواه مسلم فى « صحيحة » عن الأغر بن يسار المزنى رضى الله عنه . وقال أيضًا : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » رواه مسلم عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه . وقال : « كل بنى آدم خطَّاء ، وخير الخطائين التوابون » رواه أحمد ، والترمذى وغيره عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وهو حديث حسن .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا ، يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسونى أكسُكم ، يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفرُ الذنوب جميعًا فاستغفرونى أغفر لكم ، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئًا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئًا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد ، فسألونى فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادى إنما إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » رواه مسلم فى « صحيحه » عن أبى ذر الغفارى رضي الله عنه .

* * *

شروط التوبة

قال الإمام النووى فى « رياض الصالحين » : قال العلماء : التوبة واجبة من كل ذنب ، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمى ، فلها ثلاثة شروط . أحدها : أن يقلع عن المعصية والثانى : أن يندم على فعلها (١) . والثالث : أن يعزم أن لا يعود إليها أبدًا . فإن فقد أحد الثلاثة ، لم تصح توبته .

وإن كانت المعصية تتعلق بحق آدمى ، فشروطها أربعة : هذه الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالاً أو نحوه ، ردَّه إليه ، وإن كان حدَّ قذف ونحوه ، مكنه منه أو طلب عفوه . وان كان غيبة ، استحله منها .

ويجب أن يتوب من جميع الذنوب ، فإن تاب من بعضها ، صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب ، وبقى عليه الباقى .

* * *

هذا وقد إنتهينا بفضل الله من تحقيق كتاب التوابين .

والحمد لله ربِّ العالمين .

خادم السنة النبوية الشيخ /

محمود عبد الملك الزغبى

المنصورة

---

(١) ويعضد ذلك قوله ﷺ « الندم توبة » رواه أحمد فى المسند ، وابن ماجه فى السنن ، والحاكم فى المستدرك ، والبيهقى . والطبرانى بزيادة « والتائب من الذنب كمن لا ذنب له » ورواه أبو نعيم بهذه الزيادة أيضًا . وصححهما الألبانى . وراجع صحيح الجامع برقمى (٦٨٠٢) و(٦٨٠٣) ، وفى الضعيفة برقمى (٦١٥) و(٦١٦) .

الفهـــــــــرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب : ١٣٠٧٢ / ٩٦


